دايفيد كان

حرب الاستخبارات

ترجمة: عبد اللطيف أفيوني

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

هذه النسخة مصورة عن نسخة وجدتها بدار الكتب المصرية و قمت بتصويرها على اكثر من مرحلة حيث أن قوانين دار الكتب لا تسمح إلا بتصوير عدد معين من الصفحات من الكتاب الواحد في كل مرة، و بعد أن انتهيت من تصوير النسخة تعرضت في الطريق إلى البلل بسبب المطر مما اجبرني على إعادة طباعة بعض الصفحات قبل إجراء المسح الضوئي عليها.

(ديفيد كان) له عديد المؤلفات و لم أجد من بينها كتاب بعنوان (حرب الاستخبارات) غير اني وجدت في هذه الترجمة مقتطفات من كتابه الجليل: (The Codebreakers)، الذي يُعد إنجيل تاريخ علم التعمية و كشف المُعمى أو (التشفير و فكه)

«اخترع الإنسان فن الكتابة بالشيفرة أو بأحرف غير معروفة، وذلك ليضلل أولئك الذين يسعون إلى كشف أسراره. لكن العقل البشري نفسه، مدفوعاً بعاملي الضرورة والمصلحة، توصل إلى وضع القواعد التي تمكنه من ترجمة تلك الرموز، وبالتالي، من فضح أسرار الآخرين».

فرنسوا دي غالبير (١٦٤٥ - ١٧١٧)
من كتابه «في التفاوض مع الملوك».

مدخل

لا شك في أن حل الرموز يعتبر المصدر الأهم للمعلومات السرية. فهو يفوق بكثير فعالية التجسس. وليس من مؤرخ تطرق إلى هذا الموضوع بصورة شمولية.

ساعد هذا العلم على تقصير أمد الحرب في الباسيفيك مدة سنة. وقد جندت له بريطانيا ثلاثين ألفاً من الدارسين والمختصين. غير أنه، على الرغم من فعاليته التي أثبتها خلال الحرب العالمية الثانية، لا سيما في بيرل هاربور، فقد أغفلته معظم المؤلفات الخاصة بهذه الحرب. وهذا ما يثبت وجود ثغرة في إظهار الحقائق بدقائقها.

لقد عكفت على كتابة هذا المؤلف لأفي هذا العلم حقه، وذلك عن طريق إبراز مراحل تطوره من جهة، وعن طريق تبيان انعكاساته على الأحداث من جهة أخرى.

ومما زاد في صعوبة تأليف الكتاب، ندرة المراجع في حقله. غير أني لم أتوان عن العودة إلى الينابيع واستقاء المعلومات منها. كما أني توخيت عدم تضخيم دور علم الرموز، سواء في الحرب أو في الديبلوماسية، مثلما يجري عادة في الكتب التي تتحدث عن التجسس.

أخيراً، أشير إلى أنه يستحيل علي إيفاء الذين ساعدوني في إتمام هذا المؤلف حقهم من الشكر. فدينهم علي كبير.

المؤلف

الولوج إلى عالم الرموز

بغية فهم تقنية من التقنيات، لا بد من الوقوف على التعابير الخاصة بها. وهذا ما يجب عمله في نطاق موضوع بحثنا في هذا الكتاب. وإذا كنا قد ضحينا ببعض التفاصيل غير الهامة، فلأننا أردنا توفير بعض العناء على القارىء الكريم، ولأننا اعتبرنا أن فهم الأصل يؤدي، دونما اثقال، إلى فهم الفروع المنبثقة عنه.

هناك وسيلتان للحفاظ على سر معين: الأولى اخفاؤ ه بالذات، كما هي الحال باستعمال الحبر السري أو النقاط الدقيقة أو تركيب الرسائل من الأحرف الأولى من كل كلمة فيها، والثانية ترجمة الرموز إلى كلمات مفهومة. وهذا يتم إما بتبديل أماكن احرف الكلمة (من «ك ت ا ب» إلى «ا ت ك ب») أو باستبدال الأحرف بالأرقام (ك ت ا ب تستبدل بـ ١٥ ٣ ١٠ ٤ مثلاً). ففي الطريقة الأولى، تحتفظ أحرف الكلمة بهويتها مع تعديل في أماكنها. في حين تفقد الأحرف، في الطريقة الثانية، هويتها وتحتفظ رقمياً بترتيبها. هذا ويمكن اللجوء إلى الطريقتين معاً في رسالة واحدة. إن طريقة تبديل أماكن الأحرف هي الأكثر تنوعاً، ونسبياً، الأكثر شيوعاً. وفي ما يلي نمط لهذه الطريقة:

الأبجدية الأساسية	الأبجدية البديلة	الأبجدية الأساسية	الأبجدية البديلة
ا	ث	ض	ر
ب	ح	ط	ق
ت	ز	ظ	غ
ث	ص	ع	ف
ج	ش	غ	ن

ح	س	ف	ل
خ	أ	ق	م
د	ث	ك	هـ
ذ	ب	ل	و
ر	ض	م	ي
ز	ن	ن	ض
س	خ	هـ	ظ
ش	د	و	ط
ص	ج	ي	ع

وهكذا يقابل كل حرف من الأبجدية الأساسية حرف آخر بديل في تدبيج الرسالة السرية. مثال ذلك: كلمة «هجوم» تصبح عند الاستبدال «ضشظو». ويمكن تنويع التمويه بتعديل الأبجدية البديلة باستمرار، كذلك الحال في طريقة الأرقام المشار اليها آنفاً. وامعاناً في التضليل، يمكن استبدال بعض الأحرف بفراغ. وهكذا مع تنويع البدائل من أبجديات أو أرقام، ننتقل من استبدال بسيط إلى استبدالات متنوعة. وقد تطورت الآلات الكاتبة الخاصة بالرسائل السرية لتماشي هذا التنويع. وعملية استبدال الأحرف بأحرف أخرى أو بأرقام يمكن أن تتطور لتصبح استبدال مقاطع أو كلمات أو تعابير بمقاطع أو بصمات أو تعابير أخرى، أو حتى بمجموعة من الأرقام. هذه الطرق جميعاً ظلت سائدة في عالم الإستخبارات مدة أربعمائة وخمسين سنة تقريباً، من سنة ١٤٠٠ حتى سنة ١٨٥٠ ميلادية. كما أنها كانت كثيرة الاستعمال في الحقل التجاري قبل أن تتلاشى الحاجة إليها مع تطور وسائل الإتصال الحديثة. وجميعها تعتمد على ايجاد المفتاح الذي اتخذ أساساً في وضع تفاصيلها. هذا وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى أن استعمال الرموز ليس محصوراً بالضرورة في الاستخبارات السرية، بل يمكن أن يكون مفيداً أيضاً في المخابرات المكشوفة عندما يكون الهدف اختصار المراسلة هاتفياً أو برقياً توفيراً للوقت والكلفة معاً.

منذ عصر النهضة حتى يومنا هذا، تطورت الآلات الخاصة بحل الرموز من يدوية تعتمد وسائل بدائية (مساطر خشبية ودوائر وأطر منفصلة) إلى ميكانيكية أو ميكانيكية ـ كهربائية في القرن العشرين، بوسائل وإمكانات أفضل، إلى أخيراً، أجهزة الكترونية تعدت في فعاليتها كل ما سبقها من تقنيات.

وتتعدى وسائل الاستخبارات السرية الماديات الى الاستنتاجات. فالوقت الفاصل بين رسالة وأخرى يمكن أن يكون له مدلول سري معين. كذلك الحال بالنسبة لعدد أسطر الرسالة أو عدد كلمات السطر فيها أو كلماتها كلها أو سوى ذلك من المعاني والرموز المتفق عليها بين المرسل والمرسل إليه.

الفصل الأول

الثلاثة آلاف سنة الأولى من تاريخ الاستخبارات

ذات يوم منذ أربعة آلاف سنة، وفي مدينة تدعى مينة خوفو على ضفاف النيل، قصت إحدى المخطوطات الهيروغليفية تاريخ أحد فراعنة ذلك الزمان، وكانت تلك المخطوطة أولى كلمات تسطر في تاريخ حل الرموز الطويل. كما كانت، إلى جانب ذلك، أول كتابة هيروغليفية مختلفة عن سواها من الكتابات الهيروغليفية المألوفة والمعروفة آنذاك. وهذا ما يفسر علاقتها بلغات الرموز وما آلت اليه اليوم بعد تطور مستمر تعود بدايته إلى ذلك العصر الغابر. وفي العام ١٩٠٠ ق. م.، نقشت هذه المخطوطة على قبر خوفو موتب الثاني إلى جانب ٢٢٢ عموداً كانت تحيط بالمقبرة، لم يبق منها سوى عشرين فقط. وقد تبين للدارسين أن تلك المخطوطة لم تكن تهدف إلى إخفاء معلومات حتى توضع بلغة مختلفة عن السائد في عصرها، بل إلى أضفاء طابع من الرسمية، كما لو كانت قراراً حكومياً أو تشريعاً صادراً عن أعلى سلطة في الدولة. وخاصية غير المألوف هذه هي التي أعطتها قيمتها التاريخية المميزة كأول نص كتب في تاريخ المخطوطات السرية. وهناك نصوص أخرى مماثلة كتبت في ما بعد ونقشت، وهي تمثل صيغاً متنوعة من الصيغ الجنائزية التي حواها كتاب الأموات الخاص بالفرعون ستهي الأول في الأقصر. ومما يلفت الأنظار، أن بعضاً من هذه المخطوطات، المتأخرة زمنياً عن الأولى، قد هدف إلى إعطاء معلومات سرية. لكن الهدف من السرية هذه لم يكن إخفاء محتوى المخطوطة عن القارىء، كما هي الحال في حرب الإستخبارات بين الأفراد والمؤسسات والدول في هذه الأيام، إنما إضفاء الطابع السحري، عن طريق الغموض، وذلك بغية استجلاب الهيبة والبركة واحاطة من نقشت المخطوطة على قبره بهما. وهذا، بنظر ناقشي المخطوطة، يستمطر الرحمة من الآلهة. غير أن الغموض كان من شأنه، على المدى

الطويل، إبعاد الناس عن هذه الكتابات، مما جعل عمر التجربة قصيراً. ومهما يكن من أمر، فان هذه المرحلة من المخطوطات السرية تعتبر، على الرغم من شحها، بداية تاريخية لعالم الإستخبارات. ويكفي، لارتباطها بهذا العالم، احتواء نصوصها على العنصرين المكونين له وهما الإستبدال والسرية.

كان تاريخ الرموز بطيئاً في الآلاف الثلاثة الأولى من سنيه. كان هذا العلم ينبت ويترعرع وسط مدنية معينة ويضمحل باضمحلالها، وباستثناء بقايا لا قيمة لها كانت تستمر وتنتقل إلى مدنية أخرى لاحقة. ولم تتبلور الرموز كعلم وكفن إلا مع بزوغ فجر النهضة.

في الصين لم تبلغ الرموز شأواً بعيداً يذكر. كانت المراسلات تتم بالطريقة الشفهية يتولاها سعاة مختصون، أو بواسطة رسائل كانت تكتب على حرير ناعم، وتوضع في كرات صغيرة من الشمع يخفيها ناقلوها سواء عن طريق بلعها أو عن طريق ادخالها في احشائهم من الخلف. وأول مؤلف تحدث عن استعمال الرموز في الصين القديمة يعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي. في هذا المؤلف يتبين أن الصينيين استخدموا طريقة الأستبدال في مراسلاتهم العسكرية. لكن الأمر ظل محصوراً في نطاق ضيق ومحدود. يدل على ذلك أن جنكيز خان، وهو أكبر الفاتحين الأسيويين، لم يعرف الرموز طوال كل فتوحاته.

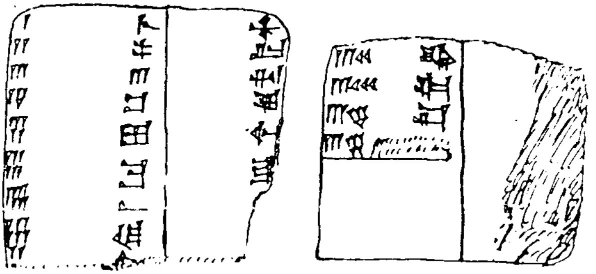
ويذكر في كتب التاريخ أن ين تانغ، الأبن التاسع للأمبراطور شنغ تسو، انهزم عام ١٧٢٢ ميلادية من قبل أخيه ين تشن في معركة بينهما على عرش أبيهما المتوفي، ونفي إلى مقاطعة سيننغ حيث اصطحبه مبشر برتغالي يدعى جواو موراو وعلمه الأبجدية اللاتينية. وقد استخدم ين هذه الأبجدية ليكتب بها رسائل سرية إلى ابنه. وفي بداية عام ١٧٢٦، وقعت إحدى تلك الرسائل في أيدي رجال أخيه الأمبراطور، مما دفع هذا الأخير إلى نفيه في مقاطعة باو تنغ فو حيث مات. كما مات موراو هو الآخر في السجن.

لماذا لم تنم لغة الرموز في الصين مع أن الحضارة الصينية بزت الكثير من الحضارات السابقة؟ هذا السؤال وجد العلامة أوين لا تيمور (من جامعة ليدز) الجواب عليه، وهو أن اللغة الصينية كانت بحد ذاتها لغة رموز لصعوبتها وندرة قارئيها من الصينيين أنفسهم.

أما في الهند، التي بلغت شأواً بعيداً من المدنية في حقبة طويلة من الزمن، فالوضع كان مختلفاً كل الأختلاف. لقد عرفت الهند الرموز وطرق فكها. ففي كتاب فاتسيايانا، جاء أن على النساء تعلم «الكتابة السرية» من بين الفنون الأربعة والستين التي يجب عليهن تعلمها. كما جاء في الأرتا ساسترا الشهير لمؤلفه كوتيليا (كتبه بين عامي ٣٢١ و ٣٠٠ ق. م.) إن على السفراء تعلم فن فك الرموز عن طريق الاستماع إلى أحاديث الناس وثرثرة الشحاذين والسكارى والمجانين، وكذلك الاستماع إلى النائمين الذين يتكلمون في نومهم وقراءة ما يكتب في المعابد وأماكن الحج، وأخيراً، عليهم تعلم فك الرموز التي تحويها الكتابات السرية. وهذا المؤلف هو أول بادرة عملية في علم فك الرموز لأغراض سياسية.

الحضارة الرابعة التي عرفت لغة الرموز كانت حضارة ما بين النهرين. تطور هذا الفن فيها بشكل مشابه لما جرى في مصر. لكنه تعدى الحدود المصرية ليصل إلى مستوى يدعو إلى الدهشة والإعجاب. فأقدم عملية فك للرموز ظهرت على لوحة صغيرة من الفخار طولها ثماني سنتمترات وعرضها خمسة، يعود تاريخها إلى حوالي عام ١٥٠٠ ق. م. وجدت هذه اللوحة في سيلوسيا على ضفاف دجلة. كان الطلاء الذي غطيت به الأول من نوعه في التاريخ. وقد استخدم هذا الطلاء لإخفاء رموز لم يستطع العلم حتى هذه اللحظة فكها.

كان البابليون والأشوريون يستخدمون أحياناً اشارات مسمارية نادرة آنذاك لتأريخ وتوقيع لوحاتهم. وفي عهد السيلوسيين، قبل قليل من العهد المسيحي، أصبحت اللغة المسمارية تستعمل في أوروك (العراق حالياً) على سبيل التحذلق أو التسلية، بعد أن أصبحت في نهاية عهد انحطاطها.



لوحات سوز

ومن الواضح أن مخطوطات هذه الحضارة لم تكن، في نطاق الرموز السرية، مبنية على قاعدة واضحة من المقابلة بين الأصل والرمز. باستثناء ما اكتشف من لوحات في سوز (ايران حالياً)، والتي قد تكون أقدم رمز مكتشف في هذا النطاق.

والكتابات المقدسة لم تتجنب تماماً فن الرموز أو ما يشابهه. فالتقليد العبري يعدد استبدالات ثلاثاً في العهد القديم. في حين أن العهد الجديد لم يتوسل السرية. وهذا مجال للأستغراب.

وفي الألياذة أشارة من هوميروس إلى رسالة تحوي بعض الرموز. هذه الرسالة بعث بها الملك بروتوس إلى عمه ايوباتيس مع بيليروفون وفيها إشارات تفيد الأيعاز إلى ايوباتيس بقتل حامل الرسالة لأنه، كما ادعت زوجة الملك، راودها عن نفسها، بينما العكس هو الصحيح. هذا المقطع من الألياذة هو الوحيد الذي يأتي على ذكر رموز لها تفسيرات لا يفقهها سوى المتعاملين فيها. ومهما كان جانب الخيال الشعري والقصصي في الملحمة كبيراً، فأن هذا دليل على أن استعمال الرموز لم يكن مجهولاً في زمن حوادث الألياذة. يثبت ذلك ما نقرؤه من حوادث وثورات جرت، بناءً على رسائل سرية، بين اليونان والفرس، رسائل كانت ترسل سواء في بطون الطرائد أو تكتب على جلد رأس حلق شعرها وأرسل صاحبها لإيصال الرسالة بعد أن نبت شعره وأصبحت كثافته كافية.

من جهة أخرى، يدين العالم بأسره إلى اليونان في علم تأمين المواصلات. ففي كتاب «الدفاع عن المراكز المحصنة» لأيناس، يعيد المؤلف إلى الذاكرة بعضاً من قصص هيرودوت ويعدد بعض وسائلها. من هذه الوسائل استبدال الأحرف بالنقاط، أو التدليل عليها بالثقوب. وقد عاشت إحدى هذه الوسائل إلى القرن الحالي. وهي تقضي بوضع ثقب بواسطة دبوس على الأحرف التي تؤلف بتسلسلها الرسالة المطلوبة، وذلك ضمن كتاب يختار لهذه الغاية ويكون بعيداً بموضوعه كل البعد عن الشبهة. استخدم الجواسيس الألمان هذه الوسيلة في الحرب العالمية الأولى. كما استخدموها في الحرب العالمية الثانية على صفحات الجرائد بعد أن استبدلوا الثقوب بالحبر السري.

وفي الجدول الآتي الذي استنبطه كاتب يوناني آخر يدعى بوليب. يكون لكل حرف بديل مؤلف من رقمين، الأول أفقي والثاني عمودي. والرقمان موضوعان

جنباً إلى جنب يعطيان البديل الرقمي للحرف.

	١	٢	٣	٤	٥
١	أ	ب	ت	ث	ج
٢	ح	خ	د	ذ	ر
٣	ز	س	ش	ص	ض
٤	ط	ظ	ع	غ	ف
٥	ق	ك	ل	م	ن
٦	هـ	و	ي		

فالحرف ج مثلاً يتمثل بالرقم ٥ أفقياً وبالرقم ١ عمودياً، فبديله الرقمي إذاً هو ١٥، والحرف ذ ٢٤ والحرف ك ٥٢ الخ..

أول من استخدم جدول بوليب في الأمور العسكريةهو يوليوس قيصر في حرب الغول، وذلك ضمن رسالة بعث بها إلى شيشرون. وكان لهذه الرسالة فضل كبير في انتصار الرومان في تلك الحرب، إذ جعلت شيشرون يصمد بعد أن قرأ أن النجدة آتية خلال أيام من القيصر.

لقد خلد قيصراً اسمه في تاريخ فك الرموز بعد أن أدخل تعديلات على جدول بوليب. لقد كان أول من اعتمد الأبجدية البديلة القائمة على استبدال كل حرف منها بالحرف الذي يليه بالدرجة الثالثة. أي أن الألف تستبدل بالثاء والباء بالجيم وهكذا. واليوم أصبحت هذه الطريقة تعرف بـ «أبجدية يوليوس قيصر».

إن ازدهار علم الرموز وانتشاره يرتبطان بالمستوى الثقافي والعلمي للمجتمع. ذلك أن الإتصال البشري بواسطة الكتابة، سواء كانت هذه الكتابة أصيلة أو بديلة، يفترض وجود أناس يتقنون الكتابة والقراءة معاً. وكلما توسعت حلقة هؤلاء، توسعت معها الإتصالات الخطية. واليوم، أدخلت الإختراعات الألكترونية الحديثة طرائق جديدة ومتطورة إلى علم الرموز وكيفية فكها، فأعطت هذا العلم مجالات واسعة للتحرك والانتشار.

إن اليزيديين، وعددهم يقارب /٢٥٠٠٠/ يقطنون شمال العراق، يستخدمون الكتابة السرية في كتبهم الدينية خوفاً من الإضطهاد. كذلك سكان التيبت. ولا يزال أفراد قبيل النيزيبيدي في نيجيريا يمنعون على الأوروبيين رموز لغتهم السرية. وفي تايلاند، أشكال متعددة من الكتابات الرمزية أيضاً. وحوالي

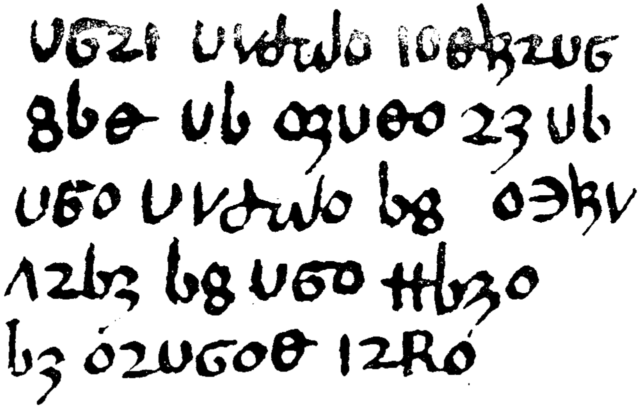
الألف بعد الميلاد، كان الفرس يستخدمون الكتابة السرية لأهداف ديبلوماسية. هذه الكتابة كانت تدعى «شاه دابيريا» وجل استعمالها كان بين الملوك. كما أن الفرس عرفوا لغة رمزية أخرى تدعى «راز سهريا» كانت، هي الأخرى، لمراسلات الملوك فقط.

في دير القديس جيريمي في صقارة بمصر، اكتشفت العبارة التالية منقوشة من رجل مجهول على أحد الحيطان وذلك بواسطة أبجدية بديلة وحوالي القرن الرابع ميلادي:

«باسم القادر الجبار، سيد كل شيء، تذكر عبدك فيكتور، «الفقير والبسيط».

وفي دير آخر يعود إلى القرن السابع ويدعى دير أبيفان في منطقة الشيخ عبد الضرنة بمصر العليا، وجدت في حجرة راهب يدعى الياس قطعة خشبية طولها ثلاثون سنتمتراً وعرضها عشرة، كتب عليها بالحبر الأسود نص من سطرين بأبجدية يونانية ـ قبطية بديلة. هذه اللوحة، الموجودة حالياً في متحف الفن في نيويورك، تعتبر أقدم أبجدية بديلة في العالم، باعتبار أن لوحات سوز المسمارية تدخل في نطاق السرية المبنية على الرموز لا على الأبجدية.

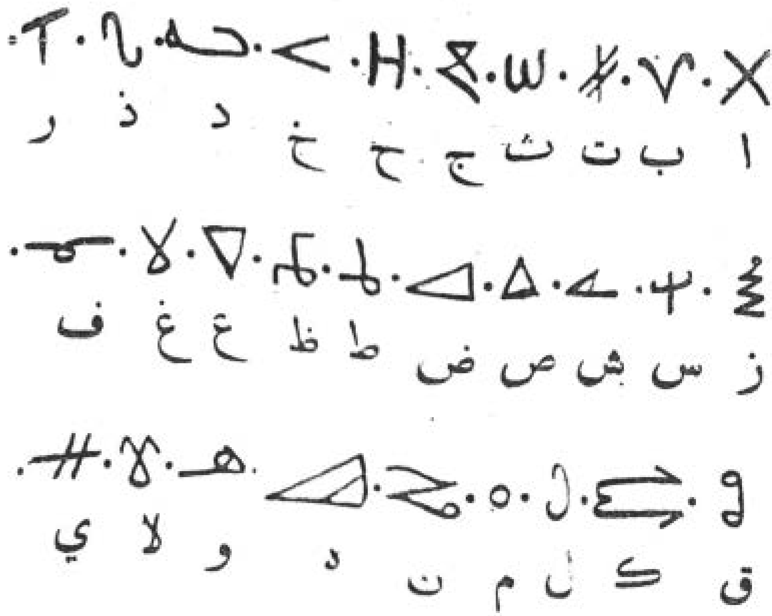
في أوروبا، حيث الأبجدية اللاتينية هي التي كانت سائدة، لم يكن للغة الرموز شأن يذكر. فبعد سقوط الأمبراطورية الرومانية، غرقت تلك القارة في ظلمات القرون الوسطى. كانت الأمية شبه شاملة وهذا ما لم يترك مجالاً لأي علم أو فن، بما في ذلك علم الرموز، للبروز والأنتشار. ولا يغير هذا الواقع وجود راهب هنا يقتل ضجره برمز بديل لكلمة أو لتوقيع، أو آخر هناك يستبدل ابجديته اللاتينية بأخرى يونانية أو أرمنية. على أن هذا الواقع لم يمنع من تسجيل بعض الأسماء في هذا المضمار. فالقديس بونيفاس أدخل إلى أوروبا طريقة استبدال الأحرف الصوتية بالنقاط. والراهب جربرت تبنى طريقة استبدال المقاطع بالأحرف. وأخيراً، الراهبة هيد لفارد التي ابتدعت ابجدية بديلة كانت تدعي أنها من وحي ألهي. غير أن الأسم، الذي لم يكتف باستعمال الكتابة السرية، بل تعداها إلى الإبداع والتصوير خلال القرن الثالث عشر الميلادي، كان الراهب الإنكليزي باكون، الذي ألف كتاباً بالمعنى أعطاه العنوان التالي: «الأعمال السرية للطبيعة والفن وانتفاء السحر». ويجب أن لا نغفل، في هذا السياق، ذكر الإنكليزي جوفري جوسر، الذي كتب ... مقاطع رمزية تعتبر من أشهر ما كتب حتى اليوم.



إحدى مجموعات مقاطع جوفري

اقترنت الرموز على مدى آلاف السنين بالسحر. ولا يزال لهذا التاريخ الطويل من التلازم أثره في أذهان الناس من العامة. في القديم، وعلى مدى دهور وعصور، كان الرمز يعني حدثاً أو غيبية. وارتباطه بالسحر يحيطه بالسرية وبالمجهول. هذا الواقع كثيراً ما كان يستخدم لمصلحة الملوك والنافذين ورجال الدين. ولم ينتف هذا الأثر من أذهان الناس، الذين لا يزالون، بعدد كبير منهم، ينظرون إلى الرمز نظرة تهيب، وأحياناً نظرة تخوف. وما تطيّر البعض من هرة سوداء أو شكل حيوان مقيت في فنجان قهوة مشروب أو هيئة وحش في غيوم السماء سوى بقايا من رسوبات خلفها تلازم الرمز مع السحر. حتى أن الأميركيين أطلقوا ، عام ١٩٤٠، على عملية فك الرموز الديبلوماسية اليابانية آنذاك. تسمية «سحري».

في أي من الحالات والأمثال الواردة حتى الآن، لا يمكن القول أنه كان هناك علم للرموز بالمعنى الصحيح للكلمة. العرب هم أول من أوجد علماً بهذا المعنى، رذلك بإيجادهم طرقاً ومناهج له، وبتدوينها خطياً. هذه الأمة التي خرجت في القرن السابع من الجزيرة العربية وانتشرت بسرعة البرق على مساحة واسعة من العالم، قامت بسرعة مذهلة واحدة من أعرق حضارات التاريخ. هذه الحضارة التي فتحت فيها العلوم وخصب فيها الخيال، وغزرت فيها الرموز والتأويل والروحانيات علم اللغة، بزت كل من سبقها في الكتابات السرية. ففي العام ٢٤١ للهجرة ٨٥٥ ميلادية)، أشار العالم أبو بكر بن وحشية الى عدة أبجديات سرية تقليدية



الأبجدية الداوودية

تستعمل في خدمة السحر وذلك في كتابه "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام"

و الابجدية "الداوودية" كما سميت آنذاك، ليست سوى ابجدية عربية محرفة.

هذه الابجدية كانت تعتبر الابجدية السحرية الأفضل، و كانت تسمى أحيانا "الروحانية".

و لم تمارس الدول الإسلامية، إلا نادرا، فك الرموز، و ذلك في بعض الأمور السياسية. و لعل ذلك نتج عن تغيير الحكام و عدم استقرار الإدارة في تلك الدول، و بالتالي عدم إمكانية اعتماد سفراء لدى الدول الأجنبية لفترات متمادية.

يبرز ما صنعه العرب في علم الرموز في كتاب "صبح الاعشى" لمؤلفه احمد بن علي القلقشندي. و هو عبارة عن موسوعة من أربعة عشر جزءاً كتبت لإعطاء عمال الدولة المعلومات الكافية عن أهم فروع المعرفة. أنجز هذا المؤلف الكتاب عام 1412 و كان موفقا في ما سعى اليه. في الجزء المعنون "إخفاء المعلومات السرية في الرسائل" قسمان: الأول يختص بالرموز و الاصطلاحات، و الثاني بالحبر السري و فك الرموز.

ويعود القلقشندي في معظم بنود بحثه إلى كتابات علي بن الدريهم الذي عاش بين عامي ١٣١٢ و ١٣٦١ وشغل مناصب عدة في الإدارة والتدريس لدى المماليك في كل من سوريا ومصر. غير أن كتاباته لم تصل إلينا، باستثناء بحث واحد عن الدين.

يبدأ القلقشندي بشرح السر قائلاً إنه ضروري «لأن العدو يسعى لزرع أي عائق بين المرسل والمرسل إليه، أي، على سبيل المثال، بين سلطتين أو شخصين. ويلجأ إلى السرية عندما تكون الطرق غير آمنة بسبب مراقبة البريد عليها». إن هذه الملاحظة الأخيرة تركز بشكل معبر على ضرورة الترميز وعلى فك الرموز في آن معاً. ويسرد الكاتب بعد ذلك طرقاً عدة للأستبدال. إحدى هذه الطرق تعطي بدائل عدة للحرف الواحد في الأبجدية الأصلية. غير أن هذه التجديدات، على أهميتها، بهت بريقها باستنباط آخر أهم بكثير، أعني به بحث القلقشندي المستفيض في تحليل الرموز، وهو البحث الأول من نوعه في التاريخ.

تطرح دراسة القلقشندي مبدءاً أساسياً هو أن محلل الرموز يجب أن يكون ضليعاً في اللغة التي كتبت بها الرسالة. ولما كانت العربية هي «الأنبل والأروع بين اللغات» وكذلك «الأكثر استعمالاً» في تلك البقعة من العالم، نجد في المؤلف تحليلاً مفصلاً لخصائصها مع إبراز مميز لهذه الخصائص في القرآن الكريم.

ولا نعلم إلى أي مدى استطاع العرب أن يستفيدوا مما ابتدعوا في علم الرموز، وما إذا كانوا استثمروا هذا العلم لمصالحهم السياسية والدبلوماسية. لكن المرجح أنهم لم يفعلوا ذلك كما يجب.

عام ١٦٠٠ أرسل السلطان أحمد المنصور، سلطان المغرب، بعثة بقيادة أمين سره الخاص عبد الوحيد بن مسعود أنون إلى ملكة إنكلترة اليزابيت ليعرض عليها حلفاً ضد إسبانيا. دبج العرض في رسالة سرية على طريقة الاستبدال . غير أن الرسالة وقعت، كما يبدو، بين يدي أعرابي لم يعرف قيمتها وقيمة الإرث العظيم الذي تركته أمته للعالم في هذا المضمار. كتب هذا الأعرابي يقول في مذكراته:

«الحمد لله! رسالة من أمين سر عبد الوحيد بن مسعود أنون. وجدت رسالة مكتوبة بيده بأحرف سرية، فيها معلومات تخص خليفتنا أبو العباس المنصور أيده الله. هذه الرسالة موجهة إلى سلطانة النصارى الموجودة في دولة لندن عام ١٠٠٩.

منذ أن وقعت هذه الرسالة بين يدي وأنا أدرس رموزها.. وبعد خمس عشرة سنة، أعانني الله على فك هذه الرموز، على الرغم من أن أحداً لم يساعدني في ذلك...».

خمس عشرة سنة! من أجل فك رموز مستند لم يكن يتطلب من القلقشندي سوى ساعات.

الفصل الثاني

يقظة الغرب

بدأ علم الرموز يغزو الغرب مع انحسار الإقطاعية فيه وزوال ظلمات العصر الوسيط عنه. كانت الغزوة في البداية خجولة وبدائية، حتى في نطاق الكنيسة، السلطة العالمية الأقوى آنذاك.

منذ عام ١٢٢٦ بدأ الترميز السياسي يظهر في البندقية حيث وجدت في المحفوظات صلبان ونقاط تحل محل الكلمات. وأهم عمل في هذا المجال كان الفهرسة.

بدأ الترميز مع لافند بوضعه فهرساً مكوناً من كلمات ومقاطع تقابلها رموزها. كان العدد في البداية لا يتعدى إثني عشر إسمًا إلى جانب الطريقة الإستبدالية المعروفة، وأضحى في القرن الثامن عشر مع روسيا القيصرية يتجاوز الثلاثة آلاف.

ولعل الإيطالي ليون باتيستا ألبرتي هو أول الباحثين الذين طوروا طريقة الترميز وأبدعوا التعددية في الإستبدال. ودراسته في هذا الصدد، المكونة من خمس وعشرين صفحة مخطوطة باللاتينية، تعتبر أقدم عمل ترميزي في العالم الغربي.

غير أن الترميز في الغرب لم يتطور وينتشر إلا مع تطور الديبلوماسية. ذلك أن التوسع في إرسال السفراء إلى الدول الأخرى أدى إلى الحاجة للسرية في نقل التقارير والمعلومات لما لهذا من تأثير على المنافسة بين الدول والحفاظ على مصالحها. ولعل التسمية التي كانت تطلق على السفراء وهي «الجواسيس الشرفاء» خير دليل على أهمية السرية في نطاق العمل الديبلوماسي.

في هذا الجو، أصبح إعتراض الرسائل ومصادرتها وبالتالي فك رموزها من الأمور المألوفة. وقد أدى ذلك بكل دولة إلى تجنيد الكثير من الإختصاصيين للعمل الترميزي. حتى وصل الأمر بها، في نهاية القرن الماضي، إلى جعل هذا العلم إختصاصاً يتفرغ إليه من يدرسه.

والبندقية كانت السباقة بين المدن الإيطالية في التألق بهذا الصدد بوجود سورو فيها. لقد استطاع هذا العالم الترميزي أن يبز جميع معاصريه بفضل ذكائه الخارق وعلمه الوفير. وقد دفع ذلك سائر الحكومات إلى مضاعفة جهودها للتصدي لحرب الرموز والإستخبارات. هذا وكان الملوك والبابوات يلجأون إلى سورو كلما عصى عليهم فك رموز في رسالة مصادرة.

بعد البندقية تأتي فلورنسا وفيها بيرو موسيفيلي الشهير ونيكولاس مكيافيل صاحب كتاب «فن الحرب» الشاهد على أهمية علم الرموز. ولا ننسى في هذا السياق جيكو سيمونتا، الذي كتب في ميلانو، إبان عصر النهضة، أول دراسة مخصصة كلياً لعلم الرموز.

وفي فرنسا، نذكر فيليبير باهو الذي كان يعمل في خدمة فرانسوا الأول، والذي كتب أحد معاصريه عنه يقول: «لقد كان عمله شاقاً ويتطلب الكثير من الوقت في البداية. ولكنه سرعان ما كان يتقدم مسرعاً في العمل بمجرد اكتشاف السر، شأنه في ذلك شأن من تكر حجارة الحائط أمامه بمجرد انتزاع حجر أساسي منها.

ولم يهمل الإنكليز هذا العلم. لقد كانوا يفضون الرسائل الدبلوماسية الموجهة من وإلى سفير البندقية، وكذلك، على الأغلب، رسائل سائر الممثلين الديبلوماسيين المعتمدين في بلاط هنري الثامن.

لكن الأشهر في هذا المضمار هم من كانوا في خدمة البابوات، وأولهم على الإطلاق ماتيو أرجنتي الذي لاحظ، من خلال خبرته الطويلة، أن علم المراسلات السرية كان ضعيفاً في بولونيا والسويد وسويسرا، وأن الألمان كانوا من الجهل بأنهم كانوا يفضلون حرق الرسائل السرية التي كانت تقع في أيديهم على بذل العناء في فك رموزها. غير أن كلاً من فرنسا وإنكلترا والبندقية وفلورنسا كانت مثار اهتمامه لطول باعها في هذا المضمار.

عام ١٥١٨، ظهر في الغرب أول كتاب من نوعه في علم الرموز والإستخبارات للراهب جان تريتان. عنوان الكتاب «الخطوط المتعددة، في ست مجلدات، لمؤلفه جان تريتان، راهب ورز بورغ، سبانهام سابقاً، مهدى للامبراطور مكسيميليان».

والأسبان بلغوا شأواً بعيداً في اتقانهم للسرية والرموز لا سيما في الأمور العسكرية. حتى أن الرسائل المرمزة كانت تحمل مع الجند في الحرب كما يحمل السلاح. لكن ذلك لم يزدهر بشكل بارز الا في أيام فيليب الثاني، الذي كان يهتم بأدق التفاصيل في مؤسسات حكمه. وقد كان الفهرس الرمزي، الذي وضع في عهده عام ١٥٥٦، أفضل ما استنبط لتاريخه ونموذجاً لعلم الرموز الأسباني حتى أواسط القرن السابع عشر. كان هذا الفهرس يتألف من قسمين: عام يتداوله السفراء في ما بينهم، وخاص محصور في مراسلات الملوك. وقد جاء وقت أصبحت فيه الإدارة التي تتولى الترميز وفك رموز الآخرين الجهاز الأقوى في الدولة، يتهيبه الجميع ويرهب جانبه كبار رجالات الدولة. حتى أن فيليب الثاني نفسه لم يكن، في بعض المواقف، لينجو من هذا التسلط.

عام ١٥٨٩، اعتلى هنري دي نافار عرش فرنسا وأصبح يعرف باسم هنري الرابع. كان بروتستنتياً وهذا ما جلب له عداء «العصبة المقدسة» الكاثوليكية التي كان يرأسها دوق دولامايين.

كانت العلاقة وثيقة بين هذا الدوق وبين ملك اسبانيا فيليب الثاني، مما أثار الريبة في نفس هنري الرابع. وذات يوم، وقعت في يدي هنري الرابع رسالتان سريتان موجهتان من فيليب الثاني إلى دوق دي لامايين. وبغية فك رموز هاتين الرسالتين والوقوف على محتواهما، استدعى هنري الرابع فيات، أشهر علماء الجبر في فرنسا آنذاك وأحد ألمع العاملين في فك الرموز في عصره. انكب فيات على العمل مدة تقارب السنة، انتهى بنتيجتها الى كشف الرسالتين بكاملهما وإرسال ترجمتهما إلى الملك. كانت الرسالتان تحويان سر تعاون دوق دي لامايين مع فيليب الثاني بهدف قلب هنري الرابع واعتلاء الدوق عرش فرنسا. وعلى الرغم من أن هنري الرابع كان قد سحق جماعة الدوق في معركة فاصلة بينهما وقعت قبل وصول ترجمة الرسالتين إليه من فيات، الا أن فك رموز الرسالتين أنار أمامه أموراً عديدة كانت مؤثرة وفاعلة في مجريات السياسة الفرنسية في ذلك العصر.

أما في إنكلترا، فقد لمع في عالم الرموز إسم هو توماس فيليب، الذي تبناه وزير الملكة إليزابيت، فرنسيس والسنغهام. كان فرنسيس هذا يسعى لقتل الملكة لأحلال ماري ستيوارت، ملكة الأيكوس، مكانها. بعد مراسلات عديدة سرية بين رجاله وبين ماري، إستطاع إقناع هذه الأخيرة بالخطة. وكذلك إقناع فيليب الثاني، ملك إسبانيا بدعم ماري ستيوارت فور اعتلائها عرش إنكلترا. والمعروف إن الكثلكة تجمع بين فيليب الثاني وماري. غير أن الخطة كشفت بعد فترة طويلة من تحضيرها وقبل وقت قصير من ساعة التنفيذ، إكتشفت بواسطة عميل مزدوج يدعى جيلبير جيفورد. وعندما وصل الخبر إلى الملكة إليزابيت، أمرت بالقبض على ماري ستيوارت وكل من إشترك في المؤامرة. وبعد يومين من المحاكمة، صدر عن المحكمة حكم بإعدام ماري. ويذكر المؤرخون بإعجاب الشجاعة التي تلقت بها ماري الحكم بموتها وهدوء الأعصاب الذي أبدته أمام المقصلة في تلك الصبيحة صبيحة الثامن من شباط ـ فبراير من عام ١٥٨٧، وقولها المشهور وهي تصعد منصة المقصلة: «نهايتي هي بدايتي».

وفي سياق ذكر أهم الأسماء في عالم الشيفرة في الغرب أبان عصر النهضة، لا بد من إيراد الأسماء التالية:

- الإيطالي جيوفان باتيستا بلساو صاحب كتاب «شيفرة السينيور بلساو».
- الإيطالي أيضاً جيوفاني باتيستا بورتا، صاحب الطريقة الحديثة للأبجدية المتعددة البدائل.
- الفرنسي جيروم كاردان، الباحث في أمور الترميز وصاحب نظرية تعليم العميان القراءة بواسطة اللمس. ولجيروم هذا لوحة ترميزية ظلت لفترة طويلة تستعمل، إلى أن تجاوزتها طرق أكثر حداثة.
- الفرنسي فيجينير الذي ابتدع اسلوباً في الشيفرة الخاصة بالأبجدية البديلة. ألف نحواً من عشرين كتاباً أهمها «دراسة حول الأرقام أو وسائل الكتابة السرية». وهو كتاب من ٦٠٠ صفحة تضمن، إلى جانب خلاصة ما توصل إليه العالم في علم الرموز آنذاك، مواضيع عدة لا تمت بصلة إلى العنوان وتعالج الكيمياء والفلك والحساب وسوى ذلك من الأمور.

وهكذا رأينا أن عالم الرموز والإستخبارات لم ينقطع لا في الشرق ولا في الغرب. إنه عالم الإنسان الذي يخشى الإنسان ويحاول، ان هو لم ينقض عليه، أن

يحيط نفسه بالدفاعات اللازمة لسلامته، وذلك في أبسط الإحتمالات.

فجر التاسع عشر من نيسان - إبريل من عام ١٦٢٨، طوق الجيش الملكي الفرنسي بقيادة هنري الثاني مدينة ريالمون، جنوبي فرنسا، بغية إخضاع أهلها، وهم من الهوغنو البروتستانت، لحكمه الكاثوليكي. ولم يكتف بالحصار، بل عمل قصفاً لحصونها ومراكز دفاعاتها دون هوادة، والمدينة تقاوم بشراسة أدهشت المهاجمين وجعلتهم يتهيبون قوتها ويطلقون التكهنات في ما بينهم حول حجم هذه القوة.

وبينما الحرب مستعرة على هذا النحو، القى جيش هنري الثاني القبض، خارج حصون المدينة، على أحد الهوغنو ومعه رسالة سرية مرمزة يود تسليمها لرجال الهوغنو المدافعين عن المدينة خارج الأسوار. بعد عناء طويل، استطاع احد إتباع الملك هنري فك رموز الرسالة، فإذا هي تشرح الوضع السيّىء للهوغنو داخل المدينة بسبب النقص الفادح لديهم في الذخيرة والمؤن. وتخلص الرسالة إلى أن المدينة ستستسلم لا محالة إن هي لم تتلق فوراً الإمدادات اللازمة.

كان لتلك الرسالة أكبر الأثر في تقرير مصير المعركة. فقد ضاعف الجيش المهاجم، على أثرها، ضغطه على المدينة، بعد أن ارتفعت معنوياته بمعرفته وضعية العدو. وفي يوم الثلاثين من الشهر نفسه، استسلمت المدينة فدخلها الجيش المنتصر.

هذه المعركة غيرت وجه فرنسا الديني بتثبيتها حكم الكاثوليك بعد صراع دام وطويل بينهم وبين البروتستانت ولا شك في أن فك رموز الرسالة كان له الأثر الكبير في ذلك، وأن الفضل كل الفضل يعود إلى من قام بهذا العمل، وهو أنطوان روسينيول الذي أصبح في ما بعد أكبر محلل رموز في عصره بفرنسا.

ويذكر تاريخ الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت أن أنطوان روسينيول ساهم مساهمة فعالة في سقوط مدينة لاروشيل، معقل البروتستانت، في أيدي الكاثوليك. فقد استقدمه الداهية ريشليو، بعدما سمع عن نبوغه في فك رموز رسالة مدينة ريالمون. وخلال حصار مدينة لاروشيل من قبل الملك وجيشه الكاثوليكي، وقعت في أيدي هذا الجيش رسائل مرمزة مرسلة من حامية المدينة إلى قيادة الأسطول الإنكليزي تطلب فيها الحامية من هؤلاء مساندة الأسطول لهم بشكل عاجل. استعين بروسينيول الذي استطاع فك رموز الرسائل.

عندها، ما كان من الأسطول الملكي الفرنسي إلا أن وقف على شاطىء المدينة متربصاً بالأسطول الإنكليزي، الذي تهيب الموقف ولم يستطع التقدم خطوة واحدة نحو المدينة. بعد هذا لم تلبث المدينة أن سقطت في أيدي الجيش المهاجم: وسقط معها آخر معقل بروتستنتي فرنسي في تلك الحروب الطويلة، كما بزغ فجر تاريخ عريق لعلم الرموز وفنون الإستخبارات في فرنسا.

كافأ الملك روسينيول على نبوغه وإخلاصه، فقربه إليه وجعله في خدمته. وقد ظل هذا العالم في البلاط من عهد لويس الثالث عشر إلى عهد لويس الرابع عشر، ويذكر أن لويس الثالث عشر أوصى ولي عهده، وهو على فراش موته، بالحفاظ على روسينيول من بعده. حتى أن الكاردينال مـازاران، خليفة ريشليو، أعطاه وظيفة مدير الحسابات. وهذا ما جعله، إلى جانب عمله الأساسي كمحلل للرموز، رجلاً مهمًا في الدولة، عالماً بمعظم خفاياها وواقفاً على أهم أسرارها. ظل روسينيول يعمل دون كلل إلى أن توفي في شهر كانون الأول - ديسمبر عام ١٦٨٢، قبل أيام من عيده الرابع والثمانين في الأول من شهر كانون الثاني - يناير التالي.

بعد موته، خلفه في عمله، كمرمز ومحلل للرموز، إبنه بونافنتور، الذي لمع في مهنته بشكل متقارب من أبيه. إن نجاح روسينيول ومن بعده إبنه، أظهر أهمية الإستخبارات في حياة الدولة السياسية والعسكرية والديبلوماسية. وهذا ما جعل ملوك فرنسا يغدقون العطاء لكل من أظهر كفاءة أو أبرز براعة في هذا المضمار. وقد أدى هذا الإهتمام إلى إنشاء «الغرفة السوداء» الفرنسية التي أوكلت إليها طوال القرن الثامن عشر مهمة قراءة وتحليل رسائل الديبلوماسيين الأجانب.

كانت الغرف السوداء متشابهة آنذاك، لكن غرفة فيينا كانت الأفضـل في أوروبا. كانت تعمل بفعالية خيالية. تتلقى كل صباح، الساعة السابعة، جميع الرسائل الموجهة إلى السفارات. تفتح هذه الرسائل وتحال إلى مدير معاون ليقرأها ويأمر بنسخها أو نسخ المقاطع الهامة فيها. بعد ذلك، تعاد إلى مغلفاتها وكأن شيئاً لم يكن. وعند السـاعة التاسعة والنصـف، كانت تلك الرسائل تأخذ طريقها عائدة إلى مركز البريد. بعدها ينكب جيش من المترجمين ومحللي الرموز عـلى النسخ، ولا يتركونها إلا وقد دبجت بالألمانية وأرسلت إلى المراجع المختصة.

كانت الغرفة السوداء موضع اهتمام الملوك شخصياً. فشارل الرابع كان يمنح

عناصرها مكافآت سخية. كذلك الأمبراطورة ماري تيريز التي كانت تجمع في ديوانها العاملين في الغرفة، تدرس وإياهم أفضل السبل لتطوير فنهم، مغدقة عليهم العطاءات والمنح دون حساب حتى ان التشجيع وصل لدرجة حثهم على التوصل، بشكل او بآخر، الى مكاتب السفراء المعتمدين في العاصمة ليسرقوا منها ما استطاعوا من رسائل ومستندات.

كان لإنكلتره أيضاً غرفتها السوداء بإدارة مديرها الشهير جون واليس، المعروف بإنه أشهر عالم في الرياضيات قبل نيوتن.

بدأ واليس عمله كمحلل للرموز وكبارع في الإستخبارات بطريق الصدفة. فقد تلقت يوماً الليدي فير، التي كان يعمل واليس في خدمتها، رسالة مرمزة، وجدها خادمها على باب بيتها. استغربت الأمر وعرضته على واليس، فما كان منه إلا أن انكب على درس رموزها وتحليلها. وما هي إلا ساعات حتى توصل إلى إعادة كتابة الرسالة باللغة الإنكليزية وعرضها على الليدي. ونتيجة لهذه التجربة، تشجع واليس في التوغل بهذا الحقل. وفي عام ١٦٤٣، كلفه البرلمان الإنكليزي بحل رموز رسائل كان قد بعث بها شارل الأول خلال الحرب الأهلية. وفي عام ١٦٦٠، كشف واليس أسرار مفاوضات شارل الثاني مع الوزراء الإنكليز لإعادته إلى عرش إنكلترة. وقد كافأه شارل الثاني بعدئذ بأن عينه مديراً لخزانته. وعام ١٦٨٩، استطاع واليس كشف رموز رسالة بعث بها ملك فرنسا ألى سفيره في بولونيا، وفيها يعرض على ملك هذا البلد التحالف في حرب ضد بروسيا. وفي تاريخ الإستخبارات الإنكليزية إسم شهير آخر هو الأب ويلز، الذي استطاع إجهاض عدة حركات تمرد داخل إنكلترة بفضل كشفه لرموز رسائل كان المتآمرون يتبادلونها في ما بينهم لتحضير المؤامرات. وبعد موته عام ١٧٤٢، خلفه تباعاً ولداه إدوارد وفرنسيس، ومن بعدهما أحفاده إدوارد ووليم وفرنسيس.

سنة ١٧١٤، اعتلى جورج الأول عرش إنكلتره. وقد اهتم هذا الملك اهتماماً بارزاً بالإستخبارات ورجالها في المملكة. كما أقام تعاوناً وثيقاً بين الغرفتين السوداوين الإنكليزية والألمانية.

بلغ إنتاج الغرفة الإنكليزية خلال القرن الثامن عشر معدلاً يتراوح بين رسالتين أو ثلاث في الأسبوع الواحد. أما مصادر الرسائل فكانت فرنسا والنمسا والدويلات الألمانية وبولونيا وإسبانيا والبرتغال وهولنده والدانمرك والسويد وسردينيا

ودويلات إيطاليا واليونان وتركيا وروسيا وأخيراً الولايات المتحدة. بلغت محفوظات المراسلات الفرنسية المصادرة محتوياتها خمس مجلدات مجموع صفحاتها ٢٠٢٠ صفحة، ! بالاضافة الى مجلدات ثلاثة تبحث في طرق فك الرموز، وذلك كله خلال قرنين من الزمن. ولم تتخلف الولايات المتحدة عن هذا الركب، على الرغم من حداثة سنها ومن عدم أهمية مراسلاتها. ففي رسالة أرسلها لافاييت من فيلادلفيا عام ١٧٨٠ إلى وزير خارجية فرنسا، تبين، بعد تحليل رموزها، أن كاتبها يقترح غزو الجيوش الفرنسية لولاية نيويورك وأن واشنطن تزمع غزو كندا، إلى جانب معلومات عن قوة النقد المحلي وتيارات الرأي العام. هذه الرسالة رمي بها في البحر من على السفينة التي كانت تنقلها، بعدما استولى عليها الإنكليز في عرض البحر. لكن أحد البحارة الإنكليز نزل إلى الماء واستعاد الصندوق الذي كان يحويها.

هذا التاريخ الحافل للغرف السوداء في أوروبا لم يلبث أن اضمحل تحت وطأة ضربات الحركات الثورية، التي كانت بمعظمها تتمحور حول حرية الإنسان وعدم جواز التدخل في شوؤن الآخرين وكشف أسرارهم. وهكذا، ومنذ عام ١٨٤٠، إبان الهبة الثورية ضد التسلط والإنفراد، بزغ فجر جديد لمفاهيم جديدة. لم يعد يسمح بفتح الرسائل من قبل الحكومة، فتلاشى مفعول الغرف السوداء.

وفي شهر تشرين الأول - اوكتوبر من عام ١٨٤٤، اضطرت الحكومة الإنكليزية إلى التوقف عن فتح كل أنواع الرسائل، الخاصة منها والدولية. كما أنه أعلن عن حل إدارة الإستخبارات وفك الرموز في العام نفسه. وسنة ١٨٤٨ حلت الغرفة السوداء النمساوية الذائعة الصيت. أما في فرنسا، فقد اختفت هذه الغرفة بعد أن كانت قواها قد أنهكت تحت وطأة الضربات المتالية من قبل الثوار الفرنسيين المشبعين بروح الحرية الفردية واحترام حقوق الإنسان. وهكذا انتهت حقبة الغرف السوداء في أوروبا بعد أن أدت قسطها في خدمة أغراض دولها وحكام تلك الدول.

الفصل الثالث

الترميز الأوروبي (١٨٤٨ - ١٩١٤)

كان التلغراف أعظم اختراع تم خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد أحدث ضجة شبيهة بإطلاق أول قمر صناعي في عصرنا.

أثار التلغراف في البداية بعض الحذر من جانب التجار ورجال الأعمال بصورة خاصة، وذلك خوفاً منهم على أسرارهم المهنية ومصالحهم التجارية. لكن هذا الحذر لم يلبث أن تبدد بعد أن تأكد لهم أن العاملين في دوائر التلغراف لا يعيرون أي اهتمام لمحتويات النصوص والرسائل التي يرسلونها بالشيفرة. والذي شجع الناس عامة والتجار ورجال الأعمال بصورة خاصة على استخدام التلغراف، بالإضافة الى عنصري السرعة والتوفير، هو أن الرسائل البرقية يمكن أن تكون رسائل مرمزة. وفي هذا تطويق آخر لمحاذير كشف الأسرار.

وقد وجد العسكريون في التلغراف اكتشافاً رائعاً لتسهيل مهامهم، بعدما كبرت الجيوش وانفلشت في أماكن مترامية من العالم. ومما ساعد على هذا الانفلاش وشجعه انتشار سكك الحديد وتطورها.

وقد خلق هذا الإكتشاف وضعاً جديداً انبثقت عنه نظريات جديدة. وهكذا بدأ عالم ما يعرف بالشيفرة العسكرية التي اوجدها جان غليوم هوبرت فكتور - فرانسوا الكسندر. اوجيست - كركوف فون - نيو فان هوف، المولود في هولندة في ١٩ كانون الثاني - يناير من عام ١٨٣٥. عندما بلغ اوجيست كركوف، كما اختصر اسمه في ما بعد، السابعة والاربعين من عمره، كتب الشيفرة العسكرية. بعد ذلك، تبنى فكرة اللغة العالمية، فولا بوك، التي وضعها رجل دين ألماني يدعى جوهان

مارتين شلاير حوالي عام ١٨٨٥. وقد بلغ حماسه لتلك اللغة أن وضع لها كتاباً متكاملاً في القواعد وكذلك قاموساً إلى جانب الفرنسية. لكن تلك اللغة، على الرغم من انتشارها الحماسي فترة من الزمن في فرنسا، حيث بدأ البعض يتخاطب بواسطتها في الشارع، ما لبثت أن تلاشت كالسراب. وضع كركوف شيفرة عسكرية متكاملة استطاعت أن ترد على كل الأسئلة المطروحة آنذاك في هذا المضمار، وأن توجد الحلول المناسبة لكل المسائل المستعصية. ومما زاد في قيمة هذه الشيفرة أنها تتناسب في استعمالها مع الأجهزة التلغرافية. يضاف إلى ذلك، وقد يكون هذا هو الأهم، هو أن كاركوف توخى في تعاليمه التي ابتدعها عن الشيفرة، أن يكون نظامها، ومهما كانت أشكالها، مبنياً على قواعد أساسية هي: استحالة فكها مادياً، احتمال وقوعها في أيدي الأعداء، إمكانية حفظها دون كتابتها، ملاءمتها للمراسلات التلغرافية، سهولة نقلها دون إرباك، وأخيراً سهولة ممارستها.

إن أية شيفرة لا توفر العناصر الستة أعلاه، لا بد وأن تحوي ثغرة قد ينفذ منها محلل رموز بارع في المعسكر المعادي.

استفاد الفرنسيون كثيراً من النظام الذي وضعه كركوف وأصبح لديهم نظام للشيفرة من أدق وأرقى أنظمة العالم آنذاك. ولعل ما جعلهم يهتمون بهذا القدر بتنمية استخباراتهم العسكرية الهزيمة التي منيوا بها في حرب ١٨٧٠ ضد ألمانيا. لذا، لم تأت الحرب العالمية الأولى إلا وكانوا قد أصبحوا على قدر كبير من الكفاءة في حقل استخباراتهم العسكرية.

أما الألمان، فلم يعيروا هذا الحقل الأهتمام ذاته الذي أعاره الفرنسيون. ولعل ثقتهم بتفوقهم العسكري هي التي جعلتهم لا يلتفتون الألتفات الكافي إلى شأن آخر يدعم هذا التفوق لاعتقادهم بعدم الحاجة لمثل هذا التدبير.

ولا ننسى، ونحن في سياق الحديث عن الشيفرة، إسماً لامعاً ظهر في انكلترا هو شارل وتستون، الذي اخترع التلغراف الكهربائي قبل مورس، كما درس التلغراف تحت ـ المائي وأنجز خرائط عدة في هذا الحقل ساعدت من أتى بعده على تطوير الأفكار وبلورتها عام ١٨٦٠، وكان في الستين من عمره، توصل إلى فك رموز رسالة من سبع صفحات من الحجم الكبير، كان شارل الأول قد بعث بها إلى السير غوفل. ويقال ان عملية الفك هذه كانت من الأمور المستعصية التي عجز

أمامها علماء كثيرون في علم الشيفرة. ومن اختراعاته في هذا الحقل، أطار للترميز عرض لأول مرة في معرض باريس الدولي عام ١٨٦٧. وهو يعتمد الأبجدية البديلة. ومن رواد علم الرموز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، نذكر فاليريو ودي لاستيل وبازيريس وقياريس. هذا الأخير كان أول من صمم آلة للترميز تعتمد الطباعة في عملها. كما كان أول من وضع معادلات الترميز والأستبدال المتعدد الأبجديات. وعام ١٨٨٠، سجل قياريس أكبر انجاز علمي له، ألا وهو ادخال الرياضيات في علم الرموز. وقد ألف في ذلك كتاب «علم الشيفرة وفك رموزها في الرسائل السرية» عام ١٨٩٣. وفي السنة نفسها، قام بتنظيم مكتب الشيفرة في الخارجية الفرنسية. وقد مات عام ١٩٠١ بعد أن وضع عام ١٨٩٨ قاموسه الترميزي الشهير «أ. ب. ث». أما بازيريس، فقد توصل إلى فك رموز مراسلات كل من فرنسوا الأول وفرنسوا الثاني وهنري الرابع وميرابو ونابوليون. وعام ١٨٩٢، ساعد محكمة سانت - ايتيان على فك رموز الرسائل التي كان الفوضويون يتبادلونها والتي شكلت عنصراً رئيسياً في محاكمتهم. وأثناء الحرب العالمية الأولى، قدم بازيريس خدمات جلى إلى الجيش الفرنسي عن طريق فك رموز رسائل الجيش الألماني آنذاك وقد مات في ٧ تشرين الثاني - نوفمبر - بعد أن كان قد توقف عن العمل قبل ذلك بسبع سنوات، عام ١٩٢٤.

من بين القضايا البارزة التي أظهرت أهمية علم الرموز في الاستخبارات، ما حصل في قضية النقيب اليهودي في الجيش الفرنسي دريفوس. في تمام الساعة التاسعة في صباح الخامس عشر من شهر تشرين الأول - اوكتوبر من عام ١٨٩٤، اقتيد النقيب دريفوس أمام محكمة عسكرية خاصة بتهمة التعامل مع الألمان وتسريب وثيقه تحوي معلومات عسكرية إلى الجيش الألماني. وقد اعتمد الأتهام، بصورة خاصة، على بعض التشابه بين خط دريفوس والخط الذي كتبت معلومات الوثيقة به. أخذت هذه القضية حجماً كبيراً، إذ اعتبر البعض، من سياسيين مناوئين للحكومة ومفكرين أن في القضية عداء للسامية وان الأتهام افتراء، فدريفوس ليس إلا كبش محرقة في هذه القضية. في الأول من تشرين الثاني - نوفمبر - ، أرسل الملحق العسكري الايطالي في باريس، العقيد «بانيزاردي»، رسالة بالشيفرة إلى حكومته يذكر فيها أن دريفوس غير معروف منه وكذلك غير معروف من زميله الألماني، وأنه يجهل أن يكون المتهم قد عمل لحساب قيادة الجيش الإيطالي. هذه

الرسالة جاءت أثر نشر خبر تعامل دريفوس مع ألمانيا أو إيطاليا في جريدة «الكلمة الحرة» في باريس. وهي جريدة معروفة بعدائها للسامية. ولمّا كانت جميع الرسائل، لاسيما السرية منها، مراقبة من قبل جهاز الإستخبارات آنذاك، فقد نقلت تلك الرسالة إلى الجهات المختصة لفك رموزها. هنا حصل الأختلاف الذي دام طويلاً بين الأختصاصيين بالشيفرة في كل من وزارة الخارجية والقيادة العسكرية الفرنسيتين. لقد ذكر في الرسالة ما يلي: «اذا لم يعقد النقيب دريفوس أية علاقة معكم، فقد يكون من المستحسن أن تشيروا على سفيركم ان يصدر تكذيباً رسمياً. بعميلنا المشبوه». هاتان الكلمتان الأخيرتان فسرتا وكأنها أدانة مموهة لدريفوس. أعيدت عملية فك رموز الرسالة على أيدي فرقاء آخرين. وكانت النتيجة أن ترجمت الرسالة كما يلي: «اذا لم يعقد النقيب دريفوس أية علاقة معكم، فقد يكون من المستحسن ان تشيروا على سفيركم أن يصدر تكذيباً رسمياً لتجنب تعليقات الصحف». لكن الخارجية الفرنسية لم تقتنع بهذه الترجمة الجديدة. ومما قاله «سندهر»، المسؤول فيها عن اصدار القرار: «في وزارة الخارجية، لا شيء يمكن اعتباره مؤكداً». هنا، وبغية اعطاء الحجة الدامغة لصحة الترجمة الثانية، عمد مانون، أحد ضباط المدفعية الفرنسيين المكلفين بالإرتباط مع وزارة الخارجية، إلى حيلة. لقد دبج، بمعرفة رؤسائه وموافقتهم، رسالة بالشيفرة التي استعملت في فك رموز رسالة بانيزاردي، تذكر معلومات مزعومة يمكن أن تثير اهتمام الإيطاليين. وأرسل هذه الرسالة بطريقة تجعلها تقع بين يدي بانيزاردي، الذي لا بد وأن يعمل على فك رموزها وإرسال صورة عنها مرمزة بالشيفرة نفسها. وهذا ما حصل بالفعل. وبعد تحليل رموز رسالة بانيزاردي هذه، والتي وصلت الى الفرنسيين من خلال مراقبتهم البريد، تبين ان الترجمة الثانية لرسالة بانيزاردي الخاصة بدريفوس صحيحة. لكن التدخلات من قبل بعض رجال الدولة من مدنيين وعسكريين والأحراجات التي سببتها لهم هذه القضية، وخصوصاً إمكانية إدانة البعض من الرؤوس الكبيرة، كل هذا أدى إلى عدم أعلان كل التفاصيل وبالتالي، إلى عدم إعلان براءة دريفوس إلا بعد سبع سنوات، عندما اطلق سراحه وعين فارساً في فرقة الشرف.

عندما انتهت اخيراً قضية دريفوس ع - ١٩٠٦، كانت أوروبا على أقل من عشر سنوات من الحرب العالمية الأولى. وكان العالم كله يتهيأ للحرب بكل ما لديه من وسائل. هنا برزت أهمية الأستخبارات فقد عكفت كل دولة على تنمية

امكاناتها في هذا الحقل منفقة المبالغ الطائلة ومجندة الإمكانات الكبيرة. كان هم كل منها، وإن بدرجات متفاوته تتراوح بين البراعة والتخلف، التوصل إلى ما لم يتوصل إليه سواها. وقد برعت في ذلك، بصورة خاصة، الاستخبارات العسكرية. وتألقت، في نطاق هذه الإستخبارات، أسماء امثال فرنسوا بينيل وفرنسوا كارتييه من مدرسة البوليتكنيك، وكلاهما فرنسي. وقد توصل بينيل لأن يصبح الرئيس الأعلى لقسم الشيفرة الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى، بعد أن استطاع حل رموز الشيفرة التي كان يستعملها الألمان آنذاك.

واهتمام الفرنسيين بالإستخبارات وفنونها، من الشيفرة الى المخبرين الى الجواسيس والمتطوعين، أدى الى تفوقهم بشكل بارز في هذا الحقل على أعدائهم. في حين أن الألمان كانوا في الحرب العالمية الأولى، كما في حرب ١٨٧٠، يعتقدون أن تفوقهم العسكري كفيل بتأمين انتصار ساحق لهم. لذلك أهملوا خلال هذه الحرب شان الإستخبارات، ولم يعيروا ما يمكن أن يؤديه الراديو في هذا المجال من خدمات. أما انكلترا وإيطاليا، فلم تبلغا، هما الأخريان، ما بلغته فرنسا والنمسا - المجر من درجة عالية ومتطورة. فهذه الأخيرة استفادت من أمجاد غرفتها السوداء الراحلة. وفي عام ١٩١١، عندما اندلعت الحرب بين إيطاليا والدولة العثمانية حول ليبيا، وأمطرت السماء رسائل سرية من كل جانب عن الحرب، انتهزت هذه الدولة الفرصة فأسست دائرة للاستخبارات ووضعت على رأسها النقيب اندريا فيكل، وجندت لها فريقاً درس بعمق الطرائق الروسية الفعالة آنذاك، خصوصاً في السلم. كما اشترت من إيطاليا بعضاً من نظم فك الرموز فيها توفيراً على عناصرها الإجهاد الفكري كما ذكر في تبرير عملية الشراء. ومعروف ان عملية شراء انظمة الترميز اصبحت شائعة في أوروبا وتتوسل ما يمكن تشبيهه بالمزاد أو بالبورصة، بمعنى أن من يدفع أكثر يحصل على السلعة. وقد جعل هذا الوضع دولة النمسا-المجر مركزاً للجواسيس يأتونها من كل حدب وصوب يشترون ويبيعون.

ويروى أن كونتيسه ايطالية جميلة كانت على علاقة عاطفية حميمة مع ضابط نمساوي - مجري، استطاعت في احدى لياليها الدافئة مع عشيقها أن تسرق من حقيبته كتاباً عن أسرار الشيفرة في بلده واضعة مكانه كتاباً آخر له شكل الكتاب الأول، إنما يحوي صفحات بيضاء. وعندما اكتشف الأمر بعد أيام، جن جنون الحكومة النمساوية - المجرية وقامت، دونّ جدوى، بحملة اعتقالات واسعة في

صفوف العسكريين والمدنيين. وعندما وصل الخبر صدفة إلى سمع ملحق في السفارة الروسية، ضحك وقال: «لقد عرضوا عليّ شراء هذا الكتاب بأربعمائة ألف روبل. لكني رفضت لأني وجدت أن الثمن باهظ» وقد ساعد هذا التصريح على اكتشاف الفاعل في ما بعد.

كما يروى أن أحد تجار الشيفرة باع الحكومة النمساوية ـ المجرية نظاماً ترميزياً صربيًّا ادعى أنه حصل عليه من ابن اخيه الذي يعمل في دائرة الاستخبارات الصربية. وقد استطاع هذا التاجر تضليل الحكومة المذكورة وإيهامها بأن هذه العملية، إن هي اكتشفت، ستكلفه رأسه لا محالة. وحتى يتم اللعبة، طلب من النمساويين ـ المجريين التأكد من أن الشيفرة هي فعلًا المستعملة من قبل حكومة صربيا، وذلك بمطابقتها على رسالتين موجهتين من صربيا إلى سفارتها في فيينا، وذلك بعد أن اتفق مع عميل له على إرسال الرسالتين إلى السفارة المذكورة للتضليل. إشترى النمساويون ـ المجريون الشيفرة بعشرة آلاف كورون. وكم كانت خيبتهم كبيرة عندما تبين لهم بالتجربة أن الشيفرة مزورة. فقد علموا أن الرسالتين اللتين تلقتهما سفارة صربيا، واللتين كانتا في أساس الاقتناع بالشراء، قد أربكتا محللي الرموز في سفارة صربيا في البداية، إلى أن توصلوا إلى اهمالها بعد أن وجدوا فيهما لعبة دون معنى.

غير أن النمساويين لم يكونوا المخدوعين دوماً. فقد استطاعوا اكتشاف ما لا يقل عن مئة وخمسين كلمة من شيفرة إيطالية كانت، لفترة طويلة، تستعمل بين روما والأستانة.

وفي نطاق التحالفات بين الدول الهادفة إلى حماية أنفسها من أخطار مشتركة، تم، عام ١٩١١، تحالف في حقل الإستخبارات بين فرنسا وبريطانيا، وذلك في نطاق التنسيق بينهما إذا ما شنت حرب ضدهما أو ضد أحدهما. وقد تكررت اللقاءات لهذه الغاية بين كارتييه الفرنسي وسبيرس البريطاني إلى أن وضع مشروع متكامل بالمعنى أودع كلًا من الأجهزة المختصة في البلدين.

كانت دقة المشروع تصل حتى إلى أصغر التفاصيل في التعاون بين البلدين. وبعد وضع اللمسة الأخيرة عليه في ربيع عام ١٩١٤، أقدم أحدهم على اغتيال أرشيدوق في مكان ناء في البلقان، فاندلعت بين الأمم حرب طاحنة كبدتها خسائر لا تحصى في قدراتها البشرية والاقتصادية.

الفصل الرابع

المكتب ٤٠

في فجر الخامس من آب ـ أوغسطس ١٩١٤، وهو أول أيام حرب هزت العالم بكامله بلداً إثر بلد، وأزهقت أرواح الملايين من الناس، كان الطراد البريطاني «إمدن» ينزلق فوق مياه بحر الشمال عند التقاء الحدود الدانمركية الألمانية. وفور توقفه، غاص من على سطحه بضعة رجال ضفادع في مياه البحر الباردة ودون ضجة تذكر، ليخرجوا من أعماق هذه المياه، بعد وقت ليس طويلاً، ما يشبه الأفاعي الملتوية المغطاة بحشائش البحر. كان تلك الأفاعي قطعاً من الكابل الذي سبق أن مدته المانيا لتتصل من خلاله بالعالم دونما حاجة لاستعمال الراديو. وعلى الرغم من أن الإنكليز بدأوا بالتفكير بهذه العملية منذ عام ١٩١٢، فإن إتمامها في الوقت الذي تمت فيه اعطاهم، كما أعطى حلفاءهم، فعالية عوضت عليهم هذا التأخير.

وهكذا، انقطعت ألمانيا عن حلفائها الا عن طريق الراديو أو كابلات أخرى، وكلاهما في متناول رقابة الحلفاء. وعلى الرغم من أن انكلترا لم تكن مهيأة تماماً لاستيعاب الصيد الثمين، الا أنها لم تلبث أن أعدت العدة لاستيعابه.

في ذلك اليوم الأول من أيام الحرب الطويلة، كان مدير الاستخبارات البحرية الإنكليزية على موعد على طاولة غداء مع الرجل الوحيد في قيادة البحرية الذي كان يهتم بالشيفرة وفنونها: السير ألفرد أوينج، مدير التعليم البحري. على الطاولة، وبينها هما يأكلان، ذكر مدير الاستخبارات للسير ألفرد أن مكتبه أصبح محشواً برسائل ألمانية سرية ضبطتها أجهزته، وأن هذه الرسائل تنتظر من يحل رموزها. فما كان من هذا الأخير الا أن عرض نفسه للمهمة فوراً وانكب عليها باندفاع منقطع النظير.

بدأ بالعمل واصلاً الليل بالنهار بعد أن اختار لمعاونته أربعة من أصدقائه في بعض معاهد البحرية العسكرية والذين يتمتعون بخبرة في أمور الشيفرة ويتقنون الألمانية. كان من بين الرسائل التي بدأوا بترجمتها رسالة لو جاء دورها في البداية لغيرت الكثير من مسار الحرب. هذه الرسالة المؤرخة في الرابع من آب ـ أوغسطس قبل يوم واحد من اندلاع الحرب، تحوي خبر حلف مع تركيا. أرسلتها القيادة العليا للبحرية الألمانية إلى الأمير وهلم سوشون، قائد الأسطول الألماني في المتوسط، طالبة منه التوجه إلى اسطنبول. فما كان من سوشون إلاّ أن أمر المدمرتين التابعتين له، غوبن وبرسلو، بالتوجه إلى العاصمة التركية، خلافاً لما قدرته البحرية الإنكليزية. وعندما شاهد أحد الطرادات الإنكليزية المدمرتين تمخران عباب اليم عند مخرج مضيق مسّين، كان الوقت قد فات ولم يستطع الطراد الإنكليزي اللحاق بهما واصطيادهما في الأرخبيل اليوناني. وفي العاشر من آب ـ أغسطس، كان غوبن وبرسلو يدخلان مياه الدردنيل. وقد قال تشرشل في إحدى المناسبات عن المدمرة غوبن أنها لم تترك مدمرة أخرى في عصرها تفعل فعلها في الخراب والمآسي والتدمير. هذه المدمرة هي التي قطعت كل اتصال مادي للروس عن حلفائهم منذ بداية الحرب. وكم كانت النتائج تغيرت ومراحل الحرب اختصرت لو أن تلك الرسالة قد نبشت من أكوام الرسائل على مكتب رئيس الإستخبارات البحرية الإنكليزية، في الوقت المناسب.

ظل فريق الإستخبارات الذي يشرف عليه أوينج لفترة طويلة دون مستوى المهام المطلوبة منه. فالرسائل تتوالى والخبرات ضعيفة. ويذكر تشرشل في مذكراته كيف أن التعاون كان وثيقاً بين الإستخبارات الإنكليزية والروسية منذ بداية الحرب، بل وحتى قبلها. ولعل أكبر تعاون سجله تاريخ الإستخبارات كان الحصيلة الكبرى من الرسائل التي ضبطتها البحرية الروسية في أيلول ـ سبتمبر من عام ١٩١٤ من الطراد الألماني ماغدبورغ الذي غرق في البلطيك. هذه الرسائل سلمتها السلطات الروسية للسلطات الإنكليزية. وكان لها أثار إيجابية على منجزات الحلفاء العسكرية. والطريف في القصة أن مجموعة هذه الرسائل كانت مضغوطة على صدر أحد بحارة ماغدبورغ ويحميها بذراعيه المتشنجتين على جثته التي انتشلها الروس من الماء. ومن جهة أخرى وبعد أشهر، انتشلت البحرية الإنكليزية من أحد طرادات أربعة المانية غرقت أثر معركة بحرية بين الأسطولين صندوقاً يحوي شيفرة بكاملها مع

ترجمتها. هذه الشيفرة، التي تختلف عن شيفرة ماغدبورغ، كان يستخدمها الألمان في مراسلاتهم مع ملحقيهم المنتشرين في مختلف أنحاء العالم.

إثر هذه المنجزات، وأمام ضخامة وأهمية العمل أمام دائرة الاستخبارات البحرية الانكليزية، اضطرت الحكومة الانكليزية الى زيادة فعاليتها البشرية، فزادت عدد العاملين فيها بشكل ملائم وخصصت لها مقراً جديداً بعيداً عن عيون الفضوليين من رجال البحرية. هذا المقر اختير لأن يكون الرقم ٤٠ من مجموع ما يسمى بالأبنية القديمة. وهذا ما جعل هذه الدائرة تعرف بالمكتب ٤٠.

كم من المنجزات سجلها هذا المكتب؟ كان وراء إغراق الكثير من المدمرات الألمانية، كما كان وراء الكثير من انتصارات الحلفاء، كل الحلفاء، بفضل دقة معلوماته وشمولها. لقد بلغ من الضخامة أن زرع قواعد له في أهم النقاط من الجزر البريطانية وخارج تلك الجزر. ولا تزال معركة دوغربنك بين الأسطولين الإنكليزي والألماني بارزة في الحرب العالمية الأولى. خسرت المانيا في هذه المعركة ثلاث طرادات واشتعلت النيران في أخرى وصلت قواعدها ـ مليئة بالقتلى والجرحى. والفضل في هذا الانتصار يعود لمعلومات ضبطها المكتب ٤٠ عن هجوم سيقوم به الأسطول الألماني على الشاطىء الإنكليزي، فما كان من الإنكليز الا أن كمنوا للألمان في عرض البحر. وعند عودة هؤلاء وسط ضباب كثيف ورؤية سيئة، انصبت عليهم النيران الانكليزية التي افقدتهم الكثير من صوابهم والعديد من رجالهم وقطعهم.

ظل المكتب ٤٠ يعمل دون كلل إلى أن استطاع كسب ثقة الجميع، فمنحوه كل التسهيلات من عناصر بشرية متخصصة إلى تجهيزات ملائمة متطورة. وقد استطاع ابتداع مفتاح جديد للشيفرة الإنكليزية، لم يتمالك تشرشل نفسه أمام إعلامه به، فاتصل شخصياً بأوينج وهنأه على الإنجاز. وقد تكرر بعد ذلك مثل هذا الإتصال مع تبدل المفاتيح الألمانية، التي أصبحت تتغير أحياناً كل يوم مع بداية عام ١٩١٦. وهذا ما أكسب المكتب ٤٠ مهارة مدهشة مكنته من اكتشاف المفاتيح الألمانية بعد ساعات من إطلاقها. أصبحت اللعبة بين الاسطولين الألماني والإنكليزي كلعبة الهر والفار. يبتدع الألمان مفتاحاً جديداً فيكتشفوا أنه عرف من الإنكليز فيغيروه. بالمقابل يبدل الإنكليز مفاتيحهم باستمرار فيوقعوا الألمان بارتباك هو أيضاً مستمر. وتاريخ المعارك البحرية خاصة بين الأسطولين زاخر بالكر والفر هذا.

في حرب الإستخبارات هذه قصة تروى. عندما غرقت الغواصة الألمانية يو - بوت بالقرب من شاطىء كنت، أرسلت البحرية الإنكليزية ضابطاً نحيلاً يدعى ميلر للغوص واستخراج ما يمكن أن يكون هاماً من الغواصة. منذ الغوصة الأولى، وبعد أن دخل ميلر من فتحة صغيرة في جسم الغواصة، وجد أمامه باباً صغيراً ففتحه. وهناك في الظلام الدامس الذي يلف أعماق المحيط، وعلى نور مصباحه الضعيف، وجد علبة معدنية تبين في ما بعد أنها تحوي الشيفرة الكاملة للأسطول الذي تنتمي إليه يو - بوت. وقد ساعد هذا الإكتشاف على فك رموز كثير من الرسائل وبالتالي، على تحقيق كثير من الإنتصارات. إن حجم العمل في المكتب ٤٠ بلغ درجة جعلته ينجز بين تشرين الأول - اوكتوبر سنة ١٩١٤ وشباط - فبراير سنة ١٩١٩ فك رموز ١٥٠٠٠ برقية سرية ألمانية. كان العمل متواصلاً ليلاً ونهاراً حتى أثناء القصف ورغم انقطاع التيار الكهربائي. وأهم تبديل حصل في الجهاز البشري للمكتب كان تعيين النقيب البحري وليم هول مكان أوينج.

من جهة الفرنسيين، استطاع قسم الإستخبارات في وزارة الحرب الفرنسية كشف بعض رموز يو - بوت. كما اكتشف الفرنسيون أن الألمان يتلقون معلومات من عملاء لهم فرنسيين في مرسيليا عن تحركات الأسطول الفرنسي هناك أولاً بأول. وكانوا، إثر ذلك يضبطون تحرك الأسطول الألماني بنتيجة تلك المعلومات بواسطة الرسائل السرية التي كانت ترسل إلى قطع هذا الأسطول، ويبنون مجابهاتهم البحرية على أساسها. غير أن سوء الأحوال الجوية، ذات يوم، وعدم إمكانية الإتصال بالراديو مع المدمرة «الجزائر» كلفا البحرية الفرنسية خسارة المدمرة مع خمسمائة من رجالها وعتاد حربي مهم. وقد اكتشف الجواسيس في ما بعد وأعدموا.

كان الفرنسيون يرسلون باستمرار ما يحصلون عليه من معلومات إلى الإنكليز. لكن العكس لم يكن صحيحاً تماماً. وتبرير الإنكليز لذلك أنه لا بد لسلامتهم أن يكونوا وحدهم سادة البحار وأن يجروا بأنفسهم مراقبتها باعتبار وضعهم الجغرافي وطبيعة أرضهم. غير أن كارتييه، رئيس مكتب الشيفرة الفرنسي، كان يرى أن الإنكليز يبالغون في تضخيم هذا الإعتبار. حتى أن الجو بين كارتييه وهول لد اكفهّر ذات يوم إثر إخفاء الإنكليز معلومات عن الفرنسيين، مما كان سيؤدي إلى إغراق طراد فرنسي. كان جواب هول أن إغراق طراد أهون شراً من كشف شيفرة. هنا رد كارتييه قائلاً: هل كنت ستفكر بهذا المنطق لو كان الطراد إنكليزياً؟ لكن الجو ما

لبث أن تحسن بعدما اتفق الإثنان على بعض التعديلات في مجموعات معينة من الشيفرة.

إن المصحلة المشتركة للحلفاء كانت وراء تجاوز الكثير من الإعتبارات الإقليمية وبالتالي، وراء تعاون وثيق في كثير من المناسبات. هذا التعاون أدى، ذات مرة، إلى اكتشاف عملية ألمانية خطيرة هي الراقصة ماتاهاري، التي أعدمها الفرنسيون إثر اكتشافهم رموز رسالة سرية بعث بها الألمان إليها يطلبون منها فيها التوجه إلى باريس لمهمة تجسسية. كذلك تعاون الفرنسيون مع النمساويين ـ المجريين في مضمار الإستخبارات. فتوسعت بذلك حلقة تبادل المعلومات بين الحلفاء لما فيه مصلحتهم جميعاً ومصلحة كل منهم.

ولم يقتصر هذا النوع من التعاون على الحلفاء، بل مارسه أيضاً المحور. وقد توصل الألمان إلى التعرف على مختلف أنواع الشيفرة العائدة للبحرية البريطانية. كما أقاموا محطة هامة للإلتقاط والتدخل في نومنستر.

قد لا يكون من قبيل الصدف أن يستبدل أوينج بهول. فقد رافق هذا التبدل فتور المعارك البحرية بين الأسطولين الإنكليزي والألماني، بعد أن انكفأ الأسطول الألماني ضمن معارك محدودة داخل حدود مياهه الإقليمية. هذا التغيّر أدى إلى تعديل جذري في مهام المكتب ٤٠. فقد تعدى هذا المكتب الحدود التي كان يعمل من داخلها، وهي الإستخبارات البحرية، إلى ما هو أوسع وأشمل، بل إلى ما هو أهم بكثير، أعني به الإستخبارات الديبلوماسية. وبذلك أصبح هول السيد غير المنازع في هذا المضمار.

ويبدو أن نشاط المكتب غير البحري هذا قد بدأ قبل مجيء هول. فهو الذي اكتشف المؤامرة التي كان يهيئها الألمان لقلب نظام الحكم في إيران. وهو الذي استطاع أيضاً كشف نشاطات السير روجر كاسمنت لتشكيله فرقة معادية للإنكليز من سجناء الحرب الايرلنديين في ألمانيا، وكذلك لتحضير عصيان في ايرلندة. فبعد أن ضبطت المراسلات الموجهة إلى كاسمنت من الإستخبارات الألمانية، ألقي القبض عليه، لكنه زعم أنه كاتب، ومن فرط هدوئه وبرودة أعصابه، كاد أن يفلت من المأزق الذي أحيط به. غير أن محاولته التخلص في الطريق من قصاصة ورق صغيرة كتب عليها بالشيفرة: «أرسلوا مزيداً من المتفجرات»، واكتشاف ذلك من قبل أحد

رجال الشرطة المرافقين له، كلفاه حياته، إذ أعدم شنقاً في ٨ آب ـ أوغسطس عام ١٩١٦.

لقد بلغ هوس الإستخبارات والإستخبارات المضادة حداً جعل كل الناس يعيشون في جو من الحذر والريبة. كان يكفي أن يمر في الشارع شخص على ملامحه بعض الصفات غير الإنكليزية، حتى يرى نفسه محاطاً بالأنظار ومطوقاً بالمخبرين وربما، مساقاً إلى أحد مراكز الإستخبارات للتدقيق في هويته والتحقق من شخصيته. وكم من وقت أضاعه المكتب في مثل هذه الأعمال. كذلك كم من حوادث طريفة جرت له وتركت الجميع يضحكون لفترة طويلة.

في السابع عشر من كانون الثاني ـ يناير من عام ١٩١٧، وحوالي الساعة العاشرة والنصف، حضر الأب وليم مونتغومري، رجل الإستخبارات وفك رموز الشيفرة وأحد عناصر المكتب ٤٠ في قسمه الديبلوماسي، ليقابل هول لما وصفه بالأمر الخطير. كان يحمل معه ملفاً ـ يحوي ترجمة لشيفرة التقطها ورأى فيها رسالة تنبىء عن تخطيط الألمان لشن هجوم صاعق على الغواصات الإنكليزية. كما احتوت الرسالة تعليمات للسفير الألماني في واشنطن للسعي بإبقاء الأميركيين على الحياد في حال حصول هجوم كهذا. انتفض هول لهول ما سمع. هجوم شامل على الغواصات الإنكليزية؟.

كان الموقف مظلماً ظلام ذلك اليوم من فصل الشتاء القارس. لقد دخلت الحرب سنتها الثالثة ولا أحد يرى لها منفذاً. خسائر الفرنسيين في معركة فردان بلغت نصف مليون رجل. وخسائر الإنكليز ستين ألفاً في يوم واحد في معركة السوم. رومانيا، الحليفة الجديدة، اجتاحها الجيش الألماني. أما روسيا، عملاق الشرق، فقد كانت مهزومة عملياً. والأدهى أن على رأس الولايات المتحدة رجل يفخر بأنه جنب بلاده الحرب.

في الجانب الألماني، لم يكن الوضع بأفضل. هجوم المارن أوقفه الحلفاء بعد أن كبدوا العدو فيه خسائر فادحة اضطرته إلى تجنيد الصبية من سن الخامسة عشرة. شحت المواد الغذائية، وأصبحت الوجبات الرئيسية مقتصرة على القليل من البطاطا، وذلك بسبب الحصار الغذائي الذي فرضته انكلترا. أمام هذه الصورة التعيسة، كان وزير الخارجية الألماني، زيمرمن، يسعى لإقامة حلف مع المكسيك،

مستعيناً بالكره التقليدي الذي يملأ هذا البلد لجاره القوي والمتسلط في الشمال. كان يسعى لهذا الحلف تحسباً لتبديل الولايات المتحدة سياستها المحايدة تجاه الحرب الدائرة رحاها في أوروبا.

ولما كان يستحيل على زيمرمن الإتصال بسفير المكسيك المعتمد في سويسرا، فقد لجأ إلى الاتصال بممثله في مكسيكو. ڤون إيكارد، عن طريق واشنطن. وحتى يطمئن إلى وصول الرسالة، أرسلها عن طريقين: طريق واشنطن وطريق السويد، الذي، على الرغم من حياده، كان يتعاطف مع الألمان ويعطيهم تسهيلات باستخدام بعض موجات الراديو فيه.

في البداية، عندما تسلم هول المستند الذي فك مونتغومري جزئياً رموزه، لا سيما القسم المتضمن فكرة الحلف العسكري مع المكسيك، وما يمكن أن يكون لهذه الفكرة من أثر سيء على الولايات المتحدة، ربما حملها على تغيير موقفها الحيادي والدخول في الحرب ضد ألمانيا، إنفرجت أساريره وفكر بإبلاغ الأمر فوراً إلى واشنطن. غير أنه ما لبث أن تريث. فالتقاط رسالة من خلال موجة دولة محايدة، الولايات المتحدة، من شانه أن يفضح إنكلترا، باعتبار أن هذا العمل غير مشروع. يضاف إلى ذلك أن رموز الرسالة لم تفك بكاملها، مما يجعل إثبات المعلومات الواردة فيها مهمة تعوزها الثقة. هنا، فكر هول بترك الوقت يفعل فعله ويوصله إلى هدفه الخاص بتبديل موقف الولايات المتحدة. ذلك أن الرأي العام في هذا البلد بدأ يتحرك في هذا الإتجاه بعد أن تأثرت المصالح الإقتصادية للأميركيين بنتيجة الحرب في أوروبا وبعد أن ضربت سفن أميركية في المحيطين الهندي والأطلسي من جراء المعارك البحرية بين الأساطيل المتحاربة.

هذا التريث لم يثن هول عن التحرك. لقد أرسل عميلاً ماهراً إلى المكسيك للحصول على نسخة كاملة من الرسالة الألمانية. فتم له ذلك.

على الرغم من السلاح الذي أصبح بيد الإنكليز بحصولهم على كامل الرسالة، فضل هول الإنتظار حتى يأتي القرار من الولايات المتحدة نتيجة اقتناع ذاتي. كان هول يعتمد في ذلك على خطأ يرتكبه الألمان بضربهم بعض وحدات الأسطول الأميركي. لكنهم لم يفعلوا. والمعارك تشتد والمآسي تتفاقم. أمام هذا الوضع، كان لا بد لهول من إبراز الرسالة إلى إدوارد بيل، سكرتير السفارة الأميركية

في لندن، والذي كان ضابط الإرتباط بين الحكومة الأميركية ومختلف دوائر الإستخبارات الإنكليزية.

لم يصدق بيل، في البداية، ما رأته عيناه. والذي زاده دهشة وثورة هو أن الرسالة كانت تحوي عرضاً ألمانياً للمكسيك بمساعدتها على استعادة بعض الأراضي التي ضمتها الولايات المتحدة إليها.

كان للإنكليز ما أرادوه. الساعة الثانية من صباح الرابع والعشرين من شباط - فبراير من عام ١٩١٧، كانت الحكومة الإنكليزية بواسطة أجهزتها المختصة تنقل، عبر الأطلسي، رسالة إلى واشنطن تعلمها فيها بالخبر وتضيف أن هذا الإعلام ناتج، بالإضافة إلى المصالح المشتركة، عن شعور بالصداقة تجاه الولايات المتحدة.

حال وصول الرسالة الإنكليزية، أبلغ بها الرئيس الأميركي، الذي ثار وعزم على «نشرها دون تأخير». وصبيحة السابع والعشرين، وبعد ما استعرض الوضع مع وزير خارجيته لانسينغ، بعث بفحواها إلى الصحف، دون أن يفصح عن تفاصيل أخرى. وصدرت الصحف في اليوم التالي تفجر القنبلة. لكن بعض أعضاء مجلس الشيوخ، خلال مناقشة قانون حول تسليح الأساطيل التجارية، طالب الحكومة بالنسخة الأساسية للرسالة الألمانية التي اعتمدها الإنكليز في رسالتهم إلى واشنطن. لم يتأخر هؤلاء عن تلبية طلب الأميركيين. والطريف في الأمر، والمراسلات بين الحكومتين سرية، أن تصدر الصحف الأميركية بعد أيام، لتشكك بقدرة وكفاءة الإستخبارات الإنكليزية التي لم تستطع كشف السر الألماني قبل الأميركيين. وقد تجاهل هول ذلك للإمعان في التضليل.

لا يمكن، مهما بلغت الدقة من مدى، تصوير الإرتباك الذي لف أجهزة الإستخبارات ووزارة الخارجية الألمانية. توالت الإتهامات والتحقيقات. وكان لا بد من بعض الضحايا. وحتى هذه اللحظة، وبعد أن دفع الثمن من دفع، ومات من مات من أبطال القصة، بقي سر الكيفية، التي تم بها الحصول على الرسالة الألمانية، طي الكتمان.

لم يكن سهلاً على الأميركيين تحمل مؤامرة تحيكها دولتان إحداهما في أوروبا والأخرى على خاصرتهم، وتهدف إلى انتزاع جزء من أراضيهم. كانت الطعنة في صميم كرامتهم. قبل ثلاثة أشهر كان رئيسهم يصرخ في وجه العالم قائلاً إن «من

الإجرام بحق المدنية دفع الأمة إلى أتون الحرب». هذا الرئيس نفسه، سمعه العالم يقول: «الحق أغلى من السلام». وفي الثاني من نيسان - ابريل سنة ١٩١٧، صعد ولسن على منصة الكابيتول ليطلب من الكونغرس أن «يجعل من العالم مكاناً تكون فيه الديموقراطية بأمان». وقد لمح في خطابه هذا إلى الرسالة الألمانية «اللئيمة».

أعلنت أميركا الحرب. وتوجه جنودها إلى أوروبا، يساندون زملاء لهم منهوكي القوى في الخنادق الأمامية. وهكذا استطاع المكتب ٤٠ تغيير ميزان القوى بين عشية وضحاها، منجزاً أعظم ما دونته كتب التاريخ من أثر لرسالة سرية.

الفصل الخامس

الحرب العالمية الأولى

ما أن اكتشف الراديو عام ١٨٩٥ كوسيلة للمساهمة في خير البشرية، حتى تلقفه العسكريون وسخروه لأغراض آلتهم الحربية. لقد وجدوا فيه وسيلة مثلى للإتصال البعيد المدى، وسيلة وفرت المال والمحاذير خلافاً لما كان متبعاً من قبل من وسائل اتصال تعتمد الأسلاك والكابلات وأنماط البريد.

ولما كان لكل مدالية وجه آخر، فإن الراديو سلاح ذو حدين. فكما أن من السهل الإتصال بواسطة موجات للأثير تلف العالم بأكمله، فإن من السهل أيضاً الدخول في أية موجة من أي مكان لالتقاط أية مراسلة. هنا، تكشفت أهمية علم الرموز وتحليل الشيفرة كسلاح ماضٍ لا يقل أهمية عن سائر أسلحة الحرب بل يفوقها ويتعداها إلى نطاق السلم.

وحدها فرنسا كانت مهيأة بأجهزة استخباراتها لضخامة المهمات المستجدة. جندت خبراتها التي كونتها قبل الحرب بشكل منتج، بعد أن دعمت دوائر الشيفرة فيها بالعنصر البشري الكفء وبالتجهيزات الملائمة. ويذكر أن ما التقطته أجهزتها من رسائل سرية، ترجمت وصنفت بشكل متطور، بلغ أكثر من مئة مليون كلمة، أي ما يعادل مكتب من ألف مجلد من الحجم الوسط.

بالإضافة إلى المتطلبات العسكرية في هذا المضمار، كان على كارتييه ورجاله أن لا يغفلوا الإستخبارات الديبلوماسية، الضخمة، هي الأخرى. ولكثرة ما كانت ألسن العسكريين تلوك أخبار الشيفرة الألمانية وسرعة تفكيكها من قبل الأجهزة الفرنسية، اضطرت القيادة العليا للجيش الفرنسي أن تصدر أمراً بمنع التحدث بمثل

هذه الأمور. لكن الأمر ظل حبراً على ورق. وقد وصلت أخبار ما تتوصل إليه أجهزة الإستخبارات العسكرية إلى الصحف. فقد نشرت جريدة «لـو ماتـين» الباريسية كيف أن الفرنسيين قصفوا موقع ثيات في بلجيكا بعدما علموا، بواسطة إستخباراتهم، أن غليوم الثاني موجود هناك في استعراض للقوات. كان بنتيجة ذلك أن ضاعف الألمان تغيير مفاتيح الشيفرة الخاصة بهم، مما ضاعف معه المجهود المضني اصلاً بسبب التغييرات المتوالية لهذه المفاتيح.

إلى جانب كارتييه، لمع اسم آخر، الملازم أول بان ڤين، الذي كان متفانياً في مهنته، حتى كسب ثقة رؤسائه، بحيث طالب به وزير الحرب إلى جانبه ليضعه بتصرف قسم الشيفرة في وزارته.

كان حجم العمل في دوائر الإستخبارات العسكرية الفرنسية يتراوح بين زيادة ونقصان تبعاً لحجم الإتصال بالراديو من الجانب الألماني.

فبعدما كان الراديـو أهم وسيلة ألمانية لإجراء الإتصالات السرية بالشيفرة في بداية الحرب، خف استعماله بشكل ملحوظ خلال عام ١٩١٥ ليعود إلى ازدهاره الأول مع بداية عام ١٩١٦، وتعود معه أكوام الرسائل المضبوطة على مكاتب كارتييه وأعوانه. وكلما تزايد العمل، تبلورت إمكانيات بان ڤين الهائلة.

إن تغيير بعض أنظمة الشيفرة حيناً وتعديلها حيناً آخر من قبل الألمان لم يتيحا المجال أمام الفرنسيين لأي قسط من الراحة. يضاف إلى ذلك ما كان العدو يتوسله من بث رسائل مضللة إن في محتواها أو في شيفرتها. لكن الفرنسيين لم يكونوا يوماً متخلفين في هذا السباق المضني، ساعدهم على ذلك، كما ذكر، طول باعهم في المهنة قبل الحرب، خلافاً للإنكليز الذين أخذتهم الحرب، في مضمار الإستخبارات، على حين غرة، علماً بأنهم لم يلبثوا أن ضيقوا المسافة بينهم وبين من سبقهم، بل ربما جعلوا المسافة خلفهم في بعض المراحل. وقد ساعدهم في ذلك مـا أسداه لهم الفرنسيون من خدمات ومعلومات.

لمع عند الإنكليز اسم هو بروك ـ هانت، الذي استطاع فك رموز الرسائل الموجهة من القيادة الألمانية إلى عملاء لها في أفريقيا الشمالية لإثارة القلاقل ضد الفرنسيين خاصة والحلفاء بصورة عامة في هذا القطاع. كان بعض تلك الرسائل يفيد أيضاً عن الخسائر الجسيمة في الأورواح، التي كان يتكبدها المجندون العرب في

جيوش الحلفاء والناتجة، بصورة رئيسية عن وضعهم في الأماكن الساخنة وزجهم في الصفوف الأمامية. وكان هدف الألمان من تلك الأخبار، التي كانوا ينشرونها بواسطة عملائهم في أوساط شعوب شمال أفريقيا، إثارة النقمة وخلق المتاعب للحلفاء.

بالإضافة إلى الراديو كوسيلة للإتصال المختلف الأنواع، كان هناك الهاتف. فعلى الرغم من التعليمات المشددة للعسكريين باختصار استعمال هذه الوسيلة وأحياناً، بعدم استعمالها بتاتاً إذا كان الأمر يتعلق بمعلومات عسكرية، فقد ظل الهاتف يستعمل بكثافة وخلافاً للتعليمات. ويروى أن أحد الضباط الذين اقتحموا مقراً ألمانياً في فرنسا واحتلوه، وجد في المقر خريطة الخطة الخاصة بالإقتحام، فلم يستطع ضبط نفسه، وطلب القيادة هاتفياً ليخبرها بذلك ويقرأ لها محتويات مستندات أخرى عثر عليها في المقر الألماني، غير آبه بلفت نظر أحد أعوانه له لخطورة مثل هذا الإتصال.

وإمعاناً في الحذر، أبتدع ما سمي بالشيفرة الهاتفية. هذه الطريقة استطاع الألمان، بعد سنة من تطبيقها لدى الحلفاء، من تبنيها والوصول بها إلى مستوى الآخرين. كانت المخابرة الهاتفية على أساس هذه الشيفرة تتم بتهجئة الكلمات أرقاماً وبتسجيل تلك التهجئة على لوحة استقبال أمام المرسل إليه. استمرت هذه الطريقة عند جميع الفرقاء منذ عام ١٩١٦ حتى عام ١٩١٨، حيث غيرها الألمان في آذار ـ مارس، لكن الإنكليز والفرنسيين تنبهوا لذلك قبل حدوثه وهيأوا أنفسهم للمستجدات.

من ناحية أخرى، كان للإستخبارات النمساوية ـ المجرية باع طويل وشهرة لا تنكر، منذ ما قبل الحرب وخلالها. كان جل نشاطهم على الجبهة الإيطالية. لم يكن الإيطاليون على شيء من البراعة في هذا المضمار. فالخبرة والكفاءة كانتا تعوزانهم. ابتدعوا أنواع متعددة من الشيفرات، سرعان ما كانت تكتشف، وفي أقل من ساعات، من قبل الآخرين. لمع عند الإيطاليين لويجي ساكو، الذي أصبح رئيساً لما سمي بمكتب الإستخبارات وفك الرموز. عام ١٩١٧ نجح فريق ساكو في أول عمليات فك للرموز كاملة، وذلك خلال معركة غوريسيا. بعد ذلك أنشأوا أنواع جديدة للشيفرة استخدموها بإيجابية في بعض المعارك. وفي نهاية عام ١٩١٧، أرسل الحلفاء إلى إيطاليا بعثة عسكرية تضمنت رجال الإستخبارات. وقد ساعد هؤلاء على رفع مستوى الإيطاليين في هذا المضمار. يضاف إلى ذلك شعورهم بالمرارة إثر

الهزيمة الساحقة التي لحقت بهم في معركة كابوريتو الشهيرة، والتي كان من أسبابها الرئيسية ضعف إستخباراتهم مقابل المستوى الرفيع من كفاءة استخبارات العدو. وهذا ما أكدته لجنة تحقيق خاصة قامت، بعد الحرب، باستقصاء لأسباب الهزيمة في تلك المعركة.

أما الولايات المتحدة الأميركية، فقد بدأت رسمياً أولى خطواتها في حقل الشيفرة العكسرية عام ١٩١١، في فورت ليفن وورث بولاية كنساس. هناك كانت مدرسة الإشارة. في ذلك العام بدأت المدرسة سلسلة من المحاضرات التقنية حول الموضوع ألقاها موراي مورهاد من سلاح المدفعية الملكية البريطاني وقد بدأ، إثر ذلك، بعض الأميركيين من ضباط الجيش بالإهتمام بعلم الشيفرة. وكانت أول دراسة لهم تلك التي قدمها موبورن عام ١٩١٤.

لكن الحصاد الخصب نبت في رأس النقيب في سلاح المشاة باركر هيت. اكتشف هذا الشاب ذاته إبان ارتفاع الضغط مع المكسيك، وذلك بعد أن استطاع حل الرموز التي كان يستعملها المكسيكيون في مراسلاتهم السرية.

بدأ هيت بنظام الإطار المزدوج الذي استعمله بورتا منذ ثلاثة قرون. وباستعماله هذا الإطار، سجل أكبر تراجع علمي في تاريخ الشيفرة. غير أن هذه البداية الهزيلة لم تدم طويلاً. فقد استطاع هيت وأعوانه ابتداع أنظمة عدة عرضها عام ١٩١٤ على مدير مدرسة الإشارة لدرسها وتقييمها. وكانت إحدى وسائل فك الرموز التي ابتدعها وعرضها «مبنية على أفكار بازاري، من الجيش الفرنسي»، كما ذكر هيت في كتاب التقديم. في عام ١٩٢٢، تبنى الجيش الأميركي جهازاً من خمس وعشرين اسطوانة من الألمنيوم بحجم القطعة النقدية، وظل يستخدمه في فك الرموز حتى أوائل الحرب العالمية الثانية. في الثلاثينات عاد الجيش لطريقة هيت مع بعض التعديلات. وقد دام ذلك حتى أوائل الأربعينات. يضاف إلى ذلك أن البحرية ظلت تستعمله على نطاق واسع خلال الحرب العالمية الثانية.

عام ١٩١٧، حضر هيت إلى فرنسا كمعاون لضابط الإشارة في الجيش الأميركي هناك. وعندما دخلت الولايات المتحدة الحرب، لم يكن لدى الجيش الأميركي أي جهاز للترميز. غير أن ذلك عولج بسرعة، فأنشىء جهازان، الأول للإستخبارات بواسطة الراديو والثاني للإستخبارات العسكرية. كانت البداية صعبة.

فالعبء ثقيل والإمكانات محدودة. لكن الإقتباس من سائر الحلفاء، على شحه، سد بعضاً من الثغرات. وبغية التخفيف من تخلفهم في مضمار الشيفرة، عمد الأميركيون إلى الإكثار من الأنظمة واستبدالها بسرعة كبيرة، حتى لا يتسنى للعدو الإستفادة منها. وهناك أنظمة لم تعمر لديهم أكثر من ثلاثة أيام. لكن ذلك لم يعط الثمار المرجوة. فأفضل الأنظمة، وإن تبدلت بسرعة كبيرة، لا يمكن أن تكون فعالة إن هي لم تبن أصلاً على قواعد صلبة.

ضاعف الأميركيون جهودهم في هذا النطاق للحاق بالركب. أنشأوا جهازاً للمخابرات الهاتفية وآخر لجمع وتحليل ما يرسله المراقبون الجويون. كان أول انتصار لهم في الحرب في مضمار الإستخبارات في ١١ آذار - مارس من عام ١٩١٨. كشفوا رسالة ألمانية تنبىء بهجوم كبير على الشاطىء الإنكليزي. أبلغ الأمر إلى الحلفاء، الذين سرعان ما استفادوا من هذا الإكتشاف واجهضوا الهجوم مكبدين العدو الآلاف من الضحايا.

منذ بداية الحرب حتى آخر دقيقة فيها، والصراع بين أنظمة الشيفرة وأجهزة الإستخبارات على أشده. لم يتوقف لحظة. كيف يتوقف وقد تكشف على أنه يشكل سلاحاً أمضى من الحديد والنار؟ كيف يتوقف والمعارك تتلوها معارك والخطط تعقبها خطط؟ في كثير من اللحظات، ولدى كل من الجانبين المتحاربين، كانت الانظار تتجه نحو أجهزة الإستخبارات وتستجدي الأنقاذ. هدوء قد يكون سابقاً للعاصفة، تحركات مشبوهة، والجواب اليقين لدى الاستخبارات. لكن هذه الاستخبارات لم تكن دائماً في وضع تحسد عليه. مرت في تاريخها العصيب خلال الحرب لحظات حرجة وضحلة. فاستبدال الأنظمة المفاجىء بهدف التضليل، وابتداع أنظمة جديدة أكثر تعقيداً وتمويهاً على الدوام، كانا يجعلان المهمة شائكة والنتائج شحيحة وأحياناً غير أكيدة.

ان اجتياح الألمان لفرنسا في بداية الحرب كان، في جزء منه ومن زاوية محددة، بسبب عدم تمكن استخبارات الحلفاء من كشفه قبل أوانه، على الرغم من تفوقهم المبكر في هذا المضمار.

تشكل الحرب العالمية الأولى نقطة تحول بارزة في تاريخ الإستخبارات. قبلها، كان هذا العلم ذا أهمية ثانوية، في حين أصبح بعدها يشكل دعامة في مقدمة

الدعامات، في الحرب كما في السلم. لم تعد الإستخبارات وفنونها المختلفة، كما كانت قبل الحرب، طفلاً يحبو متلمساً طريقه. أصبحت مكتملة النمو، شديدة البأس، تعتمد على نفسها ويعتمد عليها الآخرون. وهذا ما أدى، في ما بعد، إلى التفاعل المستمر بينها وبين المعلوماتية. هذا التفاعل لا يزال موضع جدل في الأوساط السياسية وأوساط المفكرين، في العالم المتحضر خاصة، لما له من علاقة وثيقة بالحريات الشخصية وحقوق المواطن. ولا شك في أن هذه المشكلة المستجدة في عصرنا الحديث، ستظل مجالاً لأخذ ورد مستمرين طالما أنها تمس ما يعتبره الإنسان من خصوصياته الحميمة. وقد يكون هذا التعدي «المشروع» على حقوق المواطن نتيجة للإنفلاش الكبير في عناصر الحياة الإجتماعية والاقتصادية، وما رافق ذلك من تعقيدات في العلاقة بين المواطن والدولة، مع كل ما نراه من تجاذب متبادل هو في صميم طبيعة هذه العلاقة. ولم يكن ذلك ليحصل لولا التطور الهائل في وسائل الإستخبارات من تجميع للمعلومات وتخزينها وتحليلها إلى آخر ما هنالك من علميات تتم عليها.

الفصل السادس

الاستخبارات في أميركا

لا شك في أن الطابع الفردي التحرري للشعب الأميركي قد ساهم في صبغ الإستخبارات الأميركية بصبغة مميزة. فلا غرفة سوداء ولا أجهزة مختصة في المرحلة الأولى لهذه الإستخبارات.

اول بداية لهذه الإستخبارات كانت في آب - اوغسطس من عام ١٧٧٥، عندما تلقى صاحب فرن يدعى غودفري ونوود زيارة فتاة كان قد تعرف عليها في الماضي. طلبت هذه الفتاة من غودفري أن يعرفها على بعض الضباط الإنكليز بغية ايداعهم رسالة كانت في جيبها. لكن صاحب الفرن أقنع الزائرة بتسليمه الرسالة بعد أن تعهد لها بإيصالها إلى حيث تريد. وهكذا كان. لكن غودفري، مدفوعاً بفضوله، فتح الرسالة بشكل دقيق. وكم كانت دهشته عندما رأى فيها رموزاً غريبة من أحرف - يونانية وإشارات غير مفهومة وأرقام. وبعد خطوات عديدة ومتنوعة قام بها لدى الكثير من المراجع الرسمية، تمكن من الوصول إلى جورج واشنطن وسلمه الرسالة.

لم يستطع واشنطن، هو الآخر، فهم شيء من الرسالة، فأمر بجلب الفتاة لاستجوابها. لم تكن المهمة سهلة. فقد أصرت على الإنكار وكررت أنها لا تعلم شيئاً عمن كتب الرسالة أو سلمها إياها. غير أن تكثيف التحقيقات في ما بعد أدى بها إلى الإعتراف. كاتب الرسالة هو عشيقها الدكتور بنجامين تشارش. كان لهذا الاعتراف وقع الصاعقة على جورج واشنطن. إن تشارش هذا كان مديره الخاص لشؤون المستشفيات. طبيب لامع في بوسطن وعضو في مجلس ماساشيوستس وزميل لكل من صموئيل آدمس وجون هانكوك في مجلس المندوبين الجديد. فهل يعقل أن

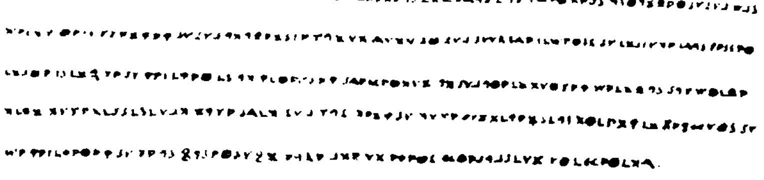
يكون رجل كهذا متورطاً في مخابرة سرية وربما في خيانة وطنية مهما يكن من أمر، فقد أوقف تشارش وبدىء بالتحقيق معه.

اعترف بأنه كاتب الرسالة وأنها موجهة إلى أخيه فليمنغ، على الرغم من أنها كانت معنونة باسم الميجور موريس كان في جيش صاحبة الجلالة في بوسطن. لكنه أصر على رفض الإفصاح عن محتواها.

لجأ واشنطن إلى الأب صمويل وست لفك رموز الرسالة. ومن سخرية القدر أن يكون تشارش زميل دراسة لوست عندما كانا في هارفرد. من جهة ثانية، وبناء لطلبهما، كلف واشنطن جيري وبورتر، وهما ضابطان أميركيان، بفك رموز الرسالة ذاتها.

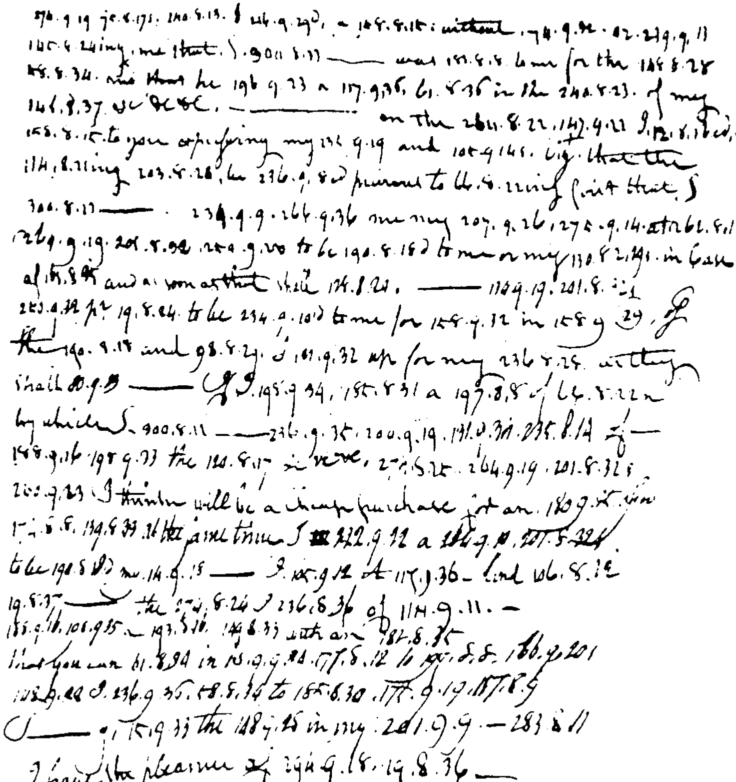
في الثالث من تشرين الأول ـ أوكتوبر، تلقى واشنطن الترجمتين، وكانتا مطابقتين الواحدة على الأخرى. كانت الرسالة تحوي معلومات لقائد القوات البريطانية عن التموين الأميركي بالذخيرة وعن التجنيد وأسعار العملة ومشروع خطة لغزو كندا. كما كانت تحوي معلومات عن عدد المدافع في منطقة نيويورك وقوة حامية فيلادلفيا والجو المعنوي في المجلس القومي. وتنتهي الرسالة بهذه الجملة: «كن شديد الحذر وإلّا فقدت حياتي».

بعد أفتضاح أمر تشرش، طرد من المجلس التشريعي لولاية ماساشيوستس. كما رفض من قبل الكونغرس طلب باسترداده تقدم به الأنكليز. وفي عام ١٧٨٠، حكم عليه بالنفي، وبالأعدام في حال التكرار. غير أن السفينة الصغيرة، التي كانت تنقله، غرقت في ظروف لم يفصح عنها. وهكذا كان تشرش أول ضحية اميركية في قافلة الإستخبارات في الولايات المتحدة.



السطور الأخيرة من رسالة الدكتور تشرش

حادثة أخرى من حوادث الخيانة في تاريخ الإستخبارات الأميركيـة، كان بطلاها الضابط الأميركي في وست بوينت بنديكت أرنولد والضابط البريطاني جون أندريه. كان هدف المراسلات المرمزة التي اكتشفت، مساعدة أرنولد للبريطانيين على تسليمهم وست بوينت. أما النتيجة فكانت إعدام أرنولد شنقاً، في حين تمكن اندريه من انقاذ حياته. لكنه جرد من حقوقه المدنية وعاش بقية عمره منبوذاً.



إحدى رسائل ارنولد إلى اندريه

كان الأميركيون، خلال حرب التحرير في القرن الثامن عشر، على قدر كبير من التخلف بالنسبة للإنكليز، الذين كانوا قد قطعوا شوطاً في مضمار الإستخبارات وفنونها. ومع ذلك، فقد لمع منهم نسبياً صموّيل وودول وروبرت تاونسند وجيمس لوفيل. هذا الأخير ساعد السلطات الوطنية مساعدة جلى في افشال الخطة التي كان اللورد كورنواليس قد وضعها للهجوم على الكارولين. في البداية، لم يستطع أحد في أجهزة الثورة من الأميركيين فك رموز الرسائل التي ضبطوها من بعض العملاء. قد اشتكى من هذا الواقع قائد القطاع الجنوبي، الجنرال غرين، في رسالة إلى الكونغرس. غير أن لوفيل تمكن من كشف محتوى هذه الرسائل. ويعود له الفضل في لفت نظر جورج واشنطن إلى أهمية إنشاء جهاز للإستخبارات، لما في ذلك من فائدة لتقطيع الإتصالات التي يجريها العدو في ما بين وحداته، وكذلك في تطويق خططه». ويروي تاريخ الثورة الأميركية كيف أن فك رموز رسالة، وجهها القائد الأعلى للقوات البريطانية في اميركا إلى أحد أعوانه عن خطة لسحق الثوار الوطنيين، من قبل لوفيل بالتعاون مع بعض الأختصاصيين الفرنسيين، قد أتاح لقائد الأسطول الفرنسي في الشاطىء الأميركي، دي غراس، من أن يكون جاهزاً قبل الوقت المحدد لهجوم الأسطول الإنكليزي، وبالتالي، من أن ينزل بالإنكليز هزيمة نكراء.

وأهم رسالة سرية سطرها تاريخ الإستقلال الأميركي وكان لها في زمنها ضجة كبرى، كانت الرسالة التي أرسلها بير إلى ولكنسون. كان بير يزمع تأسيس امبراطورية في الجنوب في المستعمرات الأسبانية، وقد تحالف في ذلك مع ولكنسون. وضع خطته وأرسل تفاصيلها إلى شريكه. غير أن هذا الشريك كان عميلاً للسلطة الثورية. لذا، كشف الأمر للرئيس جيفرسون، بعد أن شوه مقصد بير، الا وهو ضم الأراضي العائدة لأسبانيا إلى الولايات المتحدة ووضعها بالتالي تحت سيطرة السلطة الشرعية فيها. ألقي القبض على بير وحوكم كخائن. غير أن ولكنسون، خلال اعادة المحاكمة، اعترف بما فعل وبرر ذلك بتخوفه من أن يتورط في خطه غير مضمونة الأهداف. برىء بير. لكن الرأي العام استمر في القاء الظلال على أخلاصه، فكان حكمه أقسى من حكم المحكمة وظل بير، الذي سبق أن كان نائباً للرئيس سنة ١٨٠٠ بعد أن هزم أمام جيفرسون، بقية حياته في الظل يلوك خيبته ويدفع ثمن مغامرته. وعلى ذكر الرئيس جيفرسون، تجدر الإشارة إلى أن هذا الرئيس وضع تصميمًا لاسطوانة تستعمل لفك الرموز، لا يزال الجيش الأميركي

حتى اليوم يستخدمها، كما يستخدمها عدد غير قليل من أجهزة الإستخبارات الأميركية.

بعد القصف التاريخي لفورت سامتر، والشعور بالحاجة إلى تنمية الإستخبارات، لمع اسم أنسون ستاجر، الذي ابتدع مع زملاء له نظاماً ترميزياً جديداً نال الاعجاب وكان مقتصراً على الاستعمال العسكري، وعام ١٨٦٣، أرسل الرئيس إبراهام لنكولن رسالة إلى مسؤول عسكري في إحدى الولايات، يطلب منه اطلاق سراح مراسلين صحفيين كانا قد أوقفا، وذلك باستخدامه نظام ستاجر.

وتدليلاً على شعور المسؤولين بأهمية الإستخبارات، فقد جعل الرئيس لنكولن مقره شبه الدائم، أثناء الأيام العصيبة، مركز شركة اتحاد البرق الغربية، التي كانت تتولى إرسال واستقبال الرسائل البرقية من عادية وسرية. كان يأتي كل يوم إلى هذا المقر القريب من البيت الأبيض. ولم يكن يترك، خلال الحرب الأهلية، أية رسالة فيه الا ويقرأها. وعندما ينتهي من قراءة كل الرسائل، كان يطيب له أن يدردش مع الفنيين الثلاثة في المركز هومر وتنكر وشندلر، الثالوث المقدس، كما كانوا يطلقون على أنفسهم.

في كانون الأول ـ ديسمبر من عام ١٨٦٣، وبينما كان أحد موظفي البريد يفرز الرسائل اليومية الواردة، وقع تحت نظره مغلف عليه عنوان واسم الكسندر كيث، المعروف باتصالاته بالثوار. نقل الموظف الرسالة إلى وزارة الحرب، حيث جرت محاولات حثيثة لفك رموزها، ولكن دون جدوى. أخيراً، كلف الثالوث المقدس بالمهمة فنجحوا فيها. وقد تبين أن الرسالة تحوي معلومات هامة عن سفن بخارية تنقل اسلحة إلى الثوار، مع تفصيلات وافية عن خط إبحار هذه السفن وتواريخ وصولها والأشخاص الموجلين بها وسوى ذلك من المعلومات المتعلقة بالموضوع.

هذه الرسالة استدعت اجتماعاً خاصاً للحكومة وأرسل وزير الحرب إلى نيويورك لإجراء تحقيق بالموضوع. في هذه الأثناء، كانت رسالة سرية أخرى قد ضبطت وفيها معلومات عن مركز لصك العملة مجهز تجهيزاً كافيا يقع في نيويورك. جرت مداهمة المركز بحضور وزير الحرب وصودرت محتوياته. وبذلك حرم الثوار من

عنصر هام بالنسبة إليهم للإستمرار بعملياتهم. أما الثالوث المقدس فقد تلقى كل منهم مكافأة سخية، وكانت عبارة عن ٢٥ دولاراً في الشهر علاوة على رواتبهم.

في ٧ تشرين الأول ـ أوكتوبر ١٨٧٨، طالعت صحيفة نيويورك تريبيون قراءها بخبر اهتزت له الأمة بكاملها: «ضبط البرقيات السرية». هذه البرقيات تتعلق بأشهر حملة انتخابية في تاريخ الولايات المتحدة. وقد لعبت دوراً أساسياً في السياسة الأميركية. كانت نتائج انتخابات سنة ١٨٧٦ الرئاسية مرتكزة، في ترجيح الفائز، على الأصوات، المتنازع حولها، العائدة لولايات فلوريدا ولويزيانا وكارولينا الجنوبية والأوريغون. وبغية حسم الموضوع، ألف الكونغرس لجنة خاصة درست الموضوع وصوت أعضاؤها، كل حسب انتمائه السياسي، فكانت النتيجة أن أضيفت الأصوات الأثنان والعشرون إلى هايس، المرشح الجمهوري، الذي نجح بأغلبية صوت واحد في الاقتراع الأولي.

أمام الضجة والصخب اللذين عما الدورة التشريعية التالية للإنتخابات، شكل الكونغرس لجنة للتحقيق في حقيقة الشائعات ذات المصدر الديموقراطي والدائرة حول شراء الأصوات من قبل الحزب الجمهوري. إثر المباشرة بالتحقيق، تلقت اللجنة ٦٤١ برقية متبادلة بين رجال السياسة وعملائهم في الولايات الأربعة موضوع الجدل مقابل ذلك، وصل إلى جريدة نيويورك تريبيون ٢٧ برقية سرية صادرة عن الحزب الديموقراطي.

قبل بضعة أسابيع، كان مانتن ماربل، أحد المستشارين السياسين المقربين من المرشح الديموقراطي تيلدن، قد كتب رسالة إلى جريدة «صن» في نيويورك يكشف فيها ألاعيب الجمهوريين ضد الحزب الجمهوري في الانتخابات الرئاسية. نتيجة لذلك، ما كان من وايتلوريد، رئيس تحرير التريبيون، الا أن كتب سلسلة من الافتتاحيات التي ضمنها هجوماً عنيفاً على الديموقراطيين. ولم يكتف بهذا الحد، بل سعى، بواسطة محازبين جمهوريين، إلى الحصول على بعض مراسلات الحزب الديموقراطي السرية. بعد تفكيك رموز هذه الرسائل وترجمتها إلى اللغة العادية، تبين أن الديموقراطيين حاولوا، وبواسطة ماربل نفسه، شراء أصوات في الانتخابات. هذا السر الذي كشفته النيويورك تريبيون، كان كافياً لفوز الجمهوريين. وهذا ما حصل. ومعركة انتخابات الرئاسة عام ١٨٧٦ أصبحت أشهر انتخابات في تاريخ

الانتخابات الرئاسية الأميركية الطويلة.

أشهر من عمل في الشيفرة من الأميركيين في المرحلة المتقدمة كان هربرت أوسبورن ياردلي. ولد في ١٣ نيسان - ابريل من عام ١٨٨٩ في ولاية انديانا: في نيسان - ابريل من عام ١٩١٧، أي بعد قليل من دخول اميركا الحرب، وبعد أن اعتلى مناصب رفيعة في أجهزة الإستخبارات، اقترح على وزارة الحربية الأميركية انشاء دائرة للإستخبارات العسكرية، فقبل اقتراحه. وعين ياردلي نفسه رئيساً لهذه الدائرة.

تحت وطأة الظروف وضغط الحاجات المستجدة، توسعت هذه الدائرة توسعاً افقياً كبيراً بالإضافة إلى التوسع العمودي النتائج عن الخبرات التي تكونت لعناصرها بالممارسة المرصوصة والجدية. ويروى أن اكتشاف ورقة في حذاء امرأة مكسيكية عميلة للإستخبارات الألمانية كان في أساس إنشاء قسم الحبر السري في الإستخبارات الأميركية. فقد كانت الورقة رسالة مكتوبة بهذا النوع من الحبر، وهذا الاكتشاف يتطلب حتمًا عدم ترك الأمور تجري بحيث يسبقها الركب. لقد وصل هذا القسم إلى معالجة ألفي رسالة في الأسبوع، كان بعضها مكتوباً على القمصان أو السراويل، والبعض الآخر على الثياب الداخلية، أو الجوارب، بالإضافة إلى ما كتب منها على الورق.

واشهر رسالة اكتشفت كانت تلك التي أدت إلى توقيف الجاسوس الأميركي لوثار ويزكي، الذي كان يعمل لحساب الألمان تحت اسم بابلو فايرسكي، والذي، كذلك، اشتبه به على أنه منفذ انفجار بلاك توم ايلند الشهير في ٣٠ تموز - يوليو سنة ١٩١٦، حيث انفجرت كمية من الديناميت قدر وزنها بألف كلغ وضعت في شاحنات جرى ايقافها على أرصفة مرفأ نيويورك. وقد اتهمت الحكومة الأميركية آنذاك ألمانيا بالحادث.

لم يكن فك رموز رسالة فايرسكي بالأمر السهل. فقد حاول الكثيرون ذلك، إلى أن استطاع مانلي مالم يستطعه الآخرون. وتبين أنها تكشف فايرسكي عميلاً ذا شأن من بين عملاء ألمانيا، وأنه ينتحل اسمًا وشخصية روسيين. حكم عليه بالإعدام. غير أن الرئيس ويلسون خفض الحكم للمؤبد. لكن فايرسكي أخرج من السجن في سنة ١٩٢٣.

في آب ـ أوغسطس سنة ١٩١٨، سافر ياردلي، المسؤول عن الإستخبارات الأميركية، إلى باريس ليقف على حقيقة الأوضاع الخاصة بالعلاقة بين الحلفاء والولايات المتحدة في موضوع التعاون العسكري. وبقي هناك إلى ما بعد إعلان الهدنة ليرأس مكتب الشيفرة الملحق بالوفد الأميركي إلى مؤتمر السلام. وبعد عودته إلى بلاده، تقدم باقتراح متكامل لإنشاء «جهاز دائم للتوثيق والأبحاث الخاصة بالرموز والشيفرة». بعد ثلاثة أيام فقط من تقديم الإقتراح، جرت الموافقة عليه من قبل وزير الخارجية آنذاك، فرنك بولك. بعد ذلك، وفي الأول من تشرين الأول ـ اوكتوبر، استقر هذا الجهاز، الذي أصبح في ما بعد يعرف بالفرقة السوداء الأميركية، في نيويورك، ٣ شارع ٣٨ الشرقي، ثم في بناية من أربعة طوابق ١٤١ شارع ٣٧ الشرقي.

أولى مهمات الجهاز كان التصدي للمراسلات السرية اليابانية، بعد أن تدهورت العلاقات بين البلدين. لم يكن الأمر سهلاً. لكن ياردلي تعهد بأن ينجح أو يستقيل. وقد أعطى لنفسه مهلة سنة واحدة. لم تمض المهلة الا وكان ياردلي وفريقه قد توصلوا إلى كشف أسرار استخبارات اليابان. لقد استطاعت الغرفة السوداء الأميركية في الفترة بين عامي ١٩١٩ و١٩٢٩ أن تفك رموز أكثر من ٤٠٠٠٠ رسالة وبرقية من دول عدة أهمها ألمانيا والأرجنتين والبرازيل وتشيلي والصين وكوستاريكا وكوبا واسبانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى واليابان وليبيريا والمكسيك ونيكاراغوا وباناما والبيرو والسان سلفادور والسان دومنيك والاتحاد السوفياتي، كما وضعت دراسة أولية عن عديد من نظم الإستخبارات بما في ذلك استخبارات دولة الفاتيكان.

لكن الطريقة والسرعة اللتين انتهى بهما هذا الجهاز كانتا موضع استغراب من الجميع. فبعد أن كان ياردلي يلقى تعاوناً وثيقاً من شركة اتحاد البرق الغربية وشركة البرق البريدية، أصبح يلقى منهما الكثير من الصعوبات ويصطدم بالكثير من العقبات. لقد تسلم الرئيس الجديد هربرت هوفر مهام منصبه، فرأى ياردلي أن يكتب إليه مباشرة موضحاً له أهمية الإستخبارات والمنجزات التي قام بها في السابق. وبدلاً من أن يلقى تجاوباً من الادارة الأميركية الجديدة، إذ به يفاجأ، وهو جالس في أحد المقاهي، بأول خطاب يلقيه الرئيس الجديد بالراديو وفيه تلميح لموقفه من الإستخبارات، وهو موقف غير مشجع أساساً.

وعندما تسلم هنري ستيمسون وزارة الخارجية في حكومة هوفر، وبعد أشهر من هذا التسلم، ظن ياردلي أنها كافية ليفهم الوزير الجديد أهمية الإستخبارات، إذ به يستشيط غيظاً وهو يتسلم رسالة سرية هامة فكت رموزها وقدمت إليه، ويتساءل باستغراب: هل عندنا غرفة سوداء؟.

لقد انطلق ستيمسون من مبدأ طالما آمن به وهو أن أميركا بلد حر وأنه لا يجوز أن يكون فيها جهاز للاستخبارات، باعتبار أنه، بنظره، لا يجوز التجسس و «هتك حرمة الآخرين»، حتى ولو كان ذلك لأهداف وطنية عليا. وهكذا منع ستيمسون عن الغرفة السوداء كل عون مالي، ولم يكن من بد إثر هذا الموقف الثابت والحاسم إلا أن تحل الغرفة.

قبل ياردلي بالقرار وهو «مهيض الجناح، وعاد إلى بلدته في ورثنتون. وهناك، عكف على كتابة أفضل ما كتب عن الإستخبارات الأميركية: «الغرفة الأميركية السوداء». نال هذا الكتاب نجاحاً كبيراً وأثار جدلاً في صفوف السياسيين والقادة والمفكرين. ولما كان في الكتاب أمور تمس الكثيرين، فقد هاجمه البعض وأيده البعض الآخر. لكن الضجة الكبرى حصلت في اليابان بصورة خاصة، على الرغم من ترجمة الكتاب إلى لغات أوروبية عدة ونشره في جميع أنحاء أوروبا وسائر القارات. هناك، وإثر كشف الكتاب لكثير من الأسرار التي وضعت الغرفة السوداء يدها عليها خلال ممارستها لمهامها، بدأت الأزمات السياسية تتفجر من كل حدب وصوب.

وعندما أزمع ياردلي على نشر كتابه الثاني «أسرار الديبلوماسية اليابانية»، هب ستانلي هورنبك، خبير الشرق الأقصى في الخارجية الأميركية، وأطلق إنذاراً، مؤرخاً في ١٢ أيلول ـ سبتمبر سنة ١٩٣٢، حذر فيه من انعكاس نشر الكتاب على العلاقات بين الولايات المتحدة واليابان، لاحتوائه على كشف خطير لعدد من البرقيات اليابانية المرسلة خلال مؤتمر عام ١٩٢١ الخاص بنزع السلاح البحري. وقد منع نشر الكتاب فعلاً وأحيل كل من الناشر والوكيل على المحكمة الفدرالية العليا. لكن القضية طمست ولم تصدر المحكمة أي حكم بشأنها.

من جهة أخرى، سدمت الحكومة من الكونغرس بمشروع قانون يحظر على

أي من العاملين في الدولة نشر أي مستند يكون قد اطلع عليه بحكم عمله، وإلا فإنه يعاقب بغرامة مقدارها عشرة آلاف دولار على الأقل أو بالسجن لمدة عشر سنوات على الأكثر أو بالعقوبتين معاً. والواقع أن وزارة الخارجية، عندما تقدمت بمشروع القانون هذا، كانت تستهدف ياردلي بالذات. وقد صوت على القانون بمرحلته النهائية واقترن بتوقيع الرئيس روزفلت في ١٠ حزيران ـ يونيو ١٩٣٣.

غير أن ياردلي لم يكن آبهاً بكل هذه الإجراءات، مع ما رافقها من ضجيج وما أثارت من غبار. كان مأخوذاً باكتشاف حبر سري من نوع جديد. وقد كلفه هذا الإختراع أحد أصابع يده اليمنى. بعدها، حاول ولوج نطاق الأدب، لكنه لم يكن موهوباً في مخيلته، فقد جاءت القصتان، «شمس اليابان الحمراء» و«الكونتيسة الشقراء» دون المستوى المطلوب شكلاً وأساساً. في هذه الأثناء، كان التجسس قد أصبح مادة لمواضيع سينمائية، بما يحويه من صورة لجاسوسة حسناء ورموز سرية وعالم بفك الرموز خارق في مهنته. فأنتجت شركة مترو غولدوين ماير «موعد»، بطولة وليم باول وروزاليندا راسل.

وعام ١٩٣٨، حصلت مفاجأة غير متوقعة. لقد عين ياردلي من قبل شان كاي شيك، رئيس جمهورية الصين الوطنية، ليتولى فك رموز الرسائل العائدة للقوات اليابانيه التي كانت قد عزت الصين. في هذه المرحلة تكشف صاحب أنظمة الشيفرة الشهيرة ومؤسس الغرفة السوداء عن إنتهازية غير متوقعة. وعندما وعى أنه باع نفسه لقاء حفنة من الدولارات، غادر الصين سنة ١٩٤٠ واستقر في كندا حيث أسس مكتباً لفك رموز رسائل عملاء الأعداء. غير أن الكنديين منعوه آسفين من ممارسة أي عمل على الأرض الكندية، وذلك بضغط من قبل وزير الحرب الأميركي، ستيمسون، وكذلك من قبل البريطانيين. بعد ذلك، عاش ياردلي سنواته الأخيرة في الظل والقنوط، إلى أن مات في ٧ آب ـ اوغسطس سنة ١٩٥٨ في الميري لاند. وقد ووري الثرى وسط مراسم عسكرية في المقبرة الوطنية في أرلينغتون، إن كتاب ياردلي، على الرغم مما احتواه من أخطاء وتلفيق، استأثر بلب الناس، ولا يمكن لاحد أن ينكر كم من الهواة قد اجتذب إلى حقل الشيفرة وفك الرموز. ولئن استطاع هؤلاء أن يبتدعوا جديداً في هذا النطاق، فهذا، لا شك، عائد إلى ما غرسه ياردلي في نفوسهم، ربما دون أن يدري، من شغف بهذا الفن.

إذا كان ياردلي أشهر عالم اميركي في الشيفرة، فإن وليم فريدريك فريدمن هو الأعظم. الأول سطحي، يهتم بالمظاهر وبنفسه، والثاني خجول وعميق وذو ضمير حي. الأول يلمع كالأسهم النارية، والثاني يضيء كأشعة الشمس.

ولد فريدمن في الرابع والعشرين من أيلول ـ سبتمبر عام ١٨٩١ في كيشينيف في روسيا. في السنة التالية لولادته، هاجر ابواه الى بتسبرغ. عام ١٩٠٩، أنهى دراسته وبدأ العمل في شركة لبيع الآلات البخارية. وفي نهاية عام ١٩١٠، دخل كلية الزراعة المجانية في ميشيغان ولم يمض وقت طويل حتى اكتشف أنه غير مؤهل للزراعة. لذلك، انتقل إلى جامعة كورنيل ليدرس علم الوراثة. بينما هو يدرس هناك، اذ بأحد كبار تجار النسيج، ويدعى جورج فابيان، يبحث عن متخصص في الوراثة ليحسن محاصيل مزرعته. وقد وقع اختياره على فريدمن وعينه لديه في أول حزيران ـ يونيو عام ١٩١٥.

عكف فريدمن على العمل في مزرعة فابيان. لكنه في الوقت نفسه كان يهتم بالتصوير الفوتوغرافي. وقد قويت هذه الهواية لديه من خلال بحثه في المستندات والوثائق الخاصة بأعمال شيكسبير، ليتبين فيها ـ ما يقال عن بصمات للأديب فرانسيس باكون. وأثناء هذا العمل، تعرف على اليزابيت سميث، التي اصحبت في أيار ـ مايو عام ١٩١٧ زوجته.

بعد فترة، وجد فريدمن نفسه على رأس قسمين، الأول لعلم الوراثة والآخر للشيفرة وفك الرموز. هنا اكتشف ميله نحو طبيعة العمل في القسم الأخير. ومنذ ذلك التاريخ، بدأ العمل بجد مع زوجته في هذا الحقل إلى أن أصبحا الأشهر في تاريخ علم الشيفرة الأميركية.

في هذا الوقت، كانت أميركا قد دخلت الحرب إلى جانب الحلفاء. وأول ما قام به فريدمن وزوجته هو اكتشاف حقيقة مراسلات كانت تجري بين عناصر فريق من الهندوس يعملون في الولايات المتحدة وخارجها على تحرير الهند من الإنكليز. ويروى، في هذا السياق، أن أحد الهندوس أطلق النار على مواطن له شهد ضده في قاعة المحكمة اثناء محاكمة الفريق الذي انكشف أمره، فأراده قتيلاً. لكنه قتل، هو ايضاً، برصاص الشرطة وهم يطوقونه في القاعة.

بعد أن تنقل فريدمن في عدة مناصب، مدنية وعسكرية، في نطاق الإستخبارات، عين رئيساً لدائرة الإشارة في الجيش، وقد ظل يشغل هذا المنصب بتألق وجداره حتى عام ١٩٤٠. في هذا العام، بلغ فريدمن الثامنة والأربعين، كما بلغ قمة مجده. بعد ذلك، أصيب بإنهيار عصبي وأدخل المستشفى. لم يعد يتمكن، بعد هذه الضربة، من متابعة عمله، بإستثناء استشارات كان يكلف بها من وقت لآخر. عام ١٩٥٥، أحيل على التقاعد، لكنه استمر في تقديم استشاراته كلما طلب إليه ذلك. واليوم، يمكن القول ان الإستخبارات الأميركية بأجهزتها المختلفة وفعاليتها العميقة مدينة لهذا الجهد الذي قام به فريدمن وزوجته وسط ظروف صعبة وتجهيزات بدائية، وأنها لم تكن لتصل إلى ما وصلت إليه، لولا ما قام به هذا الثنائي من أعمال وابداعات.

يقال أن تسعين بالمئة من علماء كل الأزمنة يعيشون في هذا الزمن وحده. وما يصح في هذا يصح، وبشكل ربما أكبر، في علماء الإتصالات. فالعالم اليوم بجباريه يعتمد اعتماداً وثيقاً وأساسياً على ما يتلقاه من معلومات في جميع المجالات، وما يصدره من تعليمات. وهذه الشبكات العملاقة من الإتصالات تتيح للعاملين في الترميز وفك الرموز إمكانيات تفوق كل ما كان يمكن أن يحلموا هم أنفسهم به. ولا شك أن الأجواء المتشنجة تدفع هؤلاء إلى مضاعفة جهودهم والتوسع في نشاطاتهم افقياً وعمودياً. وخير شاهد على ذلك ما نراه من حجم لوكالة الأمن القومي الأميركية.

قد تكون معركة بيرل هاربور الشهيرة، التي كبدت الأميركيين خسائر فادحة، في أساس إنشاء الوكالة. فعام ١٩٥٢، أمر الرئيس ترومن بإقامتها. ظل هذا الأمر غير معلن، إلى أن كان عام ١٩٥٧ حيث جاء ذكر الوكالة لأول مرة وبشكل غامض في «دليل التنظيم الحكومي للولايات المتحدة».

اختير للوكالة مقر في فورت ميد بولاية ماريلند، في بناء عملاق ورحب أشبه ما يكون بكاتدرائية. واليوم يعتبر هذا الجهاز أضخم جهاز استخبارات في العالم الغربي. ولوكالة الأمن القومي ميزانية تفوق ضعفي ميزانية السي - أي - إي. أما مهامها، فتنقسم إلى اثنتين: الأولى جمع المعلومات من جميع شبكات الاتصالات في

العالم وتحليلها، والثانية أمنية تقضي بمراجعة مستمرة للوسائل السرية المعتمدة من قبل أجهزة الدولة بكاملها.

الى جانب الوكالة، هناك «المجلس العلمي الاستشاري» وهو مجلس يرتبط بالوكالة ويتألف من شخصيات مرموقة في كل الحقول، لا سيما الرياضيات والالكترونيك، ممن يهتمون بعلم الشيفرة ويأتي هؤلاء بصورة خاصة، من عالم الأعمال والوسط الجامعي. فوق هذا هناك «مؤسسات الدراسات من أجل الدفاع»، التي تأسست عام ١٩٥٦ بالتعاون بين خمس جامعات، والتي تقدم الخدمات في حقل التقييم النظري لمشاريع الدفاع.

سنة ١٩٥٦، بلغت ميزانية وكالة الأمن القومي مليار دولار، أي نسبة اثنين بالمئة من ميزانية الدفاع بكاملها. هذا الرقم وحده يعطي صورة عن اهتمام الدولة بالاستخبارات. والأمر يبدو طبيعياً أمام التحدي الذي أبداه الاتحاد السوفياتي لا سيما خلال سنوات الحرب الباردة.

في عام ١٩٤٦، استطاع عملاء روس الحصول، من أحدى العاملات في الشيفرة، «ايما ويكن»، على ترجمة للرموز التي تستخدمها وزارة الخارجية الكندية، وكذلك على أهم برقيات هذه الوزارة المرمزة. وفي عيد الميلاد عام ١٩٥٢، تورط روي رودس، الموظف في مرآب السفارة الأميركية في موسكو، مع فتاة بصحبة بعض فنيي السيارات الروس، وكان ثملاً. أدعت الفتاة بأنها حامل من روي. ولما هدد المسكين بكشف الأمر أمام زوجته، انصاع للابتزاز وقبل بتسليم الروس بعض أسرار الاستخبارات الأميركية التي سبق له أن مارس العمل فيها.

في نطاق الجهود التي بذلها الاتحاد السوفياتي للحصول على المعلومات عن الغرب، خلال فترة الحرب الباردة، حاولوا التغرير بإحدى سكرتيرات السفارة الفرنسية في أوستراليا، وهي تعمل بقسم الشيفرة في السفارة المذكورة. لكن تقدمهم ظل محدوداً. وفي الثاني من كانون الثاني - يناير ١٩٥٢، جاء في رسالة لإ تدى أجهزة الاستخبارات السوفياتية بعض التعليمات لعميلهم باخموف، وهي حدد له أصول وعناصر مراقبة تلك السكرتيرة ان لجهة كيفية قضاء أوقاتها داخل وخرج مكتبها، أو

لجهة اعطاء صورة عن تفاصيل المكتب من مكان الملفات ونوعها فيه وكذلك المكان الذي تضع فيه مفاتيح الخزائن، وسوى ذلك من المعلومات.

لم يفلح باخموف في مهمته، فاستبدل بفلاديمير بتروف الذي لم يوفق، هو الآخر، ولو نجح، لكان وضع أمام خطر محدق، ليس أمن فرنسا وحدها، بل أمن الغرب بكامله. غير أن الروس أنفسهم، الذين فشلوا في اوستراليا، نجحوا في عملية أخرى، عام ١٩٥٤، في باريس نفسها إذ تمكنوا من سرقة أسرار التعليمات التي كانت تعطيها باريس إلى القادة العسكريين في الهند الصينية أبان معركة «ديان بيان فو» المعروفة.

والبولونيون أيضاً أدلوا بدلوهم، عندما التقط عملاء لهم صورة للسكرتير الثاني في السفارة الأميركية في فرصوفيا، ايروين سكاربك، وهو عار في السرير مع عشيقته البولونية، ولما مارسوا معه عملية ابتزاز ليسلمهم معلومات عن استخبارات بلده، رفض وانتهى الأمر عند هذا الحد.

هذا النوع من «التجسس الميداني» كما يحب البعض أن يسميه، مارسه كل من الشرق والغرب على السواء، فكم من مرة، لجأت الولايات المتحدة اليه، سواء عن طريق شراء بعض العملاء من المعسكرين المعادي والحليف معاً. وكم مرة، لجأت الى بيع الآخرين آلات للشيفرة، تعرف هي أسرارها. وتستخدم هذه المعلومات لحسابها. بغفلة عن الشاري.

خلال زيارته للولايات المتحدة سنة ١٩٥٩، اعترف خروتشوف بممارسة الاتحاد السوفياتي هذا النوع من التجسس، وذلك عندماكشف النقاب عن معرفة بلده بالرسالة التي وجهها ايزنهاور الى نهرو ابان النزاع الذي نشب بين الهند والصين. وكذلك عندما أعلن عن رسالة بعث بها شاه ايران الى الرئيس الأميركي ايزنهاور. وخلص خروتشوف لاقتراح يقضي بحل أجهزة الاستخبارات في كلا البلدين توفيراً للمال والجهد معاً.

ان السرية التي تحاط بها الوكالة الأميركية للأمن القومي، لا مثيل لها لأي من أجهزة الأمن الأميركية. سرية في الخارج وسرية في الداخل وسرية للعاملين فيها بعضهم تجاه البعض الآخر. هذه الاحتياطات المشددة لا وجود لها في الـ «سي. أي. اي»، حيث يمكن لأعضائها الظهور احياناً واعطاء التصريحات للصحف او

اعلان بعض التوضيحات للرأي العام. أما انتقاء عناصر الجهاز البشري في الوكالة، فأمر غاية في الدقة. يمر المرشح بمراحل عدة من الاختبارات، كما أن الاستقصاءات حوله تتناول كل الأمور، حتى ما يتعلق منها بعلاقاته الجنسية ومدى تأثير هذا النوع من العلاقات على شخصيته وسلوكه، وبعد قبوله، يعين لمدة معينة على سبيل الاختبار، حتى اذا امضى بنجاح هذه الفترة، عين بشكل نهائي. لكن هذا لا يمنع من وضعه في الاختبار كل أربع سنوات وبتطبيق جهاز كشف الكذب عليه.

جميع هذه الاحتياطات لم تمنع البعض من الوقوع في التجربة، وبالتالي من الحاق أفدح الأضرار بأمن أميركا بصورة خاصة والغرب بصورة أعم وأشمل. وقصة الجاسوسين الأميركيين العاملين لحساب الاتحاد السوفياتي عام ١٩٦٠، مارتن وميتشل، أشهر من أن تنسى. لقد أفرغا ما في جعبتيهما، بكرم لا مثيل له، في دهاليز الكرملين. والأنكى من كل ذلك، هو أنهما عقدا مؤتمراً صحفياً شهرا فيه ببلدهما، كما لم يفعل جاسوس خائن آخر قبلهما.

سر عمالة هذين الرجلين لا يزال لغزاً من الألغاز. لقد عينا في فترات متفاوتة في الوكالة، بعد أن مرا بالتجارب والمراحل الضرورية لهذا التعيين، وأثبتا جدارتهما علماً وخلقاً. كان ذلك خلال عام ١٩٥٧. وفي حزيران - يونيو من عام ١٩٦٠، طلبا معاً أجازة سنوية لمدة أسبوعين، وسمح لهما، بناء لطلبهما، بقضائها غرب البلاد؛ حيث أهل كل منهما. بدلاً من الذهاب حيث طلبا، توجها جواً الى المكسيك. وفي الأول من تموز - يوليو، توجها الى هافانا، ويقدر أنهما ركبا من هناك سفينة سوفياتية أقلتهما الى الاتحاد السوفياتي. بعد انتهاء اجازتيهما، حاول رؤساؤهما السؤال عنهما الأهل والأصدقاء، كما كلفوا الأجهزة الأمنية المختصة بذلك، ولكن دون جدوى.

وأمام دهشة وألم الجميع، ظهرا في موسكو على مسرح بيت الصحفيين، المضاء بشكل مثير، وأعلنا، دونما تلعثم أو ارتباك، أنهما تنازلا عن جنسيتهما الأميركية ليصبحا مواطنين سوفياتيين. كما ذكر أن قرارهما هذا، اتخذاه بعد أن شاهدا من خلال عملهما كيف أن الولايات المتحدة تخرق فضاء الدول الأخرى وتكذب على الرأي العام فيها، وكذلك بعد أن رأيا كيف أن الولايات المتحدة تتجسس حتى على حلفائها، وتستخدم عملاء لها من رعايا دول هؤلاء الحلفاء. لم يستطع أحد تفسير تصرف هذين الرجلين تفسيراً مقنعاً. قيل أنهما مصابان بالشذوذ.

لكن، هل كانا مضطرين للذهاب بعيداً حتى موسكو لممارسة انحرافهما؟.

حادثة أخرى، في ٢٣ تموز - يوليو سنة ١٩٦٣، انتحر السرجنت جاك دنلاب، بعد أن فهم أن عملية تسليمه مستندات سرية مهمة الى عملاء سوفيات أوشكت على الانكشاف. غريب ايضاً أمر هذا السرجنت. كان مثالاً في الجدية والسلوك القويم. غير أن الشبهات بدأت تحوم حوله، ووضع تحت المراقبة، عندما ظهرت على حياته مظاهر البذخ: أنفق ستين ألف دولاراً على شراء يخت وسيارة جاكوار وسيارتين كاديلاك، كذلك على شراء الحلى والفراء لعشيقته، وعلى أسفار كان يقوم بها على أعلى المستويات من التبذير. كان يختلق القصص والروايات لتبرير نمط حياته الجديد أمام معارفه وأصدقائه. فتارة كان يقول أنه باع أراضي يملكها أرثاً عن والده، وطوراً كان يدعي أن مادة تدخل في صناعة مواد التجميل قد اكتشفت في أرض يملكها. لم يعرف أحد ما هي المعلومات التي حررها للسوفيات طوال فترة امتدت سنوات. لكن يعتقد أن هذه المعلومات تتعلق بصورة خاصة، بالقوة العسكرية لحلف شمال الأطلسي. والغريب في الأمر أن دنلاب كان يحاط بالاهتمام من قبل رؤسائه على الرغم من المظاهر الملفتة للنظر في حياته. وعندما بدأت التحقيقات تتناوله، تبين أنها بطيئة وسطحية. وكان قد مضى شهر على انتحاره، عندما اكتشفت زوجته في بعض جيوب ملابسه أوراقاً فهم، في ما بعد، أنها سرية وأنه كان ينوي تسليمها للسوفيات.

عام ١٩٦٤ خول رئيس الوكالة صلاحية صرف أي عامل فيها لمجرد أنه ارتأى عدم صلاحه لسبب أو لآخر. هذه الصلاحية أقرت في مجلسي النواب والشيوخ بأغلبية ساحقة على الرغم من معارضة البعض. كان المعارضون يدافعون عن موقفهم قائلين أنه لا يجوز تجريد أي مواطن، مهما كان موقعه أو التهمة الموجهة إليه، من حق الدفاع عن نفسه. لكن التخوف من الوقوع في المحظور الذي وقع فيه أناس ضعفت نفوسهم فباعوها للشيطان، جعل المشترعين يضحون بمبادىء حقوق الإنسان ويخرجون إلى النور تشريعاً من هذا النوع.

يوجد، في نطاق الوكالة جهاز واحد للإدارة وثلاثة أقسام فاعلة هي: مكتب الأبحاث والتنمية ويحوي حوالي ألفين من الموظفين، ومكتب الأمن • الاتصالات،

ويحوي حوالي الفاً وخمسمائة من الموظفين، ومكتب الانتاج، ويحوي أكثر من سبعة آلاف من الموظفين. مكتب الأبحاث والتنمية هو رأس الحربة بالنسبة للبحث عن فنون وأنظمة جديدة للاستخبارات، وعلى هذا، فهو القسم الأهم في جملة أقسام الوكالة وتشعباتها.

اثر أزمة الصواريخ الروسية في كوبا عام ١٩٦٢، تبين أن وسائل الاتصالات الأميركية متخلفة. فقد ظلت الرسائل المتبادلة بين واشنطن وموسكو تنتقل من محطة ترانزيت الى أخرى على طول الطريق، لمدة ساعات ذهاباً وأخرى اياباً. وهذا ما لا يمكن التسامح به، في أزمة خطيرة كتلك. لذا، أمر الرئيس كينيدي بانشاء ما سمي بـ «نظام الاتصالات الوطني»، الذي جرى، من خلاله، تحديث كامل لجميع التجهيزات والمعدات في وكالة الأمن القومي.

نتيجة أخرى من نتائج أزمة الصواريخ في خليج الخنازير كانت اقامة خط اتصال مباشر بين واشنطن وموسكو: الخط الأحمر، وهو عبارة عن جهاز للاتصال البرقي بواسطة طابعة. وقد بدأ هذا الخط بالعمل في ٣٠ آب أوغسطس سنة ١٩٦٣.

أما اليوم، فتعتبر الأجهزة الالكترونية للاتصال والاستقبال خير ما توصل اليه العلم في خدمة الاستخبارات. وتملك الولايات المتحدة أكثر من ألفي نقطة التقاط منتشرة في أنحاء الكرة الأرضية بكاملها. وواحدة من تلك النقاط كانت السفينة بوابلو التي استولت عليها البحرية الكورية - الشمالية عام ١٩٦٨. ولم تكن طائرة الـ «يـو»٢، التي اسقطها الروس فوق أراضيهم في سنة ١٩٦٠، سوى واحدة من نقاط التجسس الأميركية.

والأقمار الصناعية هي الوسائل الأكثر تطوراً للتجسس والاتصالات. وهذه كنقاط الالتقاط، مشتركة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة على السواء. غير أن جميع هذه الاكتشافات مع دقتها، لم تستطع الحلول محل الانسان، الذي يبقى العنصر الأساسي في حقل الاتصالات والشيفرة.

والولايات المتحدة تملك اليوم أكبر ترسانة من أجهزة الاتصال والتصدي لاتصالات الآخرين والتقاطها وترجمتها. يليها الاتحاد السوفياتي فبريطانيا ففرنسا.

بعد حملة السويس بقليل، أكد جورج ويغ، النائب العمالي، للصحفيين أن

الولايات المتحدة قد التقطت الرسائل السرية الانكليزية والفرنسية والاسرائيلية، وأنها بالتالي، كانت على علم بالهجوم المحتمل على مصر. من جهته، كتب ألن رالس، مدير الـ «سي. أي. اي» مؤكداً ذلك. لماذا اذاً لم تتحرك أميركا لمنع الغزوة؟ يقول ويغ: «لا اعتقد أن حكومة بريطانيا جنت لدرجة تجعلها تندفع في مغامرة مقدر لها الفشل». لقد صرح وزير خارجية أميركا آنذاك، جون فوستر دالس، أنه لم يكن بتاتاً على علم مسبق بالحملة. لكن أخاه ألن ناقضه بما قاله أعلاه. قيل أن حملة السويس كانت علامة سيئة للاستخبارات الأميركية. غير أن الحقيقة، كما اتضحت في ما بعد، هي أن اللوم لا يقع على الاستخبارات، بل على السلطة السياسية التي تلقت المعلومات ولم تستخدمها.

لا تخلو بلدان أخرى، أقل أهمية من الولايات المتحدة من أجهزة للاستخبارات خاصة بها، في بريطانيا وألمانيا الغربية وفرنسا أجهزة استخبارات على قدر جيد من التطور. هناك أيضاً بالاضافة الى اليابان، بعض الدول في أميركا اللاتينية وفي العالم العربي.

لكن حقيقة الأمر هي ان وكالة الأمن القومي الأميركية لا مثيل لها لناحية الحجم والامكانيات في العالم أجمع. صحيح أن العلم يمكن أن يكون متوافراً لدى الجميع، لكن الامكانيات المادية، عند توافرها، هي التي تجعل هذا العلم فاعلاً ومنتجاً في آن معاً. وهذان العنصران توافرا للولايات المتحدة الأميركية، مما جعلها تتصدر العالم مع العملاق الآخر، الذي سيكون الفصل التالي خاصاً به.

الفصل السابع

الاستخبارات الروسية

على الرغم من أن الكتابة السرية ظهرت في روسيا في مخطوطات القرنين الثاني عشر والثالث عشر على شكل استبدالات شبيهة بتلك التي كانت تستعمل في فرنسا وألمانيا آنذاك، فان المراسلات السرية السياسية بمعناها المألوف لم تدخل ذلك البلد الا مع الحركة الاصلاحية التي قام بها بطرس الأكبر، والتي كان يهدف من ورائها ادخال النمط الغربي في الحياة الروسية.

حتى عام ١٧٢٨، كانت المراسلات المرمزة، التي كان يستعملها السفراء الروس، بدائية، بحيث لا تحتاج الى كبير عناء لفكها. وعندما اعتلت اليزابيت، ابنة بطرس الأكبر، العرش، قفزت هذه البدائية قفزة جبارة أصبحت معها تضاهي ما لدى أكثر الدول تقدماً في هذا المضمار. في هذه المرحلة، أصبحت روسيا تملك شيفرة متطورة ومعقدة من ثلاثة آلاف وخمسمائة مجموعة باللغة الفرنسية، لغة الطبقة الراقية وكذلك لغة المراسلات السرية آنذاك. بعد ذلك، وفي الفترة ما بين سنة ١٧٥٥ و ١٧٦١ أضيفت شيفرتان آخريان، الأولى من تسعمائة مجموعة، والثانية من ألف.

من بين المستحدثات التي أدخلت من الغرب على روسيا، الغرف السوداء. كان مركزها مع البريد. وكانت تستخدم معظم الوسائل التقليدية من فتح الرسالة الى تزوير الأختام الى فك الرموز الى الترجمة، أما العاملون، فكان معظمهم من الالمان.

ويروى كيف أن سفير فرنسا في عهد اليزابيت كان يستخف بالاستخبارات الروسية، معتبراً أن الروس لم يصلوا الى المستوى الذي يمكنهم من فك رموز

رسائله. لذلك فقد كان يرسل الى باريس، مرتاحاً، معلومات عن الامبراطورة لناحية سلوكها اللعوب وحياتها الخاصة المليئة بالاستهتار. لكن الموظفين الألمان في الغرفة الروسية السوداء كانوا له بالمرصاد. وذات يوم، وكانت اليزابيت قد اطلعت على ما يكتب عنها هذا السفير الى حكومته، ما كان من الخارجية الروسية ألا أن أرسلت اليه كتاباً تأمره فيه بمغادرة الأراضي الروسية خلال أربع وعشرين ساعة. وكانت تلك المهلة كافية لأن يحزم صاحبنا حقائبه ويرحل.

ولا غرابة اذا قيل أن الاستخبارات الروسية لعبت دوراً بارزاً في هزيمة نابوليون في ذلك الشتاء الروسي القاسي من عام ١٨١٢. بعد سنوات من الحملة، وأثناء مأدبة أقامها القيصر اسكندر الأول لكبار ضباط الجيش الفرنسي، كشف القيصر السر وهو يتحدث عن بعض ذكرياته عن الحملة الفرنسية الفاشلة. وعندما رد عليه أحد الحاضرين قائلاً أن كشف الرسائل السرية الفرنسية آنذاك قد يكون بفضل جنرال فرنسي خان بلده وانتقل إلى المعسكر العدو، انتفض القيصر وأقسم بشرفه ان الحقيقة هي أن الفضل كل الفضل يعود الى رجاله في الاستخبارات الروسية. وهكذا أعطيت هذه الاستخبارات شهادة استحقتها بجدارة.

غير أن ما حصل في ما بعد، خلال القرن التاسع عشر، لا سيما النصف الثاني منه، هو أن هذا الجهاز استخدم كفاءته لقمع الحركات السرية الداخلية، والتي انتشرت في صفوف العمال والفلاحين معارضة الحكم والنظام. فقد زرع البوليس السري الروسي، المعروف بالأوكرانا، غرفاً سوداء في كل مكان من البلاد، في موسكو وفرصوفيا كما في أوديسا وكييف، وفي فرخوف وريغا كما في تومسك وتيفليس. كانت رسائل الثوار تفتح بكاملها. وكانت طرق الفتح مختلفة ومتنوعة، لكنها كانت جميعها متطورة ومتقنة بحيث لم تكن تترك أي أثر.

أشتهر من محللي الرموز في ذلك الحين زيبين، الذي كثيراً ما كان زافارين، مدير الأوكرانا، يلجأ إليه. عام ١٩١١، التقطت رسالة لم يستطع أحد من العاملين في أجهزة الاستخبارات السرية فك رموزها. استدعي زيبين. ظل يعمل طوال الصباح دون جدوى. وبعد الظهر، استمر في العمل دون انقطاع. وفي المساء، اضطر زافارين الى تكرار دعوته للعشاء مرتين قبل أن يسمع ضيفه ويجيب لقد استحوذت الرسالة على كل انتباه لما حوله. وعلى طاولة العشاء كان زيبين غارقاً في التفكير ويأكل كالآلة. كان بين لقمة وأخرى يمسك القلم ويكتب على الطاولة

وأحياناً، ودونما انتباه منه، على سوار قميصه أو كف يده. وفجأة، شده الحاضرون عندما رأوه يقف منتصباً ويصرخ بالروسية: من تأنّ وصل بعيداً. كانت هذه الجملة، التي اكتشفها زيبين بفضل تكرار أحرفها في الرسالة، هي المفتاح الذي بنيت الرسالة عليه. بعدها، عاد زيبين الى صحنه يلتهم محتواه بنهم.

أزدهرت الاستخبارات بفنونها المتنوعة والمختلفة في سجون روسيا، بين المساجين السياسيين بصورة خاصة. كان كل شيء في السجن رمزاً: الثقوب، عدد القضبان الحديدية في أبواب الزنزانات، عدد الضربات على الحيطان المشتركة. وكم ساهمت الرسائل السرية هذه بهرب مسجون أو بعصيان من مساجين. والأغرب من ذلك أن الاستخبارات الروسية نفسها اقتبست من السجون أكثر من وسيلة وتبنت أكثر من نظام.

عام ١٩١٤، جرت معركة تاننبرغ بين الروس والألمان. كانت أكبر معركة شهدتها الحرب العالمية الأولى. فيها سحق الجيش الألماني الجيش الروسي مكبداً اياه ثلاثين الفاً من الجنود بالاضافة الى مئة الف من الأسرى. لم تكن تلك الهزيمة، التي لم تسطر كتب الحروب الحديثة مثيلاً لها، بسبب نقص في توازن القوى أو ضعف في نوعية الجيش الروسي، انما كانت، وهذه هي الحقيقة بعينها، بسبب الضعف الرهيب في الاستخبارات العسكرية الروسية في هذه المعركة. فالتجهيزات كانت ضعيفة والرموز مكشوفة. حتى أن القيادة توصلت لأن تتصل بمختلف القطعات بواسطة الراديو وباللغة العادية. أمر يدعو الى العجب. لكن هذا ما حصل بالفعل. وهذا ما قدم للجيش الألماني هدية ثمينة ومجانية على طبق من فضة. وفي تحليل للبعض، أن هذه الهزيمة عجلت في نمو بذور النقمة داخل روسيا، وبالتالي، في التعجيل بثورة اوكتوبر في ما بعد.

تلت هذه المعركة معارك أخرى كانت نتائجها دائماً تتوقف على ما تحققه الاستخبارات من تقدم في التمويه. ولما كانت استخبارات القيصر دون مستوى أعدائه، لا سيما الألمان منهم، فقد ظلت جيوشه تتخبط. تارة تتقدم اثر استعمالها شيفرة جديدة متطورة، وطوراً تندحر بعد أن تكتشف أسرار تلك الشيفرة.

غير أن الروس كانوا يعوضون بعض خساراتهم بالمد غير المنقطع من الرجال الذين كان يدفع بهم الى ساحات القتال. ويجب الا نغفل النجاحات التي حققوها في عدم السماح للجيوش الألمانية بنقل المعارك الى أراضيهم.

ظل الأمر كذلك الى أن خلع القيصر في آذار - مارس من عام ١٩١٧، وقام حكم البلاشفة أثر ثورة اوكتوبر الشهيرة. عندها انسحبت روسيا من الحرب فطويت صفحة مضطربة من تاريخ هذا البلد. ولا نكون بعيدين عن الحقيقة اذا قلنا أن الهزائم المتلاحقة، التي نزلت بالقوات القيصرية، كانت بالاضافة طبعاً الى عناصر عديدة أخرى، في أساس التعجيل بإنهاء حكم القياصرة، وأن ضعف استخبارات هؤلاء القياصرة كان في أساس تلك الهزائم. وتعتبر أقامة النظام الشيوعي في تلك البلاد المترامية حدثاً من أهم الأحداث في التاريخ المعاصر.

اشترك الاتحاد السوفياتي بدعم الجمهوريين في الحرب الأهلية الأسبانية. وقد كانت تلك الحرب مجالاً له ولغيره من الدول لأختبار الكثير من الأسلحة والخطط. من هذه الأسلحة الاستخبارات بفنونها المختلفة. وقد كانت هذه الاختبارات مقدمة أفادت كثيراً في الحرب العالمية الثانية في ما بعد.

وأعار الاتحاد السوفياتي اهتماماً مرصوصاً لتحسين أساليب استخباراته لتصبح في أقصى درجات الفعالية. وقد ركز، الى جانب أنظمة الشيفرة المتطورة وطرق فكها، على «الاستخبارات الميدانية» أو التطبيقية بتعبير آخر. وهكذا زرع عملاءه من سوفيات ومحليين في مختلف انحاء العالم. هذه الوسيلة يمكن أن تكون فعالة، على الرغم من نفقاتها الباهظة. لكنها تفقد فعاليتها فور اكتشافها.

واهتمام الاتحاد السوفياتي بأنظمة استخبارات الآخرين يتولاه جهازان: البوليس السري والاستخبارات العسكرية. وللبوليس السري تاريخ مرتبك، بدليل التغيرات المتعددة التي طرأت على تسميته وعددها لا يقل عن الستة. وبعد ستالين، قسم هذا الجهاز الى وكالتين: الـ K. G. B. أو لجنة أمن الدولة، وتهتم بالتجسس والتجسس المضاد، والـ M. V. D أو وزارة الشؤون الداخلية، وتعالج الأمور العادية الخاصة بالنظام داخل البلاد. أما الاستخبارات العسكرية فقد كانت جزءاً من الجيش الأحمر. وتسميتها الحالية هي الـ G. R. U. أو الادارة المركزية للاستخبارات.

كان البوليس السري قبل ستالين يغذي الوكالة الرئيسية للاستخبارات، وهي جهاز شبه مستقل يهتم بصورة خاصة بفك رموز رسائل الدول الأجنبية. وقسم الشيفرة كان يقسم الى فروع عدة: حرس الحدود، القوات الخاصة، إدارة السجون، العمالة السرية في الخارج، الاقامة الشرعية في الخارج.

مرت الوكالة بفترة ازدهار حقيقي بين العامين ١٩٢٩ و ١٩٣٠، كانت تقوم بعمليات تجميع اسبوعي للبرقيات الأجنبية وترسل نتائجها الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. ومنذ عام ١٩٣٨، ازداد حجم العمل فأصبح هذا التجميع يتم يومياً.

وأبان الحرب العالمية الثانية، توصلت الاستخبارات السوفياتية الى درجة عليا من التطور والتعقيد. لكن هذا لم يمنع الفنلنديين من احراز نصر كاسح على السوفيات في معركة سوموساطي، في شتاء عام ١٩٤٠، حيث بلغت درجة الحرارة ٥٦ درجة مئوية تحت الصفر. ويعود الفضل في هذا النصر، بالاضافة لعنصر المقاومة العنيفة من قبل الفنلنديين، الى كشف الرسائل السرية السوفياتية من قبل السويديين وتسريبها الى فنلندا. واحدى هذه الرسائل، وكانت استغاثة طلب فيها قائد سوفياتي مواد غذائية لأنه وجنوده «أكلوا آخر حصان عندهم»، وصلت الى أيدي الفنلنديين، وفيها أن الفرقة السوفياتية ستضيء ناراً على شكل مثلث لارشاد الطائرات على المكان الذي يقتضي عليها القاء المواد الغذائية فيه. فما كان من الفنلنديين الا أن اضاؤا هم هذه النار، والطائرات في طريقها الى الفرقة المحاصرة، وتلقوا المآكل وسط صخبهم وقهقهاتهم. لكن فنلندا، على الرغم من كل هذا، لم تستطع وهي البلد الصغير، أن تستمر في مقاومة الجار الضخم. وهكذا، اضطرت الى الاستسلام وتوقيع معاهدة سلام معه. وبعد سنة عندما بدأت المعارك بين الألمان والروس، دخلت فنلندا الحرب الى جانب الرايخ وكانت فرصة لها لتبادل المعلومات عن الرسائل السرية بينها وبين حليفتها ألمانيا.

على صعيد تصدي الألمان للاتصالات السوفياتية ومحاولة فك رموزها، يقتضي التفريق بين أمرين اثنين: الأول يختص بالإتصالات الستراتيجية. وهنا فشل الألمان فشلاً ذريعاً، إذ لم يستطيعوا فك أي من الشيفرات المستعملة من الروس، وخاصة الشيفرة التي كانت تعتمدها القيادة العليا للجيش الأحمر. والثاني يختص بالاتصالات التكتيكية هنا كان صيد الألمان ثميناً. فقد تمكنوا من التقاط معلومات عن تحركات وحجام الجيوش العدوة غاية في الأهمية. وفي عام ١٩٤١. عندما بدأت المعركة، اسر الألمان أحد الطيارين الروس. وقد سلم هذا الطيار الى العدو أسراراً مكنته من تدمير مئات الطيارات الجاثمة على الأرض وعدداً كبيراً من الطائرات المشاركة في معركة مينسك.

كل هذا، بالاضافة الى عناصر أخرى، أمنت للطيران الألماني تفوقاً مكن الألمان من التوغل في عمق الأراضي السوفياتية خلال العامين ١٩٤١و ١٩٤٢. لكن ستالينغراد صمدت. كانت الهجمة الألمانية شرسة. في البداية، تمكنوا من تحقيق انتصارات باهرة. وقد مرت فترة في بداية شتاء ١٩٤٣ كان فيها السوفيات على وشك التضعضع غير أن الموقف ما لبث أن تبدل. انتقل الجيش الأحمر من الدفاع المرتبك الى الهجوم المركز. وفي الميلاد، اضطر الألمان الى الانسحاب من أوكرانيا. وبعد ذلك دفعوا الى الوراء مسافة لا تقل عن ألف كيلومتر من آخر نقطة بلغوها في الأراضي السوفياتية.

وقد كتب مالنتين في ذلك يقول: «كم تبدلت الصورة بين جيش القيصر في الحرب العالمية الأولى والجيش الأحمر في الثانية». وكم تبدل اهتمام السوفيات بالاستخبارات. فبعد أن كانوا يعتمدون بصورة خاصة على كثافة القوات التي يدفعون بها الى المعارك، أصبح لديهم، منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية، استخبارات فعالة نوه بقدرتها ومستواها العدو في كثير من المناسبات. وما يقال في الاستخبارات العسكرية يقال كذلك في الاستخبارات الديبلوماسية. لقد ظلت انظمة الشيفرة السوفياتية لغزاً ليس فقط على الأعداء، بل حتى أيضاً على الحلفاء.

خلال الحرب العالمية الثانية، زرع السوفييت أعداداً هائلة من الجواسيس والعملاء في معظم انحاء العالم. كان هؤلاء يشكلون فرقاً تعمل باتقان وتوصل أهم المعلومات الى الكرملين. والجدير بالذكر، أن نظم العمل والشيفرات التي كانت تستعمل من قبلهم دللت على أنها غاية في التماسك والسرية والتعقيد، بحيث صعب كشفها على أبرع العاملين في هذا الحقل في سائر أنحاء المعسكرات المضادة. من بين الجواسيس الذين كانوا يعملون لحساب الاتحاد السوفياتي، نذكر الدكتور ريشار سورج، أحد المراسلين الصحفيين الألمان في اليابان.

كان سورج صديقاً حميماً للسفير الألماني في طوكيو أوجين أوت، وكان الاثنان لا ينفكان يجتمعان معاً ويتحدثان في شؤون الساعة وبكثير من التعمق الكاشف. من خلال هذه اللقاءات ولقاءات أخرى، ومن خلال ما استقاه من عمله كصحفي، تمكن سورج من تجميع معلومات على قدر كبير من الأهمية ومن تحريرها طازجة الى الاستخبارات السوفياتية. وعلى الرغم من كل الحذر، غاب عن ذهن المسؤولين

الألمان أن جد سورج كان في وقت من الأوقات، أمين السر الخاص لكارل ماركس، وانه كان شيوعياً متحمساً.

قاد سورج في الفترة ما بين ١٩٢٩ و ١٩٣١ شبكة تجسس سوفياتية من شنغهاي، وبسبب معرفته العميقة بالشرق الأقصى، فقد أرسله السوفيات الى اليابان، الخصم الوحيد لهم في غرب الباسيفيك، لينقل اليهم حقيقة نوايا هذا البلد تجاههم. وقد عقد لهذه الغاية صداقات مع كبار رجالات الدولة وشكل من بينهم عملاء له أشهر هؤلاء العملاء هو تسومي أوزاكي، الذي اعتلى منصب رئاسة الوزراء ثلاث مرات في اليابان.

لقد كان سورج ينقل معلوماته على شريط أو بالبريد، أو، بصورة خاصة على الراديو الى محطة سوفياتية قريبة. وكان يُعاونه في عمله ألماني آخر هو ماكس كلوسن، الذي عمل في استخبارات الجيش الالماني خلال الحرب العالمية الأولى. وعندما أصيب سورج، عام ١٩٣٨، بحادث دراجة نارية، حل محله كلوسن بعد موافقة خاصة من موسكو.

اكتشف سورج ان ألمانيا تنوي اجتياح الاتحاد السوفياتي. غير أن ستالين لم يأبه، كعادته بمثل هذه المعلومات، وعندما نشبت الحرب، كان هم سورج وهم السوفيات كذلك، هو معرفة ما اذا كانت اليابان ستستفيد من صعوبات الاتحاد السوفياتي وتهاجمه، أم أنها ستفضل الاستيلاء على الكاوتشوك والنفط في ماليزيا واندونيسيا. بعد كثير من التحريات قام بها سورج والفرق العاملة تحت أمرته، استقرت القناعة على أن اليابان لن تهاجم، على الأقل قبل الربيع التالي. ركن السوفيات الى هذا وقاموا بسحب جزء هام من عديدهم وعدتهم من الشرق الأقصى والقوا بهم في الجبهة الألمانية، مما ساعد على ايقاف تقدم الألمان وبالتالي، على تجنب سقوط موسكو.

لكن قدر سورج كان محتوماً، ذات يوم، اعتقلت السلطات اليابانية شاباً يابانياً بتهمة انتمائه لخلية شيوعية. وبغية كسب عطف البوليس، كشف عن نشاطات مشبوهة تقوم بها معه امرأة في الخلية. هذه المرأة جعلت البوليس يمسك بطرف الخيط الذي يقع سورج في جزء منه. وفي ١٥ تشرين الأول - أكتوبر عام ١٩٤١، اعتقل كل من سوزاكي وسورج. وفي ١٨ منه اعتقل كلوسن. هذا

الأخير حكم بالسجن مدى الحياة. أما سوزاكي وسورج. فقد أعدما شنقاً في ٧ تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٩٤٤، بعد حياة ملآها بنشاط تجسسي غزير العطاء.

من أشهر شبكات التجسس السوفياتية، شبكة «الأوركسترا الحمراء» التي كانت تغطي كل ألمانيا وأوروبا المحتلة مع تغلغل عميق توصل الى أعلى المستويات. كان أبطال الفرقة هانز شولز - بويسن، أحد ضباط الجيش الألماني، وأرفيد هارناك، وليوبولد تريبير. ظلت الفرقة تعمل ببطء حتى الهجوم الألماني في ٢٢ حزيران - يونيو ١٩٤١. منذ ذلك التاريخ، جاءتها الأوامر من موسكو بالتحرك بالسرعة القصوى. تحركت فإذا بالأجواء تمتلىء بإشارات المورس، وإذا بالمحللين من الألمان، وسواهم يجهدون دون جدوى لفك الرموز. بقي تعيين أمكنة البث للانقضاض عليها. لكن ذلك لم يتم عملياً الا في كانون الأول - ديسمبر، بسبب النقص في أجهزة الرصد لدى الألمان. لقد تنبهت الاستخبارات، آنذاك، أن اشارات تنطلق من فيلا تقع في ١٠١ شارع الأتربيات في بروكسل. حاصرت المكان وداهمته، فإذا هناك جهاز مرسل يعمل عليه ميخائيل ماكاروف، الملازم الأول في سلاح الجو السوفياتي وقريب وزير الخارجية السوفياتي في ذلك الحين مولوتوف. والطريف أن تريبير حضر الى الفيلا بعد لحظات من مداهمتها مع صيد ثمين في جعبته. لكنه كان حاضر البديهة. فقد انتحل شخصية بائع أرانب واستطاع تضليل المداهمين.

وجد الألمان في مدخنة الفيلا قصاصة من الورق نصف محروقة عليها بعض الرموز. ولما استمر ماكاروف في رفضه الإفصاح عن أية معلومات. فقد انكبت أجهزة الألمان على تحليل ما كتب في هذه القصاصة. وبعد أسابيع، وجدوا أن فيها أحد أنظمة الشيفرة المعتمدة من الاستخبارات السوفياتية بعد استجواب صاحبة الفيلا، وهي امرأة ساذجة، ذكرت أن مستأجريها قرأوا عدداً من الكتب. من هذه الكتب «معجزة الأستاذ فولمار» ويبحث في العلوم الوهمية وخصب الخيال. هذا الكتاب ساعد الأجهزة الألمانية على اكتشاف الكثير من رموز الأوركسترا الحمراء.

بعد أن تمكن تريبير من التملص من المأزق الذي وقع فيه على مدخل الفيلا، سارع الى نقل خبر المداهمة الى السوفيات. فما كان من هؤلاء إلا أن غيروا مفاتيح الشيفرة المكتشفة. وعاد العزف من جديد على أشده. وكم كان يطيب لموسكو سماع الألحان العذبة عن تحركات الجيوش الألمانية وخططها والروح المعنوية فيها

وصعوباتها التموينية وسوى ذلك مما لم يكن ليتوافر لولا حذق ومهارة أعضاء الأوركسترا المندسين في كل وزارة وإدارة ابتداءاً من أجهزة الاستخبارات وانتهاء بأصغر بلدية، مروراً بوزارة الخارجية وإدارة الدعاية والمعنويات. أما الألمان، فقد كانوا يستمعون إلى أنغام الأوركسترا دون أن يتمكنوا من الوقوف على حقيقتها. لكن أجهزة رصد أماكن البث ظلت تعمل دون كلل. وفي ٣٠ حزيران - يونيو من عام ١٩٤٢، ضبط فريق بلجيكي آخر في بروكسل، كان بإدارة جوهان وتزل الملقب بالأستاذ لكفاءته العالية بالراديو. وضع الغستابو نفسه يده على القضية. واستطاع بفضل وسائله «المعهودة» أن ينتزع من وتزل معلومات ما كان ليستطيع أي عقل بشري، مهما بلغ من حدة ذكاء، انتزاعه. تمكنت الاستخبارات الألمانية من معرفة أسرار الشيفرة التي كان يستعملها السوفيات بمراسلاتهم مع الفريق البلجيكي المذكور. كما تمكنت، من خلال اعترافات وتزل، من معرفة عنوان كل من شولزر بويسن وهارناك.

أهم مجموعات التجسس السوفياتية التي كانت تعمل ابان الحرب العالمية الثانية، مجموعة لوسي في سويسرا. فقد أتاح لها وجودها في بلد محايد العمل في جو بعيد نسبياً عن التجسس المضاد ومضايقاته. كان في عداد المجموعة رجل ألماني يدعى رودولف روسلر وهو جاسوس شهدت له أعماله بأنه الأشهر بين جميع جواسيس الحرب. كان يعمل ناشراً لكتب كاثوليكية تقدمية في العاصمة السويسرية لوسرن، ومن هنا أتت تسمية المجموعة بـ «لوسي» أما رئيس المجموعة فقد كان يدعى الكسندر رادو، راسم خرائط مشهور في الصحافة السويسرية. في أواسط حزيران - يونيو، تلقت موسكو بالراديو من عميلها في المجموعة، الانكليزي الكسندر فوت، رسالة تحدد يوم الثاني والعشرين من الشهر موعد بدء الهجوم الألماني على الأراضي السوفياتية.

هذه الرسالةالتي جاءت متوافقة مع رسالة أخرى أرسلها سورج بهذا المعنى، لم يأبه لها ستالين، الذي كان يعتقد بأن ألمانيا لا يمكنها، بما لها من مصلحة مشتركة مع الاتحاد السوفياتي بضرب بريطانيا العظمى، أن تترك تلك الأخيرة وتهاجمه. هذا النوع من التقديرات يبرز مشكلة من أهم المشكلات التي تعاني منه الاستخبارات عامة، أعني بها مشكلة الوثوق بالمعلومات.

بعد بدء الهجوم، استمر فوت روسلر، بالاضافة طبعاً الى الآخرين، في اعطاء المعلومات عن الألمان أولاً بأول. غير أنه في فترة من الفترات، لم تكن معلومات فوت دقيقة، بل وحتى صحيحة كشف عن ذلك، في ما بعد، مدير المجموعة عندما قال بعد الحرب: «لقد كلفنا ذلك مئة ألف رجل في خاركوف وأتاح للألمان امكانية الوصول الى ستالينغراد. . .» هذا يعني أن الروس مدينون، الى حد بعيد، في انتصاراتهم العسكرية، الى المعلومات التي كان يرسلها اليهم روسلر.

كم جهدت السلطات السويسرية وسواها من الاستخبارات العاملة على الأرض السوفياتية في كشف ألغاز الرسائل التي كانت تبثها مجموعات التجسس السوفياتية الى موسكو. ولكن دون جدوى. الى أن وصل الأمر بهذه السلطات، تحت ضغط النازيين الى وقف نشاط تلك المجموعات اعتباراً من خريف عام ١٩٤٣.

طوال الحرب العالمية الثانية، لم ينفك حلفاء الاتحاد السوفياتي عن أن يكونوا أهدافاً لتجسسه. وقد أعطاه ذلك، بعد الحرب، ولا سيما خلال مرحلة الحرب الباردة، مواسم غنية حصد غلاتها ووظفها لمصلحته. وعندما أسدل الستار الحديدي، كان العملاء السريون العاملون لمصلحة السوفيات منتشرين في الكرة الأرضية بكاملها، خاصة في الدول الغربية ودول عدم الإنحياز. ولكي تكون لهؤلاء العملاء إدارة وتوجيه فاعلان، كان لا بد من نظام جيد للاتصالات السرية. وقد جاء هذا النظام الأفضل في العالم، مما خلق اطمئناناً لدى جميع العاملين فيه والمتصلين به من جواسيس وعملاء بأنهم في منأى عن كل انكشاف. كانت الوسائل المستعملة في نقل المعلومات والشيفرات غاية في الحنكة. مثال ذلك دفتر بحجم طابع البريد مليء بالمعلومات المكتوبة بدقة متناهية وجد في حوزة رودولف أبيل، الجاسوس السوفياتي الأشهر ممن اكتشفوا في الولايات المتحدة، وذلك عند إلقاء القبض عليه في نيويورك في ٢١ حزيران - يونيو من عام ١٩٥٧.

لكن صلابة أنماط الاستخبارات السوفياتية وفشل الكثيرين أمامها لم تمنعا البعض في بعض الفترات من الفوز عليها. فسنة ١٩٥٥، لاحظت أجهزة التجسس المضاد السويدية أن أحد سائقي سفارة تشيكوسلوفاكيا يتردد كل مساء على محطة ستوكهولم. بعد مراقبة دقيقة، تبين لهذه الأجهزة أن هذا الرجل يتلقى معلومات من موسكو من خلال إعلانات تنشر في صحيفتين تصدران في كا، كوغا وهي مدينه

صغيرة مشهورة بصنع الذخيرة الحربية. كان بنتيجة هذا الاكتشاف أن ضبطت شبكة تعمل في خمس مدن وأن يطلب إلى أربعة دبلوماسيين يعملون في سفارات تابعة للفلك السوفياتي مغادرة البلاد. هذا المثل يدل على أن بعض الضعف كان موجوداً في عدد من أجهزة الاستخبارات في الأحزاب الشيوعية المحلية، خلافاً للصورة في الحزب الشيوعي السوفياتي.

ومما يثبت هذه الحقيقة، ما حصل في ايران. في ١٦ آب ـ اوغسطس من عام ١٩٥٤، ألقت سلطات الأمن الإيرانية القبض على الضابط المسرح علي عباسي لنشاطاته المشبوهة في حزب توده المعروف باتجاهاته الشيوعية. وقد عثر في الحقيبة التي كان يحملها على مصور مفصل لقصر الشاه الصيفي وعليه مختلف نقاط الحراسة وعدد عناصرها. وكذلك عثر معه على مستندات عسكرية إيرانية غاية في السرية، بالإضافة الى تقرير عن مواقع المدفعية على طول الحدود الايرانية السوفياتية. كان هناك أيضاً دفتران صغيران يتضمنان نصوصاً مرمزة ودفتر ثالث مليء بصيغ المثلثات وبأحرف يونانية مما يستعملها علماء الرياضيات.

تصدى كل من الكولونيل مصطفى عمجدي، رئيس مكتب الاستخبارات التابع لحاكم طهران العسكري، وأحد زملائه من ضباط الجيش الايراني للعملية وفي ٣٠ آب ـ أوغسطس، كانا قد استطاعا فك رموز معظم هذه الدفاتر، ولكنهما وجداها دون فائدة تذكر. في هذه الأثناء، كان عباسي قد تكلم وكشف النقاب عن أن حزب توده دس حوالي أربعمائة عميل له في الجيش الايراني. لكن المشكلة كانت في كشف أسماء هؤلاء العملاء. أعيد استجواب عباسي، فاعترف أن السر مع الكولونيل جمشيد مبشري، أحد ألمع ضباط المدفعية الايرانية في الرياضيات، وكذلك أحد المتورطين في القضية. ألقي القبض على مبشري واستجوب فرفض الافصاح وحاول، وهو في زنزانته، قطع شرايين يده بواسطة مسمار. بعد معالجته، أعيد استجوابه فاصر على الرفض. لكن فريقاً من رجال الاستخبارات الايرانية بالتعاون مع خبراء من الخارج. تمكن من كشف أسماء الرجال الأربعمائة. ألقي القبض عليهم وحوكموا. وقد أعدم منهم ستة وعشرون، من بينهم مبشري نفسه، كما زج مئات منهم في السجون.

من أخبار السرية المحكمة لوسائل الاستخبارات السوفياتية ما حصل للعميل هايهانن في أميركا. كان على هذا تسليم قطعة نقدية من فئة خمسين سنتيم. تحوي

في تجويف فيها على ميكروفيلم، الى أحد العملاء من زملائه. لكن هايهانن، بنتيجة غفلة منه، أنفق القطعة في مشترياته، فانتقلت من يد الى يد وضاع أثرها. وذات يوم، وقعت القطعة من أحد بائعي الصحف في بروكلن وتدحرجت على السلم فانشطرت ووقع منها فيلم دقيق. حمل هذا الرجل ما وجده الى الشرطة فنقلته الى أجهزة الاستخبارات. لم تستطع الاستخبارات الأميركية فك رموز الفيلم على الرغم من جهودها المضنية التي بذلتها في هذا الصدد. ولم تعرف حقيقة هذه الرسالة الا بواسطة هايهانن نفسه بعدما ترك السوفيات ولجأ الى السفارة الأميركية في واشنطن.

تلك هي الاستخبارات السوفياتية. أنظمة يصعب النفاذ من بين أجزائها. وسرعة في التبديل تجعل الآخرين يلهثون باستمرار دون كبير جدوى. وهنا يحضر الذاكرة ما قاله تشرشل في هذه الأمة من أنها لغز يحيط به سر في داخل أحجية.

ولا ريب في أن كفاءة السوفيات في نطاق الاستخبارات هي في مستوى يحاكي المستوى الذي توصلوا اليه في غزو الفضاء.

الفصل الثامن

الحرب العالمية الثانية

في بداية فترة ما بعد ظهر يوم ٣١ آب - أوغسطس من سنة ١٩٣٩ المشؤوم، والذي كان بداية لست سنوات من حرب ضروس، كان هيرمان غورينغ يستقبل في برلين في مقره ٢ شارع ليبزغ، رجل الأعمال السويدي بيرغر داهلروس، الذي كان يحاول عبثاً إبعاد الكارثة من خلال وساطة مكوكية بين انكلترة وألمانيا. وبينما الرجلان يتبادلان الحديث، إذ بأحد الضباط يسلم غورينغ ظرفاً أحمر من النوع الذي كان يستعمل عادة في المراسلات الهامة. ما إن قرأ غورينغ الرسالة حتى انتفض من على كرسيه والتفت إلى محدثه معلناً له بغضب أن بين يديه البرهان الدامغ بأن البولونيين كانوا ينسفون كل محاولة للتفاوض.

بعد برهة، وكانت أعصاب غورينغ قد هدأت بعض الشيء، التفت ثانية الى داهلروس لينبئه الخبر إن ما بيده هو عبارة عن رسالة سرية فكت وزارة الخارجية الألمانية رموزها. وهي موجهة من الحكومة البولونية الى سفيرها في برلين تمنعه فيها من إجراء أية محادثات حسية مع الألمان. هذا يعني أن البولونيين لا ينوون التفاوض، بل تمييع الأمور والتمويه على جيرانهم الألمان. وإمعاناً في الإقناع، خط غورين بيده محتوى الرسالة وأعطاه إلى محدثه ليبرزه الى سفير بريطانيا. وأضاف قائلاً إنه بعمله هذا يتحمل مسؤولية كبرى هي مسؤولية كشف الشيفرة البولونية من قبل الألمان. لكنه يعتقد مخلصاً أن من المصلحة كشف نوايا فرصوفيا السيئة.

لم يكن كل هذا إلا ذريعة إضافية لإعلان الحرب. والواقع أن الألمان لم يكونوا يفكرون سوى بخداع داهلروس. ذلك أن هتلر كان قد وقع «بيان الحرب رقم ١»، عندما كان الزائر الوسيط يدخل مكتب غورينغ.

وفجر اليوم التالي، كانت الجيوش الألمانية تجتاح بولونيا.

بدلت الاستخبارات الألمانية أنماط استخباراتها مرات عديدة خلال الحرب. وكانت هذه الاستخبارات تشمل ليس فقط أعداءها، بل أيضاً وبالمستوى نفسه حلفاءها. ويروى كيف أن وزير خارجية ايطاليا، الكونت شيانو اغتاظ عندما علم أن الألمان يلتقطون رسائل وزارته، وقد قال يومها جملته المشهورة: «جميل أن أعرف ذلك. سيقرأون في المستقبل ما أريد أنا أن يقرأوه».

لقد انطلقت انظمة الاستخبارات الألمانية في الحرب العالمية الثانية من النقطة التي وصلت اليها في نهاية الحرب العالمية الأولى. وبعد سلسلة من الاصلاحات، ان في الجهاز البشري أو في النظم أو في الهيكلية الإدارية، أصبحت هذه الاستخبارات على قدر مرموق من المستوى والفعالية.

ويجب أن لا يغرب عن بالنا ما للدول الصغيرة في مجال الاستخبارات، كما يجب أن لا نتجاهل قدرها في هذا المجال. واذا كانت استخبارات تلك الدول لم تتألق تحت الأضواء كما هي الحال بالنسبة للدول الكبرى، فذلك عائد ليس فقط الى عدم امكانيتها في ايجاد الكفاءات الملائمة العالية في صفوف شعوبها، بل الى التكاليف الباهظة التي تستلزمها هذه الأعمال. أضف الى ذلك أن تأثير الدول الكبرى على مسرح السياسة الدولية يجعل مما تقوم به مادة اهتمام ومراقبة من خصومها وبالتالي مجالاً لصراعات تجسسية، الغرض منها اغتراف أكبر قدر ممكن من المعلومات عنها لتوظيفها للمصالح العليا لكل دولة.

نعود الى ألمانيا لنرى أن الناحية التسلطية، التي كان يتميز بها نظام الحكم، خلق وضعاً شاذاً بحيث أصبح لكل متنفذ في الدولة فلكه الخاص به في مادة الاستخبارات. وهكذا نرى غورينغ يشكل عام ١٩٣٣، وبعد أسابيع قليلة من تعيينه وزيراً للجو، جهازاً من ثمانية أشخاص ممن يثق بهم، ويسميه «مكتب الأبحاث». لم يكن لهذا الجهاز الحق في أي اتصال الا من خلال غورينغ نفسه. وفي عام ١٩٣٤، بدأ الجهاز بالقيام بالمهمة المرسومة له والتي كان غورينغ ينتظرها منه وهي تمرير معلومات تسهل له استمالة هتلر الى جانبه في حربه ضد روم، رئيس أحد أجهزة الاستخبارات وصديق هتلر الحميم في الحزب النازي.

كان جهاز غورينغ يتصدى للاتصالات الهاتفية ويفتح الرسائل ويفك رموز

الشيفرة. وقد توصل، في ٧ أيار - مايو سنة ١٩٤٠ الى التقاط مخابرة بين رئيس الوزراء البريطاني شمبرلين ورئيس الوزراء الفرنسي رينو.

في سنة ١٩٣٩، توحدت مختلف الأجهزة البوليسية التابعة للحزب وللدولة لتشكل «الدائرة المركزية لأمن الرايخ». بعد ذلك بقليل، استطاع والتر شلنبرغ، أحد موظفي الاستخبارات الألمانية، من الحصول على محفوظات الدائرة السرية النمسوية. لكنه لاحظ أن المعلومات الأهم التي تضمنتها كانت قد فكت رموزها من قبل الألمان. كذلك تذكر ويلهلم هوتل، العضو الشاب في الجهاز الجديد الموحد، ما قام به رجال الاستخبارات النمسوية - المجرية من أعمال بارعة خلال الحرب العالمية الأولى. ورافق ذلك أن اكتشف هوتل أن الرئيس السابق لهذه الاستخبارات، وهو الجنرال أندرياس فيغل، موقوف في سجون الغستابو منذ عام ١٩٣٨. فسعى لاطلاق سراحه. لكنه وضعه في فيلا وسط برلين وأخذ يستفيد من خبراته السابقة ويرسل له الضباط ليتعلموا على يديه. ولما كانت عملية التعليم هذه تستغرق بعض الوقت، مما لا ينسجم مع متطلبات الفترة، فقد سعت الاستخبارات الألمانية للجوء الى مصادر أخرى. لذا، اشترت من ياماتو أوميناتا، رئيس الاستخبارات اليابانية في أوروبا، كامل الشيفرة المعتمدة في كل من تركيا والبرازيل والبرتغال والفاتيكان ويوغوسلافيا لقاء ثمانية وعشرين ألفاً من الفرنكات السويسرية. وكانت هذه أول صفقة شراء بالجملة لأسرار عائدة للاستخبارات في تاريخ هذا الحقل.

كانت الدائرة المركزية لأمن الرايخ تعتمد، بصورة رئيسية، على المعلومات التي يحصل عليها جهاز غورينغ. ولم يكن هذا يروق لهيملر، الحاقد دوماً على غورينغ. لذا، بعث هيملر اليه بشلنبرغ في دارته الأنيقة ليطلب منه دمج جهازه عملياً بالجهاز الذي يرأسه هيملر. لم ينفعل غورينغ أبداً بعد أن استمع إلى شلنبرغ. كل ما قاله، بعد إنصات هادىء ومهذب، هو هذه الجملة: «سأدرس ذلك مع هيملر». لكن شيئاً من هذا الدرس لم يحصل.

عام ١٩٤٣، قامت الاستخبارات الألمانية بعملية تجسس شهيرة أطلق عليها اسم شيشرون. وشيشرون هذا كان بزانا الألباني، الخادم الخاص لسفير بريطانيا العظمى في تركيا. استطاع هذا الخادم تصوير محتويات جميع الملفات السرية التي كانت في خزانة السفير، بعد أن اكتشف الرمز الخاص بمفتاح الصندوق الذي يحويها. ثم باعها لعميل للإستخبارات الألمانية في تركيا هو مويزيش. وقد قبض

مقابل ذلك خمسة عشر ألفاً من الليرات التركية بأوراق نقدية مزورة. ومع أن المعلومات التي تضمنتها صور هذه المستندات كانت غاية في الأهمية، ومنها المحاضر الكاملة لمحادثات ستالين - روزفلت - تشرشل. فإن هتلر وأعوانه لم يثقوا بها. وقد قال رئيس الاستخبارات الألمانية آنذاك الى مويزيش بشأنها جملته المشهورة: «رائعة جداً بحيث لا تصدق». وهكذا فإن عملية شيشرون التي كانت ناجحة جداً في استقاء المعلومات، عادت لتنقلب فشلاً ذريعاً في مرحلة الاستفادة من هذه المعلومات.

عام ١٩٤٤ استطاع هوتل الحصول من الرئيس المجري، أندور زتوجاي، على سماح مستمر بأن يطلع على جميع ما يقع في يد الاستخبارات المجرية من معلومات. وكان هوتل قد زار مقر تلك الاستخبارات وأعجب بحسن تجهيزها وتنظيمها.

فاقت أهمية ما قدمته الاستخبارات المجرية، لزميلتها الألمانية كل تقدير. كانت غاية في الدقة والأهمية. استطاعت فك جزء كبير من الرسائل السرية لمختلف السفارات في موسكو. كما استطاعت كشف بعض المراسلات الأميركية والبريطانية خاصة خلال عام ١٩٤٥. ويقتضي ان نذكر في هذا المجال الصيد الثمين الذي حصلت عليه من خلال رسائل سفير تركيا بالراديو عن تخوف ستالين من نوايا حلفائه الأنكلو - ساكسون، والتي كان يعتقد أنها ترمي الى عقد صلح منفرد مع ألمانيا.

عندما غزا هتلر يوغوسلافيا، كانت السرعة التي انتهى بها من هذا الغزو مذهلة، على الرغم من طبيعة البلاد الجبلية الصعبة، لكن، مع بعض التحقق، يتبين أن الفضل، بصورة خاصة يعود الى المعلومات الدقيقة والشاملة التي مررتها الاستخبارات الألمانية الى قيادة الجيش عن كل التفاصيل الخاصة بالقوات اليوغوسلافية المحاربة، وذلك من خلال محطة استقبال متمركزة في صوفيا. وبعد اتمام الغزو، استطاع فريق من الاستخبارات الألمانية كشف الشيفرة التي كان يستعملها كل من ميخايلوفيتش وخصمه تيتو. حتى أن تيتو ظن في فترة من الفترات أن بعضاً من رجاله يخونه، فقام بعمليات تطهير متكررة في صفوف قواته. لكنه ما لبث أن اكتشف أن هزائمه في حرب العصابات في تلك الفترة مردها الى معرفة العدو لأحجام قواته وأماكن تمركزها ووسائل عملها، وذلك بفضل الاستخبارات. وهذا ما جعله يبدل شيفرته أكثر من مرة. ولكن دوى ما جدوى تذكر.

منذ الإنزال الشهير على شواطىء شمال أفريقيا في أواسط عام ١٩٤٢، تمكن الألمان من كشف كل ما يتعلق بالشيفرة الأميركية المستعملة في تلك العملية، وبالتالي من تكوين صورة واضحة عن جيوش الأعداء، بما في ذلك معنوياتهم ومستوى استعداداتهم. وهكذا، يذكر أن رسالة التقطت من قبلهم أثناء إعطاء تعليمات للقوات البريطانية العاملة في منطقة العمليات تتضمن اشارة الى أن هذه القوات في مأزق. لم توضح الرسالة المكان بسبب الالتقاط السيء ساعة ذكره. لكن القيادة الألمانية أعطت تعليمات معجلة بالبحث عن المكان بواسطة سلاح الجو ولم تكن القيادة البريطانية قد انتهت من إعطاء تعليماتها حتى انقض الألمان على القوات البريطانية وابادوا معظمها.

في بداية شباط - فبراير من عام ١٩٤٤، وأثناء الحملة الايطالية، حاول الجيش الأميركي الاستيلاء على مصنع كاروشيتو لأهمية موقعه الستراتيجي. غير أن محاولتهم المتكررة قد فشلت بسبب وحيد وهو أن الألمان كانوا قد التقطوا، في وقت سابق، رسالة سرية عن العملية، مما مكنهم من إجهاضها وتكبيد الأميركيين خسائر فادحة.

وعندما أمن الحلفاء لأنفسهم تفوقاً في الجو، لم يكن للألمان بد، وقد حرموا من هذا التفوق، من أن يعوضوا بمضاعفة فعالية استخباراتهم. وقد برز ذلك بشكل واضح إبان الإنزال على شاطىء النورمندي. توصلت الإستخبارات الألمانية لأن يكون لديها جهاز بشري من عشرة آلاف موزعين على عدة وحدات. أكبر هذه الوحدات كانت فرقة الإستخبارات الجوية رقم ٣٥١ وقوامها أربعة آلاف وخمسمئة رجلاً. كانت هذه الفرقة تهتم بمراسلات القاذفات وطائرات النقل ومراكز قيادة القوات الجوية الحليفة في أوروبا الغربية. وهناك وحدات أقل أهمية كانت تقوم بالعمل نفسه في أماكن أخرى. لقد جرت محاولة لاستخدام فرق نسائية لفك رموز أحد أنظمة شيفرة الحلفاء جو أرض، لكن المحاولة انتهت إلى الفشل، واستوجب الأمر العودة الى الجانب الآخر. وبغية تشجيع الشباب، من الطلاب خاصة، على الإبداع في سلك الاستخبارات، كان يجري إدخالهم إلى مدارس خاصة بهذا الحقل. وكل من يفشل في دراسته يرسل إلى الجبهة الشرقية. وقد تبين، في ما بعد، أن تسعين بالمئة منهم قد أرسلوا إلى تلك الجبهة.

في الأول من آب - أوغسطس سنة ١٩٤٣، أدى التقاط رسالة سرية أميركية

من قبل الألمان إلى تجنب كارثة نفطية في رومانيا. كانت مئة وثماني وسبعون مقاتلة قد انطلقت من بنغازي لضرب المنشآت النفطية في بلويستي برومانيا. كانت تلك أكبر وأطول غارة في تاريخ الحرب العالمية الثانية. بعد أن قطعت الطائرات مسافة ألفي كلم، بثت الفرقة الجوية التاسعة في سلاح الجو الأميركي رسالة مقتضبة الى قاعدة للحلفاء في المتوسط معلمة إياها بالتحليق، وذلك خوفاً من ضربها من قبل الحلفاء كما حصل قبل بضعة أسابيع عندما أسقطت البحرية الأميركية عدداً كبيراً من الطائرات الأميركية معتقدة أنها قاذفات قنابل ألمانية. لكن اتخاذ هذا الاحتياط أدى الى عكس ما كان ينتظر منه. فمنذ التقاط الرسالة، سارعت الاستخبارات الألمانية إلى ترجمة رموزها وإيصال هذه الترجمة إلى القيادة الألمانية في بلويستي، حيث جرى الاستعداد الكامل لاستقبال الطائرات بوابل من قذائف المدافع المضادة للطائرات. وكانت حصيلة تلك الغارة الفاشلة سقوط أكثر من ثلث الطائرات المغيرة في غضون دقائق معدودة.

كم من المرات استطاعت الاستخبارات الألمانية تقديم المساعدة الفعالة لجيوش ألمانيا من برية وبحرية وجوية! فالكثير من مدمرات الأسطول البريطاني أغرق بفضل كشف رموز رسالة التقطت على موجات الأثير. ولم يكن الاستيلاء على المدمرة البريطانية «مدينة بغداد» من قبل المدمرة الألمانية المتطورة أطلنتس، في ١٠ تموز ـ يوليو سنة ١٩٤٠ في عرض المحيط الهندي، ليتم لولا مساعدة الاستخبارات السريعة والفعالة. ومعلوم أن هذا الإستيلاء أدى كذلك إلى الحصول على مستندات سرية غاية في الأهمية كان القبطان الإنكليزي ينوي رميها في البحر عندما داهمه ضباط ألمان وشهروا عليه السلاح ليمنعوه من فعل ذلك. كم من الضحايا من أساطيل الحلفاء وقعت أمام أطلنتس التي كانت، بفضل الجهاز اللاقط المتطور على متنها. كانت تكمن لضحاياها وتنقض عليهم في الأماكن التي لا يمكنهم الهروب منها. وهذا ما جعلها المدمرة الأكثر تهيباً في تاريخ البحرية في الحرب العالمية الثانية.

عام ١٩٤١، وبفضل ما كشف من أسرار في الرسائل الهوائية التي كانت تبث على الراديو، ارتفعت خسائر الحلفاء بشكل رهيب. ففي الأشهر آذار ـ مارس ونيسان ـ أبريل وأيار ـ مايو، أغرقت مئة واثنتان وأربعون سفينة حربية، أي بمعدل واحدة كل ست عشرة ساعة.

وفي شهر مارس من عام ١٩٤٣، بلغت معارك الأطلنتيك درجتها القصوى.

اوشكت الغواصات الألمانية أن تقطع طرق الإمدادات البحرية بين أوروبا وأميركا. مئة وواحد وأربعون ألف طن أغرقت في ثلاثة أيام مقابل خسارة ألمانية بلغت غواصة واحدة. وقد اعتبرت هذه الحملة أكبر ضربة تلقاها الحلفاء طوال الحرب بكاملها.

في ايطاليا، كان لكل من الجيش والبحرية جهاز استخبارات خاص. استطاع جهاز البحرية عام ١٩٤١ أن يكشف الشيفرة التي كانت تستعملها البحرية البريطانية في المتوسط، والتي كانت من الضعف بحيث هدد الأميرال كونينغهام، بعد غزو كريت، ببث رسائله باللغة العادية إن لم يزود بشيفرة أكثر تطوراً. في ٢٧آذار - مارس، أي قبل معركة رأس ماتاپان، أدى فك رموز تقرير إحدى طائرات الاستكشاف البريطانية إلى إفشال غارة جوية بريطانية على بعض المواقع الايطالية، بعد أن كانت المدفعية المضادة للطائرات قد تربصت بالمغيرين فأمطرتهم بوابل من قذائفها مما جعلهم يلقون بحمولتهم من القنابل بشكل عشوائي فوت عليهم الغاية من الغارة.

أما الجهاز التابع للجيش الايطالي، فقد كان يسمى دائرة الاستخبارات العسكرية. هذه الدائرة كان لديها قسم هام وحسن التنظيم لفك الرموز من ديبلوماسية وعسكرية. كان الجنرال فيتوريو غامبا على رأس قسم الشيفرة. في الدائرة. كان هناك أيضاً قسم الكيمياء الذي يهتم بأنواع الحبر السري، بصورة خاصة، وقسم التجسس وقسم المراقبة. كان لغامبا أيضاً سلطة على قسم آخر مولج في استنباط الرموز والشيفرات للجيش.

استطاع الايطاليون، كما فعل زملاؤهم الألمان، كشف أنظمة الشيفرة العسكرية اليوغوسلافية. ومعروف أن العلاقات بين يوغوسلافيا وإيطاليا لم تكن في يوم من الأيام علاقات مودة، وذلك بسبب مقاطعتي فيومي وتريستا.

كان الإيطاليون، حتى غزو يوغوسلافيا من قوات المحور، وبعد احتلالهم لألبانيا، يوجهون صوب الشمال ما كان تشرشل يسميه «أقفيتهم العارية». لم يكن لليوغسلافيين أمل في مجابهة الألمان.

لكنه كان من الواضح أن تصديهم للإيطاليين، السيئي التنظيم، يمكنهم من

إحراز انتصار بارز عليهم، وبالتالي من وضع موسوليني في موقف صعب، كذلك من عرقلة تقدم العدو والحصول على العتاد والذخيرة اللازمة للإستمرار في حرب استنزاف طويلة المدى ضد النازيين. وهذا فعلاً ما حصل. ففي السابع من نيسان ـ أبريل من عام ١٩٤١، تحركت فرقتان يوغسلافيتان نحو الجنوب. وفي الثاني عشر من الشهر، تمكنت إحداهما من دحر الإيطاليين في سكوتاري بعد أن شنت عليهم هجمات عنيفة. وسط هذه المعمعة، لجأت دائرة الاستخبارات العسكرية الإيطالية إلى حيلة. أرسلت بالشيفرة اليوغسلافية رسالة الى قيادة كل من الفرقتين اليوغسلافيتين في تلك المنطقة بتوقيع مزعوم من الجنرال سيموفيتش، رئيس الحكومة اليوغسلافية. وقد طلبت في الرسالتين انسحاباً فورياً للقوات مع وقف كامل لجميع العمليات العسكرية. نفذت احدى الفرقتين الأمر على الفور. أما الأخرى، فقد طلبت ايضاحاً من القيادة العليا. ولما لم يأت التوضيح، فقد فضلت تنفيذ الأوامر. بعد ذلك، ما كان من الايطاليين الا أن سارعوا في احتلال المواقع المخلاة وجنبوا انفسهم هزيمة شنعاء.

لم تكتف الاستخبارات الايطالية، شأنها في ذلك شأن سائر الاستخبارات، بالاهتمام بما يقوله أو يبثه العدو، بل تعدت نشاطاتها الى الحلفاء وكذلك الى الدول المحايدة. لقد كانت حصيلتها من هذه الأخيرة ثمينة. ذلك أن الأطراف المحايدين يتمتعون عادة بالموضوعية وصفاء الذهن، مما لا يتوافر لدى المتخاصمين. وهكذا استطاع الايطاليون معرفة حقيقة الأوضاع الداخلية في الاتحاد السوفياتي من خلال رسالة بعث بها خويبيتشيف الى حكومته بواسطة السفير التركي زورلو. هذه الرسالة كانت تقول «كيف أن الحرب تتعب الروس كثيراً. لكن روسيا لا تزال قوية وقوة المحور في تناقص مستمر». ويذكر شيانو، وزير الخارجية الايطالية أن الدوتشي طلب اليه ابلاغ مضمون هذه الرسالة الى سفير ألمانيا في روما. وفي مجال آخر، يثير شيانو مسألة رسالة أخرى انكليزية كشفها الايطاليون، وفيها أن «موسوليني غضب من روميل عندما اتهم هذا الأخير ضباطاً ايطاليين بتسريب معلومات الى العدو عن خطط وضعها. يقال أن للانتصار مئة أب، أما الهزيمة فيتيمة».

كان للاستخبارات الايطالية نجاحاتها التي لا تنكر في حقل فك الشيفرة للآخرين. لكن مجدها كان بصورة خاصة، في سرقة المستندات بواسطة الجواسيس وأشهر عملية في هذا المضمار تلك التي قام بها لورس جيراردي، حاجب السفير

الأميركي في روما. ظل جيراردي يعمل في تلك السفارة منذ عام ١٩٢٠. وفي آب ـ أوغسطس من عام ١٩٤١، تمكن من اعطاء الاستخبارات الايطالية الرمز الخاص بفتح الصندوق الحديدي الذي كان السفير يحفظ فيه ترجمة الشيفرة التي تستخدمها السفارة في مراسلاتها السرية. وبفضل ذلك تمكن أحد عناصر الاستخبارات من فتح الصندوق وتصوير مستنداته وإعادة كل شيء فيه الى ما كان عليه. الصيد كان ثميناً. ذلك أن هذه الشيفرة كانت تستعمل في مراسلات الولايات المتحدة مع العالم بأسره. وفي احدى هذه المراسلات، التي بعث بها السفير الأميركي في موسكو، تبين كم يعاني الاتحاد السوفياتي من صعوبات في المؤن والسلاح، وأنه قد يستسلم اذا لم تسارع الولايات المتحدة الى نجدته. لكن المعلومات الأهم كانت تتعلق بمسرح العمليات حيث كان مصير الحرب يتقرر يوماً بعد يوم.

منذ عام ١٩٤٠، كان الملحق العسكري الأميركي في القاهرة يدعى الكولونيل فيلرز. كان فيلرز لا ينفك يتنقل بين القطعات العسكرية الانكليزية في الثكنات وعلى خطوط الجبهة، بعد أن كانت السلطات العسكرية الانكليزية قد اعطيت التعليمات باستقباله ساعة يشاء وبتسهيل تنقلاته. اثر كل جولة أو كل اتصال مع مسؤول، كان فيلرز يضع تقريراً بالأمر ويرسله الى حكومته. وفي الطريق، كانت أجهزة الالتقاط العائدة لدول المحور تتسلم الرسالة وتترجمها وترسل فحواها الى القيادة المختصة. كل ذلك بفضل عملية الحاجب جيراردي. وعندما كان رومل في العلمين، كانت المعلومات عن تحركات الحلفاء وخططهم تصله بعد ساعات قليلة من ارسال المعلومات بشأنها. وهكذا، عام ١٩٤٢، كشف سر تجميع الأسطول الانكليزي في مرسى مطروح، على الساحل المصري في المتوسط.

لكن رومل لم يكن يستطيع الاستفادة من كل هذا كما كان يرغب بسبب أزمة البنزين لديه، وكذلك بسبب ما كان جيشه يعانيه من تصدي السفن الانكليزية المنطلقة من مالطا لطرق تموينه، وبالتالي، حرمانه من الامدادات الضرورية. لذا، كنا نرى انتصاراته تتحقق تبعاً لتمكن من اختراق اعتراض الانكليز لسفن أسطوله. كما كنا نرى الهزائم تلحق به حالما يعود هذا الاعتراض الى العمل بفعالية.

عام ١٩٤٢، استطاع رومل، بفضل فيلرز ورسائله الشهيرة، من أن يحقق انتصاراً باهراً على الحلفاء. ففي ليل ١٢ الى ١٣ حزيران ـ يونيو كان الحلفاء ينوون شن هجوم صاعق على المطارات والمرافىء في تورنت. بعث فيلرز برسالة الى حكومته

في واشنطن ينبئها فيها بالخبر. كانت الاستخبارات الايطاليةوالألمانية قد التقطت الرسالة حوالي الساعة الثامنة. وما أن حانت الساعة الحادية عشرة، الا وكانت الرسالة بين يدي رومل. وهكذا كان لديه الوقت الكافي للاستعدادات واستقبال المهاجمين بـ «الترحاب». كانت مجزرة رهيبة.

في اليوم التالي، انطلقت الطائرات الألمانية، التي انقذتها الرسالة، لتضرب قافلة الاسكندرية مكبدة الحلفاء أيضاً الخسائر الاضافية الجسيمة. وقد ظلت الطريق الى مالطا محفوفة بالمخاطر الى فترة طويلة بعد هذه الضربة الموجعة.

لا شك في أن الاستخبارات قدمت الى رومل أجل الخدمات. فيوم ١٦ حزيران - يونيو سنة ١٩٤٢، وصلت اليه رسالة موجهة من الفرقة الهندية ٢٩ الى الفرقة السابعة المصفحة، تفيد عن هجوم ينوي الانكليز القيام به على المواقع الألمانية الليل التالي في موقع الصدم. لم يكتف رومل بانتظار الهجوم والاستعداد له، بل أخذ هو بزمام المبادرة وفاجأ الانكليز، وهم يتهيأون للهجوم عليه، بهجوم صاعق أضاع صوابهم ومواقعهم.

ولكن، في العاشر من تموز - يوليو من العام نفسه، تمكن الانكليز، بعد ضربة أنزلوها بالألمان في الصحراء المصرية، من الحصول على المستند الذي ساعد جيراردي على سرقته، فخسر رومل عنصراً حيوياً من عناصر انتصاره، وربح أعداؤه ما لم يكونوا يحلمون به.

ولم تكن هذه الضربة التي نزلت برومل لتقف عند هذا الحد. فقد أفشى أحد أسرى الحرب الألمان سر الشيفرة المسروقة من سفارة الولايات المتحدة في روما. عندها، استدعي فيلرز الى واشنطن وأتي بملحق عسكري آخر، كما جرى استبدال الشيفرة القديمة بأخرى جديدة يصعب فكها. وهكذا جف النبع الذي ظل الألمان يستقون منه لفترة طويلة.

هذا التبدل الجذري في المعطيات حصل في الوقت الذي كان فيه رومل يتهيأ لاجتياز الحدود المصرية. كانت استعداداته العسكرية على قدم وساق. لكن المعلومات عن العدو كانت تصله بشكل متقطع ومجتزأ. حتى أن فترة طويلة من الزمن مرت و رومل يعتمد في معلوماته على الاستنتاجات والتكهنات. وهذا ما لا يعطي في الحرب نتائج مضمونة. وهكذا لم تصل اليه أية معلومات عن المئات من

الدبابات والمدافع التي كان الحلفاء يهيئونها لمعركة العلمين الشهيرة. يضاف الى هذه الصعوبات، صعوبات التزود بالوقود اللازم لآلياته. وعندما أعطى مونتغومري، القائد الانكليزي، الأمر بالضرب، كانت المفاجأة صاعقة. كان رومل في إجازة نقاهة في النمسا. قطع إجازته وعاد الى العلمين ليدير المعركة بنفسه. غير أن الوقت كان قد فات وكان كل شيء قد انتهى. وفي مذكراته، كتب تشرشل يقول: «قبل العلمين، لم تكن لدينا انتصارات. وبعد العلمين لم تعد لدينا هزائم». هذا التبدل، لم تكن الاستخبارات بعيدة عنه.

من بين الدول المحايدة، كانت السويد تملك أفضل جهاز للاستخبارات. في البداية، كان هم هذا البلد منصباً على ما اذا كان في نية هتلر حمايته كما فعل بالنسبة للدانمرك والنروج. بدأت الاستخبارات السويدية تتألق مع بداية القرن. وقد لمع فيها اسم أيف غيلدن، الذي عمل طويلاً على آلات فك الرموز التي كانت تنتجها شركة أرفيد دام. سنة ١٩٣١، نشر دراسة مشهورة حول علم الشيفرة في الحرب العالمية الأولى. وقد ترجمت الى اللغتين الانكليزية والفرنسية.

بعد خمس سنوات من نشر رسالة غيلدن، انشأت السويد دائرة استخبارات بإدارة الكولونيل واربرغ، وهو رجل فقد يديه ورجليه أثر كسور أصيبت بها نتيجة وقوعه من على صهوة جواده. تكشف واربرغ عن غباء في الاستخبارات لا يقل عن غبائه في الفروسية، فاستبدل بأحد ضباط البحرية. أما غيلدن، فقد أقام تعاوناً في حقل الاستخبارات بين السويد والنروج، كما شجع طلاب الجامعات على الاهتمام بهذا العلم. وقد لمع منهم عدد كبير.

وعندما نشبت الحرب، كان عدد العاملين في جهاز الاستخبارات السويدية اثنين وعشرين. وفي عام ١٩٤٠، توزع رجال الاستخبارات من أقسام أربعة: الأول للغات اللاتينية، خاصة الفرنسية والايطالية، بقيادة غيلدن الذي عاش عشر سنوات في فرنسا مع أمه الفرنسية، الثاني للغة الألمانية بقيادة كارل أوتو، أحد أشهر أساتذة الرياضيات، الثالث للغة الانكليزية بقيادة الدكتور أولوف فيليتزن، أما الرابع والأخير، فكان للغة الروسية بقيادة الدكتور أرن بيرلنغ. ظل جهاز الاستخبارات هذا ينمو الى أن بلغ في نهاية الحرب حوالي الألف رجل. ومما ساعد في ازدهاره ونموه ما كان يحصل من تعاون مثمر بينه وبين الأجهزة المماثلة في الدول السكندينافية الأخرى النروج والدنمرك وفنلندا.

في بداية عام ١٩٤٠، أي قبل احتلال النروج بقليل، تمكن السويديون من اكتشاف أسرار المراسلات التي كان العملاء الألمان يبثونها. كانت هذه الرسائل تأخذ ظاهرياً شكل معلومات يرسلها صيادو السمك عن الأسعار وحجم الصيد وما شابه. لكن غرابة الأرقام استرعت انتباه السويديين الذين ما لبثوا أن اكتشفوا حقيقة ما ترمي اليه هذه الأرقام. وقد كان لهذا الاكتشاف أثر كبير في جاسوسية الحرب في شمال أوروبا.

وسع السويديون نطاق عملهم ليشمل التجسس بالمعنى الضيق للكلمة. لم يكونوا بعيدين عن أية مخابرة هاتفية لأي سفير أو موظف في سفارة. وقد استطاعوا، من خلال ذلك، الحصول على معلومات غاية في الأهمية. بالاضافة الى ذلك، كانت مراقبتهم لرجال معينين، كالسفراء وسواهم، في السويد وفي الخارج، تشمل كل شاردة وكل واردة. وكانت جميع هذه المعلومات تنصب بين أيدي ذوي الاختصاص يمحصونها ويحللونها ويستنتجون منها المفيد.

لكن الفائدة الكبرى في هذا الحقل أتت اليهم من خلال أخطاء الآخرين. وهذه هي العادة لدى الجميع وخلال الحروب كما في أوقات السلم. والشخص البارز في اقتراف الأخطاء، التي استفاد منها السويديون، كان قنصل المانيا في مدينة ستافنر السويدية. حتى أن محللي الشيفرة في ستوكهولم علقوا صورة كبيرة له على حائط أحد مكاتبهم اعترافاً منهم بما أسداه لهم من خدمات لا تقدر بثمن.

أعظم عمل قام به السويديون في نطاق الاستخبارات كان اكتشافهم لسر الآلة الطابعة لشيفرة سيمنس والتي كان الألمان يستعملونها في رسائلهم السرية من النروج ومن سفاراتهم في ستوكهولم. لقد استطاع آرن بيرلنغ انجاز تصميم كامل لهذه الآلة وكلف اختصاصياً اميركياً بصناعتها. وعلى الرغم من شكلها الضخم المخيف ومن صوتها المقيت، فإنها استطاعت أن تطبع الرسائل الألمانية التي كان السويديون يجهدون لقراءتها.

كان العمل يجري بشكل متواصل في مكاتب استخبارات السويد. وكل صباح، عندما يأتي الرئيس أول ما كان يفعله هو السؤال عن الأخبار الألمانية. وكان الجواب الحاضر يأتيه على الفور. وعندما قام الألمان بتحركات مريبة على الحدود النروجية السويدية، تنبه السويدون وقطعوا الطريق على الألمان لدخول بلادهم. وقد

اعترف الألمان ببراعة استخبارات السويد في هذا الموضوع وهنأوا في ما بعد، ثورنل، المسؤول السويدي. فما كان من هذا الأخير الا أن أحال التهنئة الى رجاله من معاونيه.

من منجزات السويد في هذا الحقل، اكتشاف نية الألمان بغزو الاتحاد السوفياتي. وقد نقلوا ما اكتشفوه الى سفير بريطانيا في موسكو. لكن المؤسف أن ستالين لم يصدق الخبر.

أما بولونيا، فقد كانت في هاجس مستمر من اعادة تسلح ألمانيا، وذلك منذ العشرينات، لذا، فإنها كانت دائمة الرقابة لهذه الجارة المقلقة. وأفضل أنواع الرقابة الاستخبارات، لا سيما العسكرية منها. وقد أنشأت الدولة البولونية لهذه الغاية مكتباً للشيفرة في نطاق القيادة العسكرية العليا للجيش البولوني.

أحست بولونيا أن الوسائل المستعملة في استخباراتها أصبحت بالية ولا تأتلف والتطورات الآنية. وقد وعت أن الأمر يستدعي، في البداية، تكوين العنصر البشري المدرب، لذلك، لجأت الى شباب الجامعات من اللامعين في الرياضيات، من هؤلاء الشباب لمع ثلاثة هم زيكالسكي وروزيكي وريجوسكي.

استطاع الثلاثة تطوير الاستخبارات البولونية من وسائل وتجهيزات. وأصبح بفضلهم لدى بولونيا نظام للشيفرة لا يقل تطوراً عن سواه من الأنظمة في زمن ما بين الحربين.

لكن المساعدة الكبرى التي تلقوها كانت من الفرنسي بيرتران. كان بيرتران هذا ضابطاً في سلاح المشاة الفرنسي عام ١٩١٥. وبعد أن جرح في معركة على الدردنيل، توجه نحو علم فك الرموز. عام ١٩٣١، توصل الى اقتناع بأن خير وسيلة لدفع الاستخبارات أية استخبارات الى الأمام هي في شراء شيفرات جاهزة مع مفاتيحها. في هذه الأثناء كان أحد العاملين في قسم الشيفرة في وزارة الدفاع الألمانية يتصل سراً بأجهزة الاستخبارات الفرنسية. كان اسمه هانس شميدت وهو أخ لضابط ألماني أصبح في ما بعد جنرالاً. بعد تسعة عشر لقاء في عدة دول سلم شميدت الى الفرنسيين حوالي ثلاثمائة مستنداً سرياً، منها ما يتعلق بنظم الشيفرة الألمانية ومفاتيحها. جميع هذه المستندات سلمت الى مكتب الاستخبارات البولوني، الذي استخلص منها أعظم الفائدة. وقد ساعد هذا الانجاز الشبان البولونيين

الثلاثة على التمرس في مهنتهم واتقانها في ما بعد، بشكل بارز. وبعد أسابيع عدة من هذا التعاون الفرنسي - البولوني، حصل ان أصبح هتلر مستشاراً للرايخ.

في أواسط عام ١٩٣٣، زاد البولونيون عدد العاملين في جهاز الشيفرة ستة أشخاص ليتمكنوا من انجاز الأعمال المتزايدة. كما وضعوا في العمل آلة لفك الرموز على نسق آلة «انيغما» الألمانية، أنما مكبرة بحيث بلغ انتاجها ضعف انتاج الآلة الأم، وقد اطلقوا عليها اسم بومبا. بفضل هذا التطور، استطاعوا اكتشاف ما حصل من اغتيالات في صفوف النازيين في تلك الليلة المسماة «ليلة السكاكين الطويلة». ومعروف أن من بين الذين اغتيلوا أرنست روم، أحد أقرب المقربين الى هتلر في الحزب. بعد ذلك، طوروا آلة أخرى لفك الرموز تنتج يومياً أضعاف ما تنتجه بومبا.

قبل اجتياح الألمان لبولونيا، بدأت مصادر الاستخبارات البولونية تشح وهذا ما حمل الفرنسي بيرتران على تنظيم لقاء بين استخبارات كل من فرنسا وبريطانيا وبولونيا، غايته تكثيف الجهود حول تطوير الآلة انيغما، وهو ما بدأ به البولونيون بنجاح، كما أسلفنا لكن المندوب البولوني فضل العمل منفرداً بعدما لاحظ أنه ليس لدى الآخرين ما يمكنهم اعطاءه له في هذا المجال.

بعد جهود حثيثة، تمكنوا من ادخال تطوير آخر على الآلة بومبا، بحيث لم يعد في استعمالها أية صعوبات مهما زاد حجم العمل. وفي تموز - يوليو من عام ١٩٣٩، وبمبادرة من البولونيين، اجتمع هؤلاء بالفرنسيين والبريطانيين وقدموا لهم ما توصلوا اليه. كانت تلك هدية رائعة ساعدت الحلفاء كثيراً اثناء الحرب التي كانت طبولها قد بدأت تقرع.

عند الساعة الرابعة من فجر الأول من أيلول - سبتمبر من عام ١٩٣٩، كانت الجيوش الألمانية تجتاز الحدود الى بولونيا. عندها سارع العاملون في الاستخبارات البولونية الى الهرب لفرنسا عن طريق رومانيا، هناك انضموا الى الفرنسيين وبدأوا العمل معهم. وقد قدموا خدمات جلى في فك الكثير من رموز الرسائل الألمانية. وعندما اجتاح الألمان فرنسا، هرب الفريق البولوني الى الجزء الذي لم يطله الاحتلال واستقر في قصر فوزيس ضمن قرية حمل اسم كاديكس. ومن هناك استمر في تقديم الخدمات للحلفاء، على مدى سنوات. والغريب أن الألمان لم

يتنبهوا للأمر وبالتالي، لم يعطلوا عمليات الالتقاط.

في الثامن من تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٩٤٢، ورداً على الانزال الأميركي على الشاطىء الأفريقي الشمالي، انجز الألمان غزو فرنسا وقد ألقي القبض على بيرتران وأعوانه. أما البولونيون، فقد هربوا الى انكلترا، ومن هناك، استمروا في العمل ضمن وحدة خاصة ببلدهم حتى آخر أيام الحرب.

في هذه الأثناء كانت مدرسة الرموز والشيفرة البريطانية قد بدأت بتخريج بعض الطلاب، كانت مجمعات المدرسة تقع على بعد نحو ثمانين كيلومتراً الى الشمال الغربي من لندن، في مكان يدعى بلتشلي. من طلابها المتفوقين لمع اسم آلان تورينغ، كما لمع هوغ الكسندر وهاري غولومبيك وروي جنكنز.

أولى منجزات مدرسة بلتشلي تطوير الآلة البولونية بومبا بشكل أصبحت معه أكثر فعالية وأكثر سرعة. وقد أعطيت تسمية بومبا قياساً مع الاسم البولوني. بفضل هذه الآلة، التي وضعت في الخدمة عام ١٩٤٠، استطاع الانكليز فك رموز الكثير من الرسائل الألمانية. لكن من الإنصاف القول إن الأثر العملي لهذه الآلات كان هزيلاً، باعتبار أن المعلومات كانت تصل منها متأخرة بعض الشيء، مما كان يفوت الكثير من فوائدها. لكن الفراغ في هذا المضمار جرى سده بواسطة الرادار. ويذكر في هذا المجال أن الغارة المبيدة التي شنها سلاح الجو الألماني على المدينة الإنكليزية كوفنتري عام ١٩٤٠، على الرغم من وجود الرادار، والاستخبارات في آن معاً، لم تكن لتنجح بالشكل الذي حصل لولا الأخطاء البشرية التي اقترفت في عمليات الدفاع. وما قاله تشرشل من أنه ضحى بالمدينة لينقذ نظام «اولترا»، لم يكن سوى كلام لم ينطل على أحد. ونظام أولترا، الذي ادعى تشرشل المحافظة عليه بثمن باهظ، لم يقدم كثيراً من الخدمات إبان الحرب، اللهم إلا سماحه للبريطانيين بكشف نية الألمان بالعدول عن غزو الجزر البريطانية. ففي ٢٥ تشرين الأول - أوكتوبر عام ١٩٤٠، استطاع هذا النظام أن يكتشف أن الألمان ألغوا إحدى الوحدات الإدارية التابعة لقوات الغزو. هذا التدبير، بالإضافة إلى عناصر أخرى كشفتها مصادر الاستخبارات، أوضح أن الألمان عدلوا، مؤقتاً على الأقل. عن مشروعهم باحتلال الجزر البريطانية.

من الأهداف الرئيسية لمدرسة بلتشلي كشف نظام انيغما. وقد تيسرت هذه

المهمة بسبب تزويد الألمان جميع قطعاتهم البحرية بأجهزة تعتمد هذا النظام. وفي شباط - فبراير عام ١٩٤١، ونتيجة لغارة شنتها البحرية البريطانية على جزر لوفوتين، وهي أرخبيل صغير قريب من الشاطىء النرويجي، شمالي الدائرة القطبية، استطاعوا احتجاز طراد ألماني كان يحاول التسلل. وعلى الرغم من أن آلة الشيفرة التي كانت على متنه قد ألقي بها في البحر، فقد بقيت قطع الغيار الاحتياطية ومنها الاسطوانة على ظهرها. وهذا ما أتاح للإنكليز معرفة أمور كثيرة عن أسرار هذه الآلة، كما مكنهم من إعادة تركيب بعض المفاتيح اليومية للشيفرة الألمانية.

وفي ٨ أيار مايو من عام ١٩٤١، تمكن الإنكليز أيضاً من الإستيلاء على غواصة ألمانية في معركة بحرية جرت بينهم وبين الألمان في بحر الشمال. وقد استطاعوا الحصول من الغواصة، وقبل وقت قليل من غرقها وهي مقطورة، على أجهزة البث والإستقبال مع أنظمتها. ذلك أن العبوات الناسفة المهيأة لتدمير هذه الأجهزة لم تنفجر. وقد أتاح هذا الصيد الثمين للإنكليز أن يكتشفوا جميع المراسلات تحت المائية التي كانت تتبادلها الغواصات الألمانية. لكن صعوبة أخرى جديدة لم تلبث أن ألزمت الإنكليز على إعادة النظر بفائدة الطريدة. في الأول من شهر شباط - فبراير من عام ١٩٤٢، ابتدع الألمان شبكتين استخباريتين جديدتين للاتصالات تحت المائية، الأولى لغواصاتهم في المحيط الأطلسي والثانية لمراسلاتهم الساحلية. وعلى الرغم من أن النظامين كانا يعتمدان طريقة الانيغما، إلا أن المفاتيح المستعملة كانت مختلفة عن تلك التي استولى عليها منهم الإنكليز. وبعد فترة، تمكن الإنكليز من اكتشاف مفاتيح الشبكة الأولى. أما الثانية، فقد ظلت مغلقة أمامهم فترة أطول امتدت حتى نهاية عام ١٩٤٢.

كان لهذا الوضع غير المرضي أثره الإيجابي على الألمان، إذ أتاح لهم التحرك بقدر كبير من الحرية في مياه الأطلسي. غير أن شهر العسل هذا لم يطل. فما أن دخلت الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء وأرسلت غواصاتها إلى أعماق المحيط، حتى بدأت الصعوبات تنتصب أمام الألمان. وأول الغيث كان التصدي لخمس قوافل متتالية من أسطولهم وبعثرتها.

أخيراً، وفي كانون الأول - ديسمبر من عام ١٩٤٢، أثمرت جهود مدرسة بلتشلي في كشف الشبكة الألمانية الثانية الساحليه. هذا الإنجاز أتاح لهم تحقيق الكثير من الإنتصارات البحرية والجوية في آن معاً. مما عقد الأمور أمام الألمان

وجعلهم يفقدون الكثير من قطعاتهم البحرية على غفلة منهم. لقد كانت المعلومات التي ترسلها أجهزتهم تحت المائية ترسل إلى الإستخبارات الجوية البريطانية من قبل عناصر بلتشلي، فتسارع الطائرات إلى ضرب الغواصات الألمانية قبل موعد تلاقيها مع الغواصات الإنكليزية المحملة بالمؤ ن والذخائر.

استطاع فريق بلتشلي أيضاً اكتشاف سر الطابعة الألمانية سيمنس، كما فعل من قبلهم السويديون. لقد صمموا لهذه الغاية مجموعات الكترونية من الأجهزة. آخرها وأكثرها إبداعاً والذي سمي كولوسوس، يعتبر من قبل العديد من الإختصاصيين في تاريخ التكنولوجيا الحاسبة الالكترونية الأولى. لقد مكنت هذه الحاسبة الإنكليز ومعهم حلفاءهم من التوغل في أنظمة الشيفرة الألمانية، كما مكنتهم أخيراً من الفوز بالمعارك التي أوصلتهم إلى قلب ألمانيا. بفضل هذه الآلة كذلك، اكتشفت بشكل مسبق خطة هتلر الهادفة إلى القيام بهجوم مضاد للقضاء على ثغرة أفرانش. لكن النجاح لم يكن على الدوام حليف الحلفاء بمنجزات هذه الحاسبة. ففي ١٦ كانون الأول - ديسمبر من عام ١٩٤٤، هاجم الألمان الأردين في فرنسا دون أن يتمكن الحلفاء من كشف الهجوم قبل حصوله، قد يكون ذلك عائداً لسوء الإستقبال أو ربما لسوء استثمار المعلومات.

لم يترك الإنكليز وسيلة استخبارية إلا وسلكوها. كانت جهودهم في هذا المضمار كبيرة، وكانت نتائجها مميزة. لكنهم، من فرط حماسهم، أغفلوا، ربما عن ترفع، استخدام الطرق التقليدية القديمة.

في شتاء ١٩٤٠ - ١٩٤١، تلقت آمي إليزابيت أمراً من جهاز الإستخبارات البريطانية العاملة في الولايات المتحدة الأميركية بالحصول على الشيفرة التي تعتمدها البحرية الإيطالية. كانت آمي هذه أميركية فاتنة الجمال. تزوجت في التاسعة عشرة من دبلوماسي انكليزي. لكنها طلقت منه في ما بعد. وفي الثلاثين من عمرها عينت في الإستخبارات الإنكليزية في أميركا. فور تلقيها الأمر، عملت بحيث اجتمعت بالملحق البحري في السفارة الإيطالية في واشنطن، الأميرال ألبرتو لايس. لم تمضِ أسابيع حتى وقع ألبرتو في غرامها بشكل أفقده كل إرادة. هنا، ودون إضاعة لوقت، طلبت آمي منه مباشرة ومن غير لف ولا دوران أن يعطيها الرمز البحري الإيطالي. قبل ألبرتو، على الرغم من سنه وخبرته، بخيانة بلده من أجل امرأة. تمت العملية بتصوير جميع المستندات اللازمة وإعادة الأصول إلى مكانها في الصناديق

الحديدية أما الصور، فقد أرسلت على عجل إلى لندن.

لم تمضِ شهور إلا وتبين كم كانت رائعة نتائج هذه العملية. حتى أن تشرشل نفسه اعترف بذلك بشكل غير مباشر. بعد أيام من العملية، اعترف لايس لأمي بوجود بعض الخطط التخريبية ضد أميركا. هذا الإعتراف كلفه أن يعتبر شخصاً غير مرغوب فيه في الولايات المتحدة، وأن يطلب منه مغادرة البلاد. على رصيف المرفأ أمام الباخرة التي كانت ستقله إلى بلده، أمضى الدقائق الأخيرة مع آمي غير آبه بدموع عائلته. لقد أتاح رحيل لايس لأمي الإهتمام بمهمة أخرى كان هدفها هذه المرة سفارة حكومة فيشي الفرنسية.

هذه المرة انتحلت آمي شخصية صحفية. وبينما كانت بانتظار مقابلة مع السفير الفرنسي، أمضت الوقت بالتحدث طوال ساعة كاملة مع الملحق الصحفي في السفارة، الكابيتان شارل بروس. كانت هذه الساعة كافية لإيقاع المسكين بحبائلها. وعندما تأكدت من سيطرتها عليه، اعترفت له بأنها عميلة سرية وأغرته لأن يعمل إلى جانبها، مثيرة فيه روح الوطنية مع فرنسا الحرة ضد حكومة لافال. نتيجة لذلك، حصلت من بروس على نسخ من جميع المراسلات التي مرت في السفارة إرسالاً واستقبالاً، كما بدأ يقدم لها نسخة عن تقريره اليومي. هذه النسخ أتاحت للبريطانيين فرصة التعرف، أكثر من ذي قبل، على أسرار الشيفرة الفرنسية. ولكن في آذار - مارس من عام ١٩٤٢، طلبت لندن من استخباراتها في الولايات المتحدة أن تحصل على نظام الشيفرة التي يعتمدها الملحقون البحريون الفرنسيون. وهناك من يظن أن تشرشل كان في أساس هذه الرغبة. فقد كان يرمي إلى شن هجوم على مدغشقر ليمنعها من أن تصبح قاعدة للغواصات اليابانية، وكان يشك في أن يرسل فيشي تعزيزات الى هناك من داكار، اذا ما حصل مثل هذا الهجوم. لذا كانت مراقبة البحرية الفرنسية ومراسلاتها نوعاً من الحذر المطلوب.

بدأت آمي بطلب نظام الشيفرة من عشيقها بروس، فأجابها بأن مثل هذا الأمر مستحيل، لأن رئيس قسم الشيفرة ومساعده يحتفظان وحدهما بهذا المستند. عند ذلك توجهت في اتصالاتها إليهما لكنها فشلت مع الإثنين. لم تيأس، بل بدلت في التكتيك. في إحدى الليالي، توجه العشيقان، آمي وبروس إلى السفارة في وقت متأخر. وحتى يكون دخولهما إليها طبيعياً، وغير مثير لأية ريبة، فقد أقنعا الحارس بمنتهى اللباقة أن إيجاد غرفة شاغرة في فندق بواشنطن أمر شبه مستحيل في زمن

الحرب. وأرفقا خطوتهما هذه بإكرامية دسمة. تكرر ذلك بحيث أصبح أمراً مألوفاً بالنسبة للحارس. وفي أحدى ليالي حزيران - يونيو من عام ١٩٤٢، راهما الحارس خارجين من سيارة تاكسي على أحسن ما يمكن من الإنشراح ومعهما زجاجة شامبانيا. دعياه لمشاركتهما الشرب فلم يتأخر. وبعد دقائق معدودة، كان يغط في نوم عميق. عند ذلك، أدخلا «سائق التاكسي» الذي لم يكن إلا خبيراً في فتح الأقفال المستعصية. ومع ذلك فقد بقي ثلاث ساعات ليكتشف سر فتح الصندوق الحديدي. وهذا ما جعل الوقت متأخراً لتصوير المستندات، مما اضطر الثنائي للعودة بعد يومين.

لكن تكرار خداع الحارس أصبح أمراً مريباً سيما وأن هذا الأخير أصبح يشك في هذه الزيارات المتكررة والليلية إلى السفارة. توقعت آمي أن الحارس لا بد وأن يدخل بعد دخولهما ليرى ماذا يفعلان، فرتبت خطة تزيل كل شكوكه. وهكذا عندما دخل إلى الغرفة حيث كانت مع عشيقها، كما توقعت، إذ به يراها عارية تماماً. ارتبك الرجل وانسحب معتذراً. إثر ذلك، أدخل المتآمران «سائق التاكسي» بواسطة شباك. وبعد وقت قصير فتح الصندوق وأخذ المستندات المطلوبة وسلمها لعميل آخر كان ينتظر في الخارج. وعند الساعة الرابعة فجراً، كانت المستندات قد أعيدت إلى مكانها، بعد تصويرها، ولم يكن بالإمكان لأحد أن يلاحظ أنها تحركت.

لم تفد هذه العملية قضية مدغشقر في شيء. ذلك أنها عندما تمت، كانت الجزيرة قد احتلت. لكنها ساعدت الحلفاء، قبل الإنزال على الشاطىء الإفريقي الشمالي، على مراقبة تحركات - أو بالأحرى غياب تحركات - قطعات الأسطول الفرنسي في كل من تولون وكازابلانكا والإسكندرية.

في هذا السباق المهووس وراء المعلومات التي ترسلها مختلف وسائل الإتصالات، والذي كان المتحاربون والحياديون على السواء يشتركون فيه، لم يكن الأميركيون في المؤخرة. في الأساس، انصبت جهودهم على أنظمة الشيفرة اليابانية. والنتائج المذهلة التي استطاعوا الحصول عليها في هذا النطاق وصل أثرها إلى مسرح العمليات الأوروبي نفسه. وبينما كان الألمان يعتمدون في اتصالاتهم، بصورة خاصة، على الشبكات السلكية التي لا تعطي مجالاً كبيراً للتصدي، كان الدبلوماسيون اليابانيون المعتمدون في برلين وروما وموسكو وليشبونة مقيدين

باستعمال الراديو، وسيلتهم الوحيدة، لإيصال رسائلهم إلى طوكيو. وهذا ما كان يتيح للحلفاء التقاطها.

لقد قدمت الرسائل البرقية التي كان يبثها الملحقون العسكريون الألمان، معلومات قيمة إلى الحلفاء ومنهم الولايات المتحدة الأميركية. لكن هذا النبع جف عام ١٩٤٣ أثر حادثة دلت، بشكل واضح، على أن سرقة المستندات لا يمكن ولا يجوز أن تحل محل التقاط الرسائل كمصدر للمعلومات الإستخبارية. فقد أرسلت الإستخبارات الأميركية عملاء لها إلى السفارة اليابانية في ليشبونة لسرقة أسرار شيفرتها، دون أن تعلم مسبقاً أجهزة الجيش المختصة، التي كانت حتماً ستحذرها من القيام بعمل كهذا من شأنه أن يفسد المكاسب التي حققتها الإستخبارات العسكرية في كشفها لأسرار الشيفرة التي يستعملها اليابانيون. كانت نتيجة هذه العملية أن اكتشف اليابانيون بعض الآثار لدخول الجواسيس الأميركيين، واستنتجوا أن شيفرتهم قد تكون تعرضت للإنكشاف، فسارعوا إلى تبديلها وحرموا أعداءهم من الإطمئنان الذي كانوا ينعمون به لفترة طويلة. وقد بقي الحلفاء حتى نهاية عام ١٩٤٤ يجهدون أنفسهم دون جدوى في كشف رموز الشيفرة الجديدة.

في أواخر سنة ١٩٤٣ زار سفير اليابان في برلين، البارون هيروشي أوشيما، الذي كان يثق به الألمان كل الثقة، حائط الاطلنتيك وخط سيغفريد. ولما كان هذا السفير عسكرياً في الأساس، فقد كتب عن تلك الزيارة تقريراً مفصلاً وقع في حوالي ألفي كلمة. وعندما بث التقرير بواسطة جهاز إرسال ألماني بعيد المدى، في مدينة أسمرة، على شاطىء البحر الأحمر، تمكن الحلفاء من التقاط الرسالة قبل أن تصل إلى طوكيو قاطعة مسافة ثمانية آلاف كيلومتراً على الأقل. ساعدت هذه الرسالة، التي نقلت ترجمتها إلى الجنرال أيزنهاور، على وضع الخطط الخاصة بهجوم الأميركيين على أوروبا. من هذه الخطط، تضليل الألمان عن طريق إيهامهم بأن الإنزال المزمع إجراؤه سيتم على شاطىء مدينة با ـ دي ـ كاليه الفرنسية بدلاً من شاطىء النورمندي، المكان الحقيقي في الخطة للإنزال. وقد اعترف هتلر في ما بعد بأنه خدع، كما كتب تشرشل أن النتيجة كانت رائعة.

لا ريب في أن أي تمويه عسكري يستلزم، لكي ينجح تنسيقاً مرصوصاً بين مختلف الأجهزة صاحبة الشأن، كما يستلزم، وهذا هو الأهم، نظاماً محكماً للشيفرة. كان الأميركيون في الخطة المذكورة يستخدمون جهازاً إسمه سيغابا شبيهاً بالانيغما

ولكن بشكل أكثر تطوراً. وقد انتهت الحرب دون أن يتمكن الألمان من الوقوف على أسرار تلك الآلة. ويروى أن هذه الآلة كانت تحفظ، أوقات راحتها، مجزأة، كل جزء في صندوق حديدي مع صندوق حديدي خاص بالمفاتيح. وذلك كله بالإضافة إلى الحراسة المشددة في الداخل والخارج.

في ليلة الثالث من شباط ـ فبراير من عام ١٩٤٥، أوقف عسكريان أميركيان من الفرقة ٢٨ الشاحنة التي كانا في داخلها أمام أحد البيوت في مدينة كولمار الفرنسية، وأمضيا جزءاً كبيراً من تلك الليلة في أحضان بنات البيت. وعندما عادا إلى الشارع، لم يجدا الشاحنة التي كانت تحوي آلة سيغابا كاملة مع ملحقاتها وخرائطها في صناديق حديدية.

كان وقع الحادثة مريعاً أنبىء أيزنهاور فوراً بالخبر. لقد أحس الجميع بالخطورة، ليس فقط من كشف أسرار صناعة الآلة، بل، بصورة خاصة، من كشف أسرار الرسائل التي تبودلت قبل السرقة. فالعدو أصبح بإمكانه، إذا ما فك رموز تلك الرسائل، أن يقف على نوايا الحلفاء الخاصة بخططهم الحربية في أوروبا.

بعد ثلاثة أسابيع من البحث المكثف والعقيم، جرى تشكيل فريق فرنسي ـ أميركي من المختصين بالتجسس المضاد، مهمته الإنكباب فقط على هذه القضية، وذلك بقيادة الملازم غرانت هيلمن. لم تكن بداية المهمة مشجعة، فقد اختفت أيضاً سيارتان عسكريتان كانتا واقفتين أمام مكتب هيلمن بشكل مريب كاختفاء الشاحنة. لكن الصورة بدأت في التحسن عندما أرسل أيزنهاور أحد جنرالاته للإهتمام بالموضوع. ضاعف هيلمن جهوده وتحقيقاته، ولكن دون جدوى. أخيراً، تلقى ذات يوم من مصدر فرنسي معلومات تفيد بوجود صندوقين من الصناديق الثلاثة المختفية في مجرى ماء بالقرب من سيليستا. وبعد جهود حثيثة، سد المجرى المائي، وأمكن انتشالهما. كما أمكن انتشال الصندوق الثالث الذي وجد غارقاً في الوحل وسط المجرى. وهكذا، انتهت ستة أسابيع من التحريات المهووسة. لكن التحقيق استمر. وقد توصل إلى معرفة الحقيقة بعد أعلان الأجهزة المختصة عن عدم معاقبة أي من المشتركين في العملية. عندها، وبفضل تعاون السلطات الفرنسية، اعترف سائق عسكري فرنسي أنه «استعار» الشاحنة بعد أن فقد شاحنته. وخوفاً من اتهامه بسرقة الصناديق، بعد أن علم بالضجة حولها، رمى بها في المجرى المائي من على جسر فوقه. هذه الحقيقة أثلجت صدر الحلفاء، فتنفسوا

الصعداء بعد أن تأكدوا أن شيئاً لم يصل إلى أيادي الألمان.

بالنتيجة، يمكن التأكيد أن الاستخبارات الحليفة بزت مثيلتها في دول المحور. وأسباب ذلك متعددة. منها ما يعود للعنصر البشري، ومنها ما يعود للتقنية. ويجدر أن لا نغفل أيضاً العنصر السياسي. ولكن، كيف يمكن تعريف أهمية الدور الذي لعبته الاستخبارات في تلك الحرب؟ أحد المؤرخين قال أنها قصرت أمد الحرب لأشهر وربما لسنة كاملة. هذا القول وجد الكثيرين من المعارضين. ومهما يكن من أمر، فأن الإستخبارات، على أهميتها، ليست سوى عنصر مساعد في الحروب. ذلك أن المعارك على الطبيعة هي التي تقرر مصير المتحاربين.

غير أنه ما من شك في أن الاستخبارات كانت، طوال سنوات الحرب، أهم مصدر من مصادر المعلومات. كانت نسبة مصداقيتها أرفع من التجسس المباشر. كما كانت بعيدة النظر أكثر من الطيران، ومعلوماتها أهم مما كان يمكن الحصول عليه من أسرى الحرب.

والحقيقة التي أقر بها قادة كبار من كلا الطرفين، هي أن الإستخبارات أنقذت حياة الكثيرين، ليس فقط من الحلفاء، بل أيضاً من دول المحور، وذلك عن طريق اختصارها للحرب وضمن ذلك، عن طريق إجهاض العديد من المعارك قبل وقوعها. هنا يكمن الفضل، ومن هنا على العالم أن يعترف بالفضل.

الفصل التاسع

بيرل هاربور

في السابع من شهر كانون الأول ـ ديسمبر من عام ١٩٤١، الساعة الواحدة والدقيقة الثامنة والعشرين، التقطت محطة التنصت الأميركية في برندرج أيلند رسالة موجهة من قبل وزارة الخارجية اليابانية إلى سفيرها في واشنطن. كانت الرسالة مقتضبة ولم يستغرق بثها أكثر من دقائق. لذلك إستطاعت الطابعة في قسم فك الرموز أن تترجمها في وقت قصير. وسرعان ما تبين محتواها.

كانت الرسالة تتضمن ما يلي: «يرجى من السفير أن يودع جوابنا حكومة الولايات المتحدة (وزير خارجيتها إذا أمكن) بتاريخ السابع من الشهر الساعة الثالثة عشر بالتوقيت المحلي» و «الجواب» المقصود كتب بالانكليزية من قبل طوكيو وأودع على أربع عشرة دفعة خلال الثماني عشرة ساعة السابقة. كانت الجملة الأخيرة منه مقلقة بعض الشيء: «إن الحكومة اليابانية تأسف أن تعلم حكومة الولايات المتحدة أنها، بالنظر لموقف الاميركيين، لا يسعها إلا أن تلاحظ إستحالة الوصول إلى إتفاق من خلال مفاوضات جديدة». وضع الموظف، الذي التقط الرسالة وترجمها، ملف الرسالة في البريد العاجل الموجه إلى كل من الرئيس ووزير الخارجية ووزيري الحرب والبحرية وعدد من كبار العسكريين.

كان المقدم كرامر، من الاستخبارات الاميركية، مكلفاً بإيصال الرسالة إلى مراجعها. وبسبب فارق التوقيت البالغ ست ساعات بين موقع التقاط الرسالة ومكان ايداعها، وصلت الرسالة إلى السلطات في واشنطن قبل ساعة فقط من إقلاع الطائرات اليابانية من على حاملات الطائرات الخاصة بها. وقد دعت أهمية محتوى

الرسالة كرامر إلى الهرولة في شوارع واشنطن المقفرة في الصباح الباكر والمؤدية إلى البيت الابيض.

لم يمر على الاستخبارات الاميركية يوم كانت فيه اكثر وعياً ونشاطاً من ذلك اليوم. كانت تتسابق مع الزمن دون أن تعلم. ذلك أن التحركات اليابانية لم تلفت النظر إلى أمر غير عادي. وقعت الكارثة دون أن يكون على تلك الاستخبارات أي لوم لتقصير أو اهمال. بل على العكس، فقد أشادت اللجنة التي شكلها الكونغرس للتحقيق في الكارثة بجهود رجال الاستخبارات الذين «برهنوا عن جدارة أعظم الرجال».

عام ١٩٣١، كانت حكومة امبراطورية الشمس المشرقة في قبضة العسكريين المشحونين بروح التسلط وبالرغبة بتأمين الموارد لأمتهم، وكذلك بحقدهم على المدنية الغربية. هذه المشاعر جعلتهم يسلكون سياسة عدوانية. احتلوا منشوريا حيث وضعوا امبراطوراً صورياً يأتمر بأمرهم. وانسحبوا من عصبة الامم. عززوا قواتهم المسلحة واستنكروا معاهدات التسلح البحري، في الوقت الذي كانوا فيه يباشرون تنفيذ خطة طموحة لمضاعفة قوتهم البحرية. ووسط هذا الاهتمام المتعاظم، يوماً بعد يوم، بالشؤون العسكرية، لم يهملوا شؤون الاستخبارات. فسنة ١٩٣٤، اشترت البحرية آلة للشيفرة التجارية من طراز انيغما. وفي السنة نفسها، اعتمدتها وزارة الخارجية اليابانية. وفي ما بعد أصبحت هذه الألة تمثل النظام الأكثر سرية من أنظمة الشيفرة في اليابان. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك نظام الهاتو المعتمد في مراسلات الخارجية مع سائر الوزارات، بالإضافة إلى نظام خاص بكل وزارة.

كانت الصورة التوسعية لليابان تتوضح يوماً بعد يوم. وكان من الواضح أن هذا المخطط لا بد وأن يصطدم بالمصالح الأميركية. لقد وضع اليابانيون الخطوط الكبرى لهجومهم على بيرل هاربور. واضع الخطة هو الأميرال ايزوروكو ياماموتو، القائد الأعلى للبحرية. عام ١٩٤١، أعطى الأمر الأول لدراسة العملية مؤكداً أن الأنتصار على الولايات المتحدة لا يمكن أن يتم إلا بتحطيم اسطولها في مياه جزر الهاواي. وفي أيار ـ مايو، تبين من الدراسات أن هجوماً جوياً مباغتاً ممكن.

مع هذا التوتر المتزايد في المنطقة، تلازم ازدياد نشاط أجهزة الإستخبارات الأميركية. في حزيران ـ يونيو من عام ١٩٤١، تسلم النقيب جوزيف روكفورت

قيادة وحدة الراديو في القطاع البحري رقم ١٤ في هاواي وكان من بين ضباط البحرية الملم الوحيد بفك الشيفرة واستخدام الراديو وباللغة اليابانية. لم يكن النفاذ لأعماق أسرار الشيفرة اليابانية المتنوعة الأنظمة بالأمر السهل. لكن الجهود الحثيثة أوصلت الأميركيين إلى كشف بعض الأنظمة كلياً أو جزئياً. وهذا ما أفاد به سفير ألمانيا في واشنطن وزير خارجيته في ٢٨ نيسان ـ أبريل سنة ١٩٤١، مما استدعى تحققاً ملحاً من صحة الخبر من قبل الأجهزة المختصة في طوكيو. وجاءت النتيجة تؤكد ما أفاد به السفير الألماني. وفي ٣٠ أيار ـ مايو، أعطت الحكومة اليابانية أمراً لجميع سفنها التجارية بأن تكف عن استعمال شيفرتها المعتمدة لأن شيفرة جديدة ستحل محلها.

هنا بدأ خوف الأميركيين من هذا التبدل المرتقب وبالتالي من العودة إلى الصعوبات التي سيلاقونها حتماً في فك رموز الشيفرة الجديدة. وبعد أيام من الإنتظار المقلق، التقطوا رسالة موجهة من طوكيو إلى بعثتها في المكسيك تعلمها فيها أن الأميركيين يقرأون بعض رموزهم وأن الأمر يستدعي أقصى درجات الحذر. تساءل الأميركيون عما إذا كان الحذر وحده يمثل جميع الإجراءات اليابانية المرتقبة. وبعد التمحيص، وجدوا ان اليابانيين اكتفوا بذلك.

في تشرين الأول ـ اوكتوبر سنة ١٩٤١، استقالت حكومة الأمير كونوي وتولى العسكريون السلطة بقيادة توجو، فتلاشى كل أمل بالسلام. وفي الرابع من تشرين الثاني نوفمبر، أبلغ رئيس الوزراء الجديد ممثليه في واشنطن «اقتراحاته المهددة». وفي اليوم التالي، تلقى هؤلاء الممثلون رسالة أخرى تأمرهم باتخاذ كل الإجراءات للحصول على توقيع الاتفاق مع السلطات الأميركية قبل الخامس والعشرين من الشهر كحد أقصى.

في اليوم نفسه، أعطى الأميرال ياماموتو الأمر اليومي السري رقم ١: خطة الهجوم على بيرل هاربور. وفي السابع من الشهر المذكور، عين الأميرال المساعد كويشي ناغومو قائداً للأسطول الأول. وقد سارع هذا إلى توزيع سفنه الإثنتين والثلاثين على المراكز الحساسة طبقاً للخطة المرسومة. في العشرين من تشرين الثاني ـ نوفمبر، أودع السفير الياباني نومورا ومساعده سابورو وزير الخارجية الأميركي رسالة أشبه ما تكون بالإنذار. كانت طوكيو تطلب من واشنطن تغيير سياستها الخارجية وقبولها بغزوات يابانية جديدة وتزويدها بالبترول اللازم ومغادرة الصين

أي، بكلمة واحدة، القبول بمنطق القوة. وبينما كان وزير خارجية أميركا يحضر جوابه على هذه الرسالة، إذ برسالة أخرى موجهة هذه المرة إلى ممثلي اليابان في المحادثات مع واشنطن تأمرهم فيها ببذل أقصى الجهود لتسوية مسألة العلاقات اليابانية الأميركية وتوقيع الاتفاقية قبل التاسع والعشرين من الشهر. وإلا، فالأحداث ستتسارع بشكل آلي. هنا، بدأ الجميع يشعرون أن الأيام أصبحت معدودة وأن العد العكسي قد بدأ بالفعل.

في الخامس والعشرين، أعطى ياماموتو الأمر إلى الأسطول بالتحرك في اليوم التالي. ويوم السادس والعشرين، الساعة السادسة، رفعت السفن الإثنتان والثلاثون، بالإضافة إلى ست حاملات طائرات ومدمرتين، مراسيها وغادرت مياه خليج تونكين الهائجة، لتتوقف شرقاً. لقد تلقت الأوامر بالعودة فوراً من حيث أتت ان مي شوهدت. كان القائد «كازويوشي» على ظهر المدمرة هابي. لم يستطع أحد مشاهدة الأسطول وهو يتوغل شرقاً في الضباب.

في هذا الوقت كان التوتر يتزايد. في ٢٩ تشرين الثاني ـ نوفمبر، نقل البارون أوشيما، سفير اليابان في برلين، عن وزير خارجية ألمانيا قوله أن بلاده ستدخل حرباً ضد الولايات المتحدة اذا اشتبكت اليابان معها. في اليوم التالي، صرحت طوكيو أن الحرب بين اليابان وأميركا أقرب مما يتصوره البعض. وفي رسالة من الخارجية اليابانية إلى سفارتها في واشنطن، تبين أن الأوامر أعطيت للسفارة بإتلاف شيفرتها مع الآلات الخاصة بها اتلافاً تاماً وفوراً. وقد قال سمر ويلز، مساعد وزير الخارجية الأميركية، عندما علم بالرسالة: «هبطت نسبة إمكانية تجنب الحرب من واحد بالألف إلى واحد بالمليون». كما قال بيردال، مساعد روزفلت للشؤون الميدانية، عندما قرأ الرسالة: «سيدي الرئيس، الأمر واضح للغاية». وعندما سأله الرئيس عن تقديره لتاريخ بدء المعركة، أجابه بأن ذلك ممكن في أية لحظة.

كانت الساعة الثالثة عشرة في طوكيو، يوم السادس من كانون الأول ـ ديسمبر، عندما أودعت رسالة اليابان الجوابية، بشأن توقيف المباحثات بين البلدين، مركز الإرسال التابع لوزارة الخارجية، تمهيداً لإرسالها إلى السفارة في واشنطن. فور ورودها إلى المركز قسمت أربعة عشر جزءاً متساوياً وبدىء بتشفيرها. وقد أرفق بالرسالة أمر مشدد إلى السفارة بإيداعها الخارجية الأميركية فور تلقيها. لم

نحن الساعة الرابعة عشرة، بالتوقيت المحلي، حتى كانت الرسالة بترجمتها الكاملة قد وصلت إلى الكولونيل براتون ومنه إلى جميع المراجع المختصة في الجيش الأميركي. مقابل ذلك، أرسل روزفلت إلى الميكادو رسالة كانت مهيأة سابقاً كمحاولة أخيرة في حال فشل المفاوضات، يدعوه فيها إلى اعطاء بعض الوقت للمفاوضات. لكن كل شيء كان قد انتهى.

على متن سفن الأسطول الياباني الراسي في عرض المحيط، قرأ الضباط أمام جنودهم نداء ياما موتو المؤثر التالي: «دقت الساعة. الأمبراطورية في خطر. فلا يدخرن أحد منكم جهداً لأنقاذها». كما بدأت موسيقى «البانزاي» تتردد أصداؤها على سطح المياه الهائجة، ورفع العلم الذي سبق للأسطول الياباني أن رفعه أثناء انتصاره الكبير على الروس في معركة تسوشيما سنة ١٩٠٥.

في السادس من كانون الأول - ديسمبر من عام ١٩٤١، الساعة الثامنة عشرة، وصلت رسالة التقطت فور خروجها من قنصلية اليابان في هونو لولو، إلى مكتب الإستخبارات الأميركية في الجزيرة. كان موقع الرسالة يوشيكاوا. أما محتواها فتفاصيل عن تحرك بعض السفن الأميركية في مياه الجزيرة.

في البيت الأبيض، استغرق الرئيس روزفلت عشر دقائق في قراءة رسالة ياما موتو الموقفة للمفاوضات. رفع رأسه بعد الإنتهاء من القراءة وقال لهاري هوبكنز: «هذا يعني الحرب». فرد هوبكنز بالإيجاب. وطفق الرجلان يستعرضان الوضع من جميع جوانبه، لاسيما لناحية الإستعدادات والإمكانيات المتوافرة لمجابهة الموقف. خلال الحديث، اقترح الرئيس روزفلت رسالة إلى هيروهيتو. لكن هوبكنز كان مخالفاً لهذا الرأي باعتبار أن الحرب أصبحت أمراً واقعاً. وكان رأيه أن تبدأ أميركا بالضربة الأولى. رد الرئيس بأن ذلك مستحيل لأنه مسؤولية دولية وتاريخية كبرى.

طوال طريقه إلى هدفه المرسوم في مخطط المعركة، لم يلق الأسطول الياباني أي نوع من العوائق. فالإستكشاف الجوي منعدم والسفن الأميركية جاثمة تتثاءب في مرافئها. وضع يثير العجب ويدفع على الريبة من أن يكون وضعاً تمويهياً للتضليل.

عندما وصلت عقارب الساعة إلى الخامسة والنصف بتوقيت هاواي، كانت القوة البحرية اليابانية الضاربة على بعد ٢٥٠ ميلاً من بيرل هاربور، كما كان أكثر

من ألفي أميركي يغطون في نوم عميق، والبعض منهم يتسامر، دون أن يكونوا على علم بأن ساعات ثلاثة فقط تفصلهم عن الموت. كان كل شيء هادئاً في وزارة الخارجية اليابانية، كما في مكتب الشيفرة بسفارة اليابان في واشنطن، كذلك في وزارتي الحرب والبحرية. هدير واحد كان سمع فوق مياه الباسيفيك، هو هدير طائرتي استكشاف، يابانيتين انطلقتا للتأكد من أن الأسطول الأميركي لا يزال غارقاً في سباته العميق.

كانت الاستخبارات بين مختلف الأجهزة العسكرية تسعى للتعرف على حقيقة الموقف. وهذا الأمر، مع كل اختصاره وسرعة إنجازه، يتطلب بعض الوقت. فالأمكنة بعيدة والحذر مطلوب والعوائق تبرز من هنا ومن هناك. وبينما أمواج الأثير تتناقل الرسائل ذهاباً وإياباً، طولاً وعرضاً، كانت الطائرات اليابانية التي انطلقت من على حاملاتها تتوجه بأعلى قدراتها الهجومية نحو أهدافها. وفي الوقت الذي كانت فيه الطائرات تحلق فوق بيرل هاربور، كان الوزير الياباني توغو في حضرة الامبراطور يسلمه رسالة روزفلت، ويتلقى منه الجواب الفوري عليها وهو أن رسالة قطع المفاوضات تكفي. ٥١ قاذفة قنابل على انخفاض قليل، ٤٩ قاذفة قنابل على ارتفاع كبيرة ٤٠ طائرة مقاتلة و٤٣ طائرة معترضة وصلت فوق بيرل هاربور في تشكيلات محكمة وفقاً للخطة. أطلق القائد فوشيدا صاروخاً من نوع «التنين الأسود» مؤذناً ببداية المعركة. بعد دقائق فقط، تأكد من نجاح المباغتة وسارع إلى بث الرسالة التالية: «تورا! تورا! تورا!» أي نجاح المباغتة على متن المدمرة آكاجي، كان ناغومو يلتفت نحو الأميرال كوزاكا ويشد على يديه دون أية كلمة.

في واشنطن، كان أوكومورا، موظف الشيفرة في السفارة اليابانية، يضع اللمسات الأخيرة على الرسالة التي سبق لأجهزة الإستخبارات الأميركية أن التقطتها وترجمت محتواها وأوصلتها إلى المراجع المختصة. وهي رسالة قطع المفاوضات. وبينما كان السفير ومعاونه يدخلان البيت الأبيض لتسليم الرسالة إلى الرئيس روزفلت، كان الرئيس يتصل هاتفياً بوزير خارجيته الموجود في مكتبه ينتظر السفير الياباني ليدخل معه مكتب الرئيس. كان صوت الرئيس هادئاً ومتشنجاً في آن معاً. قال: «تلقيت لتوي خبراً يفيد أن اليابانيين هاجموا بيرل هاربور». وعندما سأله الوزير ما إذا كان الخبر مؤكداً، أجاب الرئيس بالنفي.

أدى التأخير في إيداع الرسالة لأن لا يبقى سوى خمس وعشرين دقيقة بين تسلمها وبداية الهجوم. وهو وقت غير كاف لإجراء أية اتصالات من شأنها أن تمنع ما رسم. وهذا التأخير، العائد إلى صعوبات في أجهزة البث والطبع اليابانية، كان في أساس إدانة اليابان في ما بعد والحكم على البعض بالإعدام وهذا لا يمنع من القول إن الجانب الأميركي يتحمل، هو أيضاً، بعض المآخذ في هذا الصدد.

لا يمكن للأميركيين أن ينسوا لحظة وقف رئيسهم في الكونغرس ليعلن ما يلي: «البارحة، ٧ كانون الأول - ديسمبر سنة ١٩٤١، كانت الولايات المتحدة الأميركية عرضة لهجوم مفاجىء وغير مبرر من قبل القوات البحرية والبرية اليابانية». وأضاف مشيراً إلى التأخير في إيداعه رسالة الحكومة اليابانية المتعلقةبتوقيف المفاوضات، وإلى أن محتوى الرسالة لا يفيد إعلاناً للحرب قبل وقوعها، كما تنص معاهدة لاهاي.

نجح الهجوم، وحطمت السفن وهي راسية في المرفأ وجرح الكبرياء الأميركي. لم يكن الأمر بسبب خطأ الإستخبارات ورجالها. فهؤلاء جميعاً أدوا كامل واجبهم وكانوا في مستوى المسؤولية. والعالم اليوم، الذي لم ينس بيرل هاربور، لن ينسى كذلك أن عملية أميركية مضادة، جرت بعد ألف وثلاثمئة وخمسين يوماً، اختصرت الحرب بعد أن ساهمت في هزيمة الفريق الآخر.

الفصل العاشر

حرب الباسيفيك

منذ ذلك الأحد، الذي أطلق فيه فوشيدا من على متن طائرته المحلقة فوق بيرل هاربور برقيته الشهيرة تورا تورا تورا ليعلن نجاح المباغتة، واله الحرب يبتسم للقوات المسلحة اليابانية. لقد حطمت هذه القوات الأسطول الأميركي. وبعد ستة أشهر من الأنتصارات الباهرة، كانت امبراطورية الشمس المشرقة تشغل عشر مساحة الكرة الأرضية، وكان أعداء اليابان قد استؤصلوا من البحار، من رانغون حتى جزر الجنوب. كانت تلك أسرع غزوة في تاريخ البشرية.

تحققت أهداف اليابانيين من الحرب. لم يكن وارداً اجتياح الولايات المتحدة، إنما الحصول على خيرات وموارد المناطق المحتلة والإحتماء وراءها، بحيث تكون خطاً عازلاً بينها وبين أي ضامر للشر. لكن القيادة العليا اليابانية، وقد أثملتها الإنتصارات، طمعت بالمزيد، لاسيما بعد أن رأت أن ما كان متوقعاً أن تخسره من قواتها لم يحصل. فقد بقيت هذه القوات سليمة وبتزايد مستمر عدداً وعدة. كما أنها فضلت توسيع عمق الحزام العازل على الإبقاء عليه وإن مدججاً بالسلاح. لذلك، وضع القادة اليابانيون موضع التنفيذ مخططين طموحين. الأول، الهجوم على بورت مورسبي، وهي مدينة تقع في الطرف الجنوبي الشرقي لغينيا الجديدة، على بعد ٦٥٠ كلم فقط من أوستراليا. والثاني يتركز على ميدواي وهي جزيرة مرجانية صغيرة تقع وسط الباسيفيك، وتصلح نقطة حراسة لجزر الهاواي.

المخطط الثاني هذا كان ذا قسمين: الأول يرمي إلى الإستيلاء على ميدواي ذات الموقع الستراتيجي، باعتبار أن من يحتلها يشرف على الباسيفيك الأوسط وبالتالي، على طرفي حوض المحيط. والثاني، وهو الأهم، يقضي باجتذاب ما تبقى

من الأسطول الأميركي إلى كمين بغية الإجهاز عليه. كان الأميرال إيزوروكو ياما موتو، القائد الأعلى للأسطول الياباني الموحد، يسعى لحرب خاطفة، مدركاً أن الإطالة في أمد الحرب ليست في مصلحة اليابان لأن القوة الصناعية الأميركية تتعاظم باستمرار، ولا يجوز الإنتظار حتى ترمي هذه القوة بثقلها في الحرب. كان يدرك أيضاً أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تترك ميدواي لقدرها، كما فعلت بغويام وويك. وعندما خرج أسطول الباسيفيك الأميركي ليدافع عن ميدواي، انقض عليه ياما موتو وأباده. هذه الكارثة الجديدة أفقدت الأميركيين كل أمل بالإنتصار. لذلك تخلوا عن المجابهة وتركوا اليابان سيدة الباسيفيك الغربي.

كان اليابانيون يجهلون حتى تلك الساعة أن الولايات المتحدة تملك سلاحاً سرياً يمكنه أن يبدل في توازن القوى في الباسيفيك. كان هذا السلاح موضوعاً تحت الأرض في المبنى الإداري للوحدة البحرية الرابعة عشرة في بيرل هاربور. كان محمياً بأبواب مصفحة بالحديد. إنه وحدة الإستخبارات الميدانية التابعة لأسطول الباسيفيك.

منذ شهر أيار - مايو ١٩٤١ والنقيب البحري جوزيف روشفورت على رأس هذه الوحدة، التي كانت مهمتها محصورة بالتقاط الرسائل السرية اليابانية وفك رموزها وإرسال محتوياتها إلى قيادة الأسطول. ثلاثة رجال، بينهم روشفورت نفسه، كانوا يؤمنون العمل. أما الباقون، وعددهم يقارب الثلاثين، فكانوا يشكلون جماعات المتدربين والمعاونين والكتبة والمترجمين. ومنذ آب - أوغسطس ١٩٤١، أصبح هذا المركز يعمل سبعة أيام في الأسبوع، كما أنه منذ تشرين الأول - أوكتوبر، أصبح يعمل ٢٤ ساعة على ٢٤.

بعد الهجوم على بيرل هاربور، تضاعف العمل في هذه الوحدة وأصبح عدد العاملين فيها يناهز مئة وعشرين. وقد اضطر عدد كبير منهم إلى البقاء ثلاثة أشهر متواصلة في الأقبية وذلك منذ بداية الهجوم. لم تكن نشاطات هذه الوحدة دون فائدة، حتى في أصعب الظروف. فقد ساهمت في المساعدة على توجيه الطيران الأميركي في عمليات استنزاف محدودة أدت إلى إغراق بعض قطعات الأسطول الياباني، كما ساهمت في وضع حد لغزو اليابانيين لأوستراليا، ولكن دونما أي تأثير على الخطط اليابانية الموضوعة لكسر شوكة أميركا.

خلال تلك الأيام المحمومة من ربيع عام ١٩٤٢، كان على الإستخبارات

عامة ووحدة الإستخبارات في بيرل هاربور خاصة، أن تقدم مجهودات مضاعفة. ولما كانت السرعة عنصراً أساسياً بالنظر لفيض الرسائل الغامر ولأهمية الظرف ودقته، كان روشفورت ومعاونه داير يعملان، كل منهما وبالتناوب، لمدة إثنتي عشرة ساعة متواصلة في اليوم. لم تكن كل الرسائل تحلل، بل البعض منها فقط. واختيار هذا البعض كان يتم بناء لعناصر عدة، منها عنصر الفراسة التي اكتسبها العاملون في الوحدة بالمراس والخبرة. بعد الأنتهاء من فك الرموز والترجمة والتوضيب، كانت الرسائل تودع القيادة العليا دون أبطاء. والجدير بالذكر، أن الكشف لم يكن دوماً كاملاً. فقد كانت هناك ثغرات عصت على الجميع. هذه الثغرات، كان املاؤها يتم منَ سياق المعنى.

في ٥ أيار ـ مايو سنة ١٩٤٢، صدر عن القيادة الامبراطورية اليابانية العليا الأمر رقم ١٨ إلى البحرية، وهذا نصه: «سيهاجم القائد الأعلى للأسطول الموحد، بالتنسيق مع الجيش، وسيحتل النقاط الأستراتيجية في الجزر الأليوتية الغربية وجزيرة ميدواي». وعلى هذا، فإن أكثر من مئتي سفينة حربية ستشترك في المعركة، من بينها حاملات طائرات ومدمرات وغواصات وكاسحات ألغام. لقد نشطت الأتصالات بالراديو، كلها تتعلق بالتحضير للمعركة، ومعظمها يصدر من قاعدة كور الكبرى ويصب فيها. كانت الخطة تقضي بالتجمع في خليج هيروشيما، وبالخروج في خمس مجموعات رئيسية خلال أربعة أيام وفي مواعيد محددة بدقة. وكلما اقترب الموعد، تزاحمت الرسائل في الجو، مطلقة الأوامر، لاسيما أوامر ياما موتو الذي اتخذ مقراً عاماً له السفينة ياماتو، أكبر قطعة بحرية في الحرب العالمية الثانية.

تأخر موعد وضع نظام الشيفرة الياباني الجديد موضع التنفيذ شهراً آخر، بعد أن كان قد أجل في السابق. فقد كان مقرراً له أول نيسان ـ أبريل. ويبدو أن ازدحام الغزوات وتلاحقها كانا في أساس هذا التأجيل. كما قد يكون اليابانيون قد اطمأنوا إلى عدم كشف نظامهم الراهن من قبل الأعداء، باعتبار ما حققوه من انتصارات لم يروا فيها أي تصدٍ ينبىء بخلاف ذلك. والحقيقة أن الحلفاء تمكنوا من كشف معظم رموز الشيفرة اليابانية، وأن اليابانيين كانوا سيشلون حركتهم لو أنهم وضعوا شيفرتهم الجديدة في أول أيار ـ مايو في التداول. ولو تم هذا التبديل، لتغير مجرى الحرب وربما مجرى التاريخ. ذلك أن الأسابيع التي أبقى اليابانيون فيها على شيفرتهم القديمة ولم يربكوا العدو بالتغيير، كانت أسابيع حاسمة تقرر فيها الكثير من اتجاهات

الخطط في هذه الفترة الأخيرة من سنوات الحرب.

بسبب هذا التأخير، الذي اعتبر نوعاً من العجز، تمكّن الحلفاء من كشف كل ما وضعه اليابانيون وهيأوه لمعركة ميدواي. وهكذا، استدعى القائد الأعلى الأميركي لأسطول الباسيفيك حاملتي الطائرات هورنت وانتربرايز من رأس بحر المرجان، كما استدعى الحاملة بورك - تاون، وذلك عندما استنتج، من خلال الرسائل المتراكمة على مكتبه طوال الأسابيع الأولى من شهر أيار - مايو، أن هجوماً واسعاً يجري تحضيره. لكن أين ستكون المعركة وما هو هدفها؟ معلومات الأستخبارات توقعت غارة يابانية، على دوتش هاربور في الفترة ما بين ٣٠ أيار - مايو و ١٠ حزيران - يونيو. أما نيميتز، فكان يعتقد أن الهدف هو ميدواي، في حين أن الأميرال كينغ، قائد العمليات البحرية، كان يتوقع، من واشنطن، هجوماً على أواهو.

كان ياماموتو يعي تماماً أهمية عنصر المباغتة. كان يعرف أن الولايات المتحدة لا يمكنها الدفاع بفعالية عن كل المواقع. يضاف إلى ذلك ما يعلمه من عدم تكافؤ ميزان القوى. فلدى اليابان أحدى عشرة مدمرة وخمس حاملات طائرات وستة عشر طراداً وتسع وأربعين مقاتلة، في حين لم يكن في الجانب الأميركي سوى ثلاث حاملات طائرات وثمانية طرادات وأربع عشرة مقاتلة، دون مدمرة واحدة.

يوم ٢٠ أيار - مايو، صدر عن ياماموتو أمر ميداني يوضح كل التفاصيل التكتيكيّة للهجوم على ميدواي. وقد تبين من هذا الأمر أن الهجوم سيبدأ في ٣ حزيران - يونيو بعملية الهائية على الجزر الأليوتية بهدف اجتذاب جزء من القوة الأميركية المتمركزة في ميدواي. بعد ذلك، أي في السادس من الشهر، يبدأ عند الفجر الهجوم الكبير على ميدواي. عندها، تكون القطعات العائدة من الجزر الأليوتية هدفاً لصيد ياباني ثمين. وبعد الحصول على هذه الطرائد وأغراقها في مياه المحيط، تكمل القوة اليابانية المهاجمة طريقها لتجهز على ما تبقى من وحدات متمركزة في ميدواي. وبهذا تكون اليابان قد انهت ما بدأته في ٧ كانون الأول - ديسمبر في بيرل هاربور، وأمنت أشرافاً كلياً على كامل الباسيفيك مهددة جزر الهاواي. كما تكون قد ربحت كامل الحرب بشكل سلمي.

لكن ما غاب عن بال ياماموتو هو أن أمره الميداني هذا قد كشف من قبل استخبارات الحلفاء. صحيح أنه كان طويلاً ومتضمناً بعض الثغرات، لكن أجزاءه

المترجمة كانت تصل القيادة العليا الأميركية تباعاً وفور انجازها.

غير أن مكان وزمان الهجوم ظلا موضع الشك. فالواقع أن ذكر تاريخ وموقع الهجوم دون في الرسائل حسب نظام مخالف متعدد الأبجديات. ولم تفلح المحاولات الحثيثة في جلائهما. لذلك، فضل رجال الاستخبارات الأميركيون تجاوزهما، والتركيز على الجوهر. غير أن هذا الموقف اعتمد على القادة العسكريين الذين انكبوا على استنتاج توقيت المعركة ومكانها. بالنسبة للتوقيت فإن سرعة التحركات العسكرية اليابانية سواء على الصعيد البحري أو على الصعيد الجوي مكنت هؤلاء القادة من معرفته وإن على وجه التقريب.

أما بشأن السؤال أين ستكون المعركة، فإن الجواب عنه سرعان ما استنتج. لقد تضمنت الرسائل المتبادلة والعائدة لموضوع المعركة نقاط ارتكاز. هذه النقاط شكلت، عندما جمعت، خريطة واضحة. والخريطة هذه اظهرت أن الهدف الأول المقصود هو ميدواي.

لكن كبار القادة لم يكونوا مرتاحين كل الأرتياح لمثل هذه الخريطة ترسم من خلال مثل هذه الاستنتاجات. ومرد هذا الشك وذلك الحرص هو أن مصير كل من الأسطول الأميركي والحرب بكاملها مرتبط بما يدبر في الخفاء لدى الطرف الآخر. لذلك كان اليقين هو المطلوب. وبغية الوصول إلى اليقين، لا بد من حيلة. قرر روشفورك أن يلعب ورقة. أوعز إلى الإستخبارات الأميركية أن تبث رسالة مكشوفة إلى بيرل هاربور بأن مياه الشفة في ميدواي مقطوعة بسبب عطل أصاب محطة التكرير. انتظر رجال الأستخبارات ليروا ردة الفعل اليابانية. بعد يومين، التقطوا، في جملة ما التقطوا من رسائل يابانية سرية، رسالة تفيد أن مياه ميدواي مقطوعة. هذه الرسالة فضحت نية اليابانيين في احتلال ميدواي، وإلا لما كانوا أوردوا نبأ انقطاع المياه فيها في رسالة لسفنهم المتحركة نحوها وسط المحيط.

في ٢٧ أيار - مايو، كان القائد الأميركي نيميتز يعرف عن العملية التي يزمع اليابانيون القيام بقدر ما يعرفه قادة السفن التي ستقوم بالهجوم. لكن النقطة المتبقية ظلت التحديد الدقيق لتاريخ البدء.

صحيح أن الاستنتاجات أجمعت على أن هذا التاريخ سيكون يوم ٣ حزيران - يونيو. لكن الاستنتاجات، وإن كانت ملامسة لليقين، فالتأكيد الجازم شيء آخر.

وهذا الآخر هو الآن المطلوب.

في مكاتب الإستخبارات الواقعة تحت الأرض، أصبحت الرسائل الملتقطة نادرة بعد أن أسكت اليابانيون الراديو الخاص بهم، تمويهاً لتحرك أسطولهم وتضليلاً للعدو. هذا الأنخفاض في عدد الرسائل أتاح لكل من روشفورت ورايت التفرغ بعض الشيء. غير أنهما، بدلاً من أن يرتاحا، عمدا إلى مراجعة ما استعصى عليهما من رموز في رسائل سبق وترجمت. وبينما هما في هذه الحال، إذ يأتي رايت إلى روشفورت مؤكداً له أنه وجد ما ينشد. أشار عليه روشفورت أن يبلغ رؤساءه، لاسيما نيميتز ففعل، وهكذا أصبح نيميتز يعرف أن اليابانيين سيهاجمون الجزر الأليوتية في ٢ حزيران - يونيو، ومن ثم سينتقلون إلى ميدواي في اليوم التالي. هنا حصل الأرتياح. فالتاريخان لا يعتور صحتهما أي شك.

لم يعد يبقى أكثر من أيام على اليوم الموعود. لقد وصلت حاملتا الطائرات هورنت وانتربرايز إلى بيرل هاربور. وفي اليوم التالي، كانت يورك تاون تدخل متثاقلة المرفأ. فقد أصيبت بقذيفة وهي بحاجة إلى إصلاح. وإصلاحها يحتاج، في الظروف العادية إلى ثلاثة أشهر. لكن نيميتز أعطى الأوامر المشددة بأن يجري إصلاحها في أقصى سرعة ممكنة. وقد تم ذلك، وإن مؤقتاً، بوقت لم يتعد يومين. في ٢٧ أيار - مايو، أبرق إلى الوحدات البحرية المختصة يعلمها بأن هجوماً على ميدواي يمكن أن يحصل في القريب العاجل، ويعطيها التعليمات اللازمة للتهيؤ للهجوم المضاد. ذلك أن عنصر المباغتة، الذي وضعه العدو في مقدمة اعتباراته، من شأنه أن يجهض بهجوم مباغت سابق، تكون من نتائجه ضعضعة صفوف العدو عن طريق الضربة الأولى. هنا، يقتضي الاعتراف بفضل الإستخبارات، التي لولاها لما استطاعت القوات الأميركية من التعرف على خطط اليابانيين وبالتالي، من وضع الخطط المضادة لافشالها.

إتخذت حاملات الطائرات الثلاثة مواقعها في ٢ حزيران. في هذا الوقت، كان اليابانيون قد انتهوا من وضع النظام الجديد لشيفرتهم موضع التنفيذ. وبذلك أغلقوا أمام عدوهم النافذة التي كان يرى النور ويتنشق الهواء من خلالها. لكن ما كشف قد كشف وما وضع من خطط مضادة قد وضع.

بناءً على الخطة المتوقعة، بدأ اليابانيون بالهجوم على الجزر الأليوتية. وبغية حماية قواته في ميدواي وكذلك مناوشة اليابانيين، أرسل نيميتز ببعض قطعاته إلى

موقع المعركة في تلك الجزر، وسلم قيادتها للأميرال روبرت ثيوبالد. كان هذا يظن، شأنه شأن كثير من الضباط، أن اليابانيين ربما ضللوا الأميركيين برسائلهم التي ضمنوها خططاً مزعومة بهدف استجلاب قواهم لمواقع غير المواقع الفعلية للمعركة. وقد ساهم في هذا الظن ما التقطته أجهزة الراديو الأميركية، ذات يوم، من أوامر أعطاها أحد القادة اليابانيين إلى رجاله في رسالة مكشوفة بإرسال بريده بعد ٥ حزيران - يونيو إلى ميدواي. يضاف إلى ذلك أن نيميتز نفسه حذر رجاله، في أحد اجتماعاته بهم، من أحابيل العدو قائلاً: «اليابانيون خبراء في ممارسة فنون التمويه والتضليل». كل هذا جعل ثيوبالد لا يأخذ في الأعتبار كل ما أعطته الإستخبارات من استنتاجات وتأكيدات. لقد وزع قواته بحيث يتصدى لأنزال توقعه في دوتش هاربور. لكن خيبة أمله كانت كبيرة كذلك خسائره. لم يصدق ظنه بل ظن الإستخبارات. ولم يجر اليابانيون عملية أنزال في دوتش هاربور، بل قصفوها من بعد. وبعد أن حطموا فيها ما حطموا، وكان جسيماً، انسحبوا دون أن يزعجهم أحد.

في صبيحة اليوم نفسه، انطلقت طائرة استكشاف أميركية من ميدواي لتفتش عن سفن العدو. لكن الضباب كان كثيفاً مما حجب الرؤية عن الطائرة وجعل القصف المدفعي المنطلق من شواطىء ميدواي دون فاعلية، على الرغم من وجود حاملات الطائرات اليابانية الأربعة أكاجي وكاغا وهيريو وسوريو قبالة الجزيرة وسط الضباب. في هذه الأثناء، انطلقت الطائرات اليابانية من على حاملاتها الأربعة في غارة أولى على ميدواي. لم تحقق هذه الغارة هدفها. لذلك، أعطت إشارة إلى قواعدها في الحاملات، تبلغها أنها ستقوم بغارة ثانية.

حتى هذه اللحظة، لم يكن اليابانيون قد شاهدوا أية قطعة بحرية أميركية. ربما لأنهم لم يسعوا إلى ذلك ليقينهم بعدم وجودها. كان قائد الحملة الياباني، ناغومو، قد قام بتجميع معظم طائراته في بيرل هاربور منتظراً المكان الذي سيتحرك إليه العدو لينقض عليه. بعد خمس عشرة دقيقة، تلقى معلومات جعلته مشدوهاً: «شوهدت قطع بحرية للعدو في الطرف الشمالي الشرقي». أمر غير متوقع، من شأنه تعديل الخطة. قام ناغومو فوراً بإلغاء أمر أعطاه منذ دقائق لأسطوله بالتهيؤ للضرب، وأعطى أوامر أخرى عاجلة بإبدال القنابل الحارقة، التي وضعت لتوها في فوهات المدافع، بقنابل طوربيد وقنابل خارقة، سبق أن نزعت منذ قليل. لم يكن

هذا العمل قد انتهى عندما كانت الطائرات العائدة من ميدواي تحط تمهيداً لأطلاق سواها.

في هذه اللحظة، وبينما الطائرات كلها جاثمة على الأرض تتزود بالوقود والقنابل وسط زحمة الأرصفة والمستودعات، إذ بالطائرات الأميركية تصل في دفعات ثلاثة من على حاملات الطائرات هورنت وانتربرايز ويورك تاون، فاستقبلت على الفور بطائرات زيرو اليابانية وبالدفاعات الجوية. كانت الخسائر، خلافاً للمتوقع، جسيمة. لم تستطع طائرة منها تسجيل أية ضربة مباشرة. واعتبرت هذه اللحظة أعظم اللحظات في ما حققه اليابانيون من انتصارات طوال الحرب العالمية الثانية. حتى أن ضباطهم اعتبروها اللحظة الحاسمة في معركة ميدواي وبالتالي، في وضع حد للحرب.

لكن في غضون ست دقائق، انقلبت الموازين. لقد انقضت الطائرات العائدة من معركتها الفاشلة على حاملات الطائرات اليابانية أكاجي وكاغا وسوريو الجاثمة بأمان في عرض المحيط. أغرقتها كلها وأغرقت معها ما كان عليها من طائرات. واعتبرت هذه العملية ثأراً لبيرل هاربور.

غير أن الخسائر، والحرب كر وفر، عادت وتوازنت. أغرق اليابانيون حاملة الطائرات الأميركية يورك تاون، بعد أن كان الأميركيون قد أغرقوا الحاملة اليابانية الرابعة هيريو. كل ذلك في يوم واحد. في اليوم التالي، ألغى ياماموتو أوامره بالهجوم على ميدواي وانتقل إلى الدفاع. كانت تلك اللحظة تاريخية للقادة اليابانيين. فقد تراجعوا عن كل خططهم بالتوسع والغزو ووضعوا حداً لطموحاتهم المهووسة. وما قاله يوماً ياماموتو إلى الأمير كونوي بأن أمل اليابان بالانتصار يتلاشى كلما طال أمد الحرب صحيح. أمام قوة أميركا الصناعية المتعاظمة يوماً بعد يوم، امكانيات صناعية يابانية يدب فيها الوهن يوماً بعد يوم. لذلك كله، يمكن القول أن قدر اليابان رسم في ٤ حزيران يونيو، يوم معركة ميدواي الشهيرة.

«في ميدواي هذه، كانت الإستخبارات هي المنتصر الأكبر». هذا ما قاله نيميتز في ما بعد. وأضاف: «حاول اليابانيون مباغتتنا فبوغتوا هم». أما الجنرال مارشال، فقد كان أكثر وضوحاً عندما قال: «بفضل الاستخبارات، تمكنت قواتنا من انتظار العدو في الموقع المناسب ولولاها لبقيت هذه القوات غافلة على بعد

مسافات شاسعة من الهدف المرسوم للضربة». كل هذا يعني أن رجال الاستخبارات كانوا الأدوات التي صنعت قدر أمة، لا في طرف واحد، بل في الطرفين معاً. كانت معركة ميدواي بداية لأفول نجم امبراطورية الشمس المشرقة.

كما كانت للبحرية استخباراتها، كذلك كان للجيش استخباراته الخاصة به، مع رجلها البارز سبنسر أكين، الذي كان يعمل تحت أمرة ماك أرثر. عملت هذه الإستخبارات دون توقف طوال الحرب. لاسيما في سنواتها الأخيرة. وأحياناً كانت مراكزها المنتشرة في كثير من الأمكنة عرضة لهجمات من العدو. كما حصل في أواخر عام ١٩٤٤، عندما هاجمت قوة يابانية من المظليين مركزاً من هذه المراكز لاعتقادها أنه مركز قيادة، لكثرة ما رأت على سطح بنائه من هوائيات. ومرة أخرى، سمع بعض العاملين في مركز للإستخبارات في كوخ منعزل طلقات نارية غزيرة ظنوا أنها تستهدفهم. حملوا بندقياتهم وتهيأوا للمعركة التي لم تجر إلا أنهم تحسبا لكل مداهمة، قاموا بإحراق جميع المستندات الموجودة في حوزتهم.

أما عن الإستخبارات في الطرف الياباني، فتاريخها، هي أيضاً، حافل لقد بدأت البحرية الأمبراطورية بالإهتمام بها منذ عام ١٩٢٥، وذلك بإنشائها «القسم الخاص»، الشديد السرية، ضمن الفرقة الرابعة، فرقة الأتصالات، التابعة للقيادة العليا للبحرية. كان هذا القسم يضم ستة عناصر، وكان مركزه في وزارة البحرية في طوكيو. من ألمع العاملين فيه، لا يزال يذكر اثنان: ضابط البحرية ميدايا موريكاوا، ابن أخت الاميرال كانجي كاتو، القائد العام، والملازم كامنسوجي، الذي كان ضابط الشيفرة في السفينه الحربية ناغاتو.

بدأ هذا الفريق بالإهتمام بالشيفرة الصينية أثر حادثة منشوريا، بصورة خاصة. وبعد الاستيلاء على شانغهاي عام ١٩٣٢، عين موريكاوا رئيساً لوحدة استخبارات ملحقة بالاسطول الثالث. وقد بدأ عمله هذا بفك شيفرة رسالة صينية تظهر نية الصينيين باستخدام قواتهم الجوية للهجوم على تجمعات عسكرية يابانية. لكن هؤلاء بدأوا الضربة الأولى محطمين معظم طائرات تشانغ - كاي - تشيك في هانغ - تشو.

لكن «القسم الخاص» لم يتوصل إلى اكتشاف أسرار شيفرة البحرية الأميركية ولا حتى شيفرة وزارة الخارجية الأميركية. كما لم تتوصل إلى فك رموز شيفرة ياردلي

عندما عمل في خدمة تشانغ - كاي - تشيك، إلا في ظروف استثنائية ملائمة. وهذا ما جرى في ٢٦ شباط - فبراير سنة ١٩٣٦ عندما ثارت فرقتان عسكريتان في طوكيو واغتيل عدد من رجال الدولة في حركة انقلابية. في ذلك الظرف، كثرت الرسائل اليابانية واكتشف من خلالها بعض المفاتيح. كما حصل الشيء نفسه في الجانب الياباني، حيث استطاعت الإستخبارات قراءة معظم البرقيات الأميركية، بما فيها برقيات الملحق البحري في طوكيو. بعد ذلك بدلت أميركا أنظمة شيفرتها وبدا، مرة أخرى، أن الإستخبارات اليابانية دون مستوى المهمات الملقاة على عاتقها. غير أن عملية تجسس خاصة عدلت الموقف بعض الشيء. ففي أواخر عام ١٩٣٧، قام موريكاوا، مصحوباً بفاتح أقفال ومصور وبعض المراقبين، بتصوير بعض هذه الأنظمة في القنصلية الأميركية في كوبا.

خلافاً لرجال الإستخبارات الأميركيين الذين كشفوا معظم أنظمة الشيفرة اليابانية بما فيها «السرية جداً»، فإن زملاءهم اليابانيين فشلوا فشلاً شبه تام في محاولاتهم كشف ما يمكن تنويرهم من الرسائل الأميركية. حتى أنهم لم يحاولوا قراءة البرقيات ذات الطابع المعقد والمتبادلة بين القيادات العليا.

لقد ركزوا جهودهم على ثلاثة أنظمة بسيطة. ومع ذلك، فإنهم لم يسجلوا، في هذا النطاق، إلا تقدماً محدوداً.

غير أن الجدير بالذكر هو أن «القسم الخاص» الياباني نجح في قراءة الشيفرة المستعملة في البحرية التجارية للحلفاء. لقد توصل إلى كشف ما يقارب نصف الرسائل الملتقطة. وقد ساعده الألمان، من خلال ما اكتشفوه في الطراد أتلنتس، الذي سبق وأغرقوه. لهذا، تمكن اليابانيون من الحصول على نتائج جيدة في قراءتهم للنظام التجاري الحليف الذي كان يعتبر معقداً نسبياً. غير أن المعلومات المتبادلة بواسطة هذا النظام كانت شحيحة، كما كانت تصل متأخرة، مما قلل من أهميتها.

ركز «القسم الخاص» اهتمامه على «نظام الأشرطة» الذي كانت تستعمله البحرية الأميركية لمراسلاتها العادية. وقد استطاع هنا كشف أسرار الجهاز الخاص بفك شيفرة هذا النظام. غير أن الصعوبة التي اصطدم بها كانت تكمن، كما ذكر في ما بعد ساتاك، في أن «كل تحليلنا كان يرتكز على فرضيات. لا شيء كان محدداً تحديداً دقيقاً». قد يكون في هذا بعض العذر. فالرسائل الأميركية المتبادلة في الجو

وتحت الماء كانت من الغزارة والتنوع مما كان يربك أي جهاز استخبارات في أي مكان من العالم آنذاك. ناهيك عن الصمت المتعمد الذي كان كثيراً ما يلجأ إليه الراديو الأميركي بهدف التمويه. صحيح أن اليابانيين عرفوا مسبقاً أن الأميركيين يتهيأون لعملية إنزال في الفيليبين، لكنهم لم يستطيعوا تحديد الوقت ونقطة الإنزال. مرة واحدة خلال أربع سنوات، استطاعوا كشف معركة في جزر مارشال، مما أتاح لهم التصدي لها في الوقت المناسب.

لقد تهيأ اليابانيون للحرب مع أميركا وجهزوا لها كل إمكانياتهم. من هنا، كان ينتظر منهم أن يحققوا نتائج باهرة. لكنهم، على الرغم من النجاحات البارزة في بعض المعارك، فإنهم لمسوا متأخرين نقطة ضعفهم التي عبر عنها الجنرال سيزو أريسو، رئيس إستخبارات الجيش الياباني عندما قال للأميركيين في ما بعد: «لم نتوصل إلى معرفة أنظمة الشيفرة الخاصة بكم».

نظرياً، كانت وسائل الترميز اليابانية جيدة. لكنها عملياً كانت متخلفة تخلفها في فك الرموز. وقد يكون سوء التنظيم والتوزيع وإحكام السرية في أساس هذا الفشل.

في ١٥ حزيران يونيو سنة ١٩٤٤، قامت البحرية اليابانية بعملية ضخمة ضد الأسطول الأميركي الذي كان يساند الإنزال في جزر ماريان. كانت حاملة الطائرات اليابانية تايهو تحمل شيفرة غاية في السرية مخصصة لحماية الإتصالات مع قيادة الأسطول الموحد العليا. بعد أربعة أيام من العملية، أصيبت بقذيفة طوربيد مزقت مستودعات الوقود فيها. بعد قليل حدث انفجار في داخلها سببته أبخرة البنزين، وكان من جرائه أن أتلفت جميع أجهزة الإرسال بما فيها الشيفرة نفسها. وقد تراكمت باتجاهها الرسائل المستعجلة الآتية من القيادة العليا، مما كشف سر ما حدث فيها من قبل جميع السفن المتواجدة في المحيط. من بين هذه الرسائل واحدة تشير إلى ملاحقتها من قطعة أميركية. نتج عن كل هذا أن هوجمت حاملة الطائرات المصابة وأغرقت كما أغرقت معها حاملة طائرات أخرى. وهذا ما أدى إلى فشل اليابانيين في تلك المعركة وبالتالي، إلى فقدهم جزر ماريان.

على الرغم من كشف الحلفاء لأنظمة الشيفرة اليابانية، فإن هؤلاء ظلوا متعنتين في اعتقادهم بأن ذلك لا يمكنه أن يحصل. وتعنتهم هذا عائد، بنظرهم، إلى سببين

اثنين: الأول هو صعوبة لغتهم بالنسبة للأجانب، والثاني رفضهم الإعتراف بأن أحداً يمكنه كشف أنظمتهم. كانت هنالك دلائل ميدانية عديدة بأن تصورهم هذا خاطىء. ولكن، وفي هذا بعض الغرابة لم يتزحزحوا عن موقفهم، واستمروا فيه حتى نهاية الحرب.

سنة ١٩٤٣، حصل حادث أبرز عدم كفاءة الإستخبارات اليابانية. فقد انشطرت سفينة حربية كان على متنها إثنا عشر رجلاً من بينهم الملازم جون كينيدي، الذي أصبح رئيساً للولايات المتحدة في ما بعد. سبب الإنشطار اصطدامها بطراد ياباني على بعض البعد من الشاطىء. حصل حريق بسبب الإنشطار. وهذا ما أتاح لأحد المخبرين الأوستراليين التابعين للبحرية الملكية الأوسترالية، بأن يشاهد السفينة وهي تلتهب وسط الظلام الحالك في ليل الثاني من آب ـ أوغسطس من العام المذكور. سارع هذا المخبر إلى بث رسالة إلى مركز الإستخبارات يعلمه فيها بالنبأ. عند ذلك توالت الرسائل من كل الجهات المختصة، وكانت من الغزارة بحيث كان على اليابانيين أن يتنبهوا للأمر ويتعقبوا رجال السفينة الذين توجهوا سباحة إلى الشاطىء وتوغلوا خلف خطوط العدو. لكن الغريب أنهم لم يأبهوا للأمر. وكانت النتيجة أن أنقذ الرجال الإثنا عشر بواسطة فريق أميركي أرسل لنجدتهم وعاد معهم دون أن يشاهدهم أحد. كل ذلك يدل دلالة واضحة على أن الاستخبارات اليابانية لم تكن بالمستوى المطلوب في حرب من وزن الحرب العالمية الثانية. ولو كانت خلاف ذلك، لتغير حتماً مجرى التاريخ المعاصر.

هذا الواقع، الذي كانت الاستخبارات اليابانية تتخبط فيه، هو بالمقارنة، عنصر من عناصر النجاحات التي حققتها استخبارات الحلفاء. لقد استطاعت الغواصات الحليفة إغراق ثلثي البضائع التي نقلتها الأساطيل التجارية اليابانية خلال الحرب. مما أدى إلى مضايقات جدية في المحروقات كانت نتائجها معيقة لتحرك العدو في البحر والجو والبر معاً. وبعد الحرب، صرح توجو أن تدمير الأسطول التجاري كان واحداً من أسباب الهزيمة الثلاثة. السببان الآخران هما: الأول استراتيجية قفزة الخروف، التي تقضي بالإستيلاء على بعض الجزر المتباعدة وقطع طرق المواصلات على الأخرى الواقعة بينها، والثاني سرعة العمليات من قبل حاملات الطائرات.

انتصار آخر سجلته الإستخبارات الأميركية. بعد قليل من وصول ماك آرثر

إلى لايت، كشفت الإستخبارات عن أن أربعين ألف رجل هم في طريقهم لمساندة القوات اليابانية في الفيليبين. تحركت القوات البحرية والبرية، ولم يستطع رجل واحد الوصول إلى لايت. وخلال معركة أوكيناوا، التقطت رسالة تتضمن أمراً إلى المدمرة العملاقة ياماتو، التي كانت حمولتها تبلغ إثنين وسبعين ألف طن والتي يبلغ مدى مدافعها خمسة وثلاثين كيلو متراً، بالخروج لعملية دفاع ملحة. ما كان من السلطات العسكرية الأميركية إلا أن أعطت أوامرها لتحديد موقع المدمرة والإنقضاض عليها. وهكذا، تتالت موجات الغارات، الواحدة تلو الأخرى، بدأت هذه الموجات تنقض على الهدف في ٧ نيسان-ابريل سنة ١٩٤٥ الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثانية والثلاثين. وقد اغرقت في غضونها أكبر مدمرة في العالم بعد ان تتالت فيها الإنفجارات، وغرق معها ٢٤٨٨ ضابطاً. وبحاراً من أصل ٢٧٦٧ كانوا يشكلون طاقمها.

خلال عام ١٩٤٣ حصلت عملية استخبارية، اعتبرت من العمليات البارزة في هذا المضمار. ففي ربيع هذا العام، توجه الأميرال ايزورروكو ياماموتو إلى رابول في جزر سليمان ليشرف بنفسه على الوضع الذي كان يسوء هناك. لم يكن قد مضى وقت طويل على دحر اليابانيين من غوادا لنكال، وخطوط تموينهم كانت تتعرض باستمرار لغارات الطائرات الأميركية. جمع ياماموتو أكبر أسطول جوي عرفته الحرب وأطلقه ضد الحلفاء مسجلاً بذلك بعض النجاحات التكتيكية. وبغية التحضير لعمليات هجوم لاحقة، أجرى جولة في شمال الجزر ليرفع من الروح المعنوية وليطلع على حقائق الأمور في آن معاً. وقد أخطرت هذه القواعد بالزيارة لتكون مستعدة لاستقبال القائد الأعلى للأسطول الموحد. وفي ١٣ نيسان - أبريل، الساعة السابعة عشرة والدقيقة الخامسة والخمسين، بثت قيادة الأسطول الثامن رسالة إلى جميع قادة الوحدات المعنية بالخط الذي سيسلكه ياماموتو، وذلك بواسطة الشيفرة التي تستعمل في الأمور السرية جداً.

لكن المؤسف هو أن اليابانيين لم يكونوا على علم بأن شيفرتهم هذه قد كشفتها الإستخبارات الأميركية منذ زمن. ساهم في ترجمة تلك الرسالة جهابذة الإستخبارات في ذلك الحين أمثال لاسويل وداير ورايت. وبعد إتمام عملية الترجمة، اتضحت دقائق ياماموتو بالزمان والمكان بشكل لم يسبق لرسالة مماثلة أن فعلته. والمعروف عن ياماموتو أن مواعيده دقيقة للغاية فقد كان يطبق برامجه آخذاً بالإعتبار الثواني قبل الدقائق. هذه الرسالة كانت أشبه شيء بإعلان نعي لأكبر قائد

من قادة العدو. والمسألة التي طرحت، هي ما إذا كان من الأنسب القضاء على ياماموتو أم لا، بعد أن هيئت الظروف الملائمة لذلك. لكن من سيخلف ياماموتو وهل سيكون خليفته أكثر صلابة وأعلى مقدرة منه؟

كان ياماموتو، البالغ تسعاً وخمسين سنة، الشخصية المهيمنة في البحرية اليابانية. هو الذي صنع القوة الجوية الضاربة. وهو الذي يملك الخطط الجريئة للتصدي للعدو. كان يحب في العشرينات أن يقارع الأميركيين في لعبة البوكر. فقد في الحرب إثنين من أصابع احدى يديه. كانت الاستخبارات الأميركية تصفه بالموهوب والحيوي والنبيه. أما رجاله فكانوا يحبونه لدرجة العبادة. وقد كتب في ذلك فوشيدا، قائد معركة بيرل هاربور، يقول: «لو أن انتخابات جرت في صفوف ضباط البحرية اليابانية في بداية الحرب لاختيار قائد أعلى للأسطول الموحد، لما اختاروا إلا الأميرال ياماموتو، وبأغلبية ساحقة».

استقر رأي لايتون على أن شخصية ياماموتو كانت استثنائية في كل نطاق، وعلى هذا، فإن غيابه سيضعضع معنويات اليابانيين، سيما وأن هؤلاء يؤلهون قادتهم أكثر بكثير مما يفعله الغربيون. وكان نيميتز يرى الشيء نفسه وربما كان الحقد على مخطط معركة بيرل هاربور هو الذي دفعهما إلى مثل هذا الموقف، الذي يأتلف مع رغبة الأميركيين بالثأر للصفعة الموجعة التي تلقوها في تلك المعركة المشؤومة. وقد ساعد على هذه المشاعر السلبية المتأججة، ما قاله ياماموتو مرة بكل استعلاء وصلف من أنه سيذهب إلى البيت الأبيض ليملي على الأميركيين هناك سلاماً يريده هو. كان ياماموتو بالنسبة للأميرال وليم هالسي الشخصية رقم ٣ في لائحة أعداء الولايات المتحدة من اليابانيين، وذلك بعد هيروهيتو وتوجو.

ومن غريب الصدف أن المنطقة التي كان سيقطعها ياماموتو، حسب المخطط المرسوم في الرسالة، تقع في القطاع الذي يسيطر عليه هالسي، الذي وجه إليه نيميتز رسالة شخصية سرية يعلمه فيها بخط سير ياماموتو ويأمره بإسقاط الطائرات اليابانية إن هو استطاع. كان هالسي وقت إرسال هذه الرسالة في أوستراليا. إلا أن مساعده ويلكنسون كان على أتم الإستعداد لمثل هذا العمل، لكنه لفت نيميتز إلى أن تنفيذ هذه الأوامر يعني خلق الريبة في نفوس اليابانيين بأن شيفرتهم مكشوفة من قبل الحلفاء. مما يحرم هؤلاء في المستقبل من معلومات قد تكون أهم وأجدى. لكن نيميتز اعتبر أن عصفوراً في اليد خير من عشرة على الشجرة. ومع ذلك، فقد أخذ

في الإعتبار ما جال في ذهن ويلكنسون: لجأ إلى التمويه عن طريق التضليل بشأن مصدر معلوماته عن خط سير ياماموتو. فقد سبق للاستخبارات الأوسترالية أن كشفت الرسالة اليابانية. لذلك، أدخل ويلكنسون في روع الجميع أنه استقى معلوماته من الأوستراليين، كما جعل اليابانيين يفهمون ذلك. وزيادة في الاقتناع، وضع الأميركيون في اعتبارهم أن لا تنطلي الحيلة على اليابانيين وأن يلجأوا إلى تغيير شيفرتهم. وهنا لن يكون من الصعب كشف الشيفرة الجديدة. بعد كل هذه الحسابات، أكد نيميتز أوامره إلى ويلكنسون في رسالة ذيلها بعبارة شخصية: «حظ سعيد وصيد ثمين». وهكذا، جرى التصديق على حكم اعدام ياماموتو.

وبعد ظهر السابع عشر من شهر نيسان - ابريل من عام ١٩٤٣، بدأت الاستعدادات العملية للتنفيذ، كانت دقة مواعيد ياماموتو عاملاً هاماً من عوامل النجاح. وعند الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، انطلقت الطائرات الأميركية المغيرة في تشكيلات مختلفة الأعداد والارتفاعات. كانت المعركة غاية في الدقة والتنظيم. كيف لا والهدف لا يقبل أي خطأ. كيف لا وأي خطأ يفوت أكبر فرصة قد لا تعوض اطلاقاً.

بعد ساعات لم تطل، كانت فرقة من الكشافة اليابانيين تعثر على جثة ياماموتو محترقة في أدغال بوغانفيل ومحنية على سيف الساموراي. أعلن النبأ في ٢١ أيار - مايو من راديو طوكيو. كانت الصدمة مذهلة. وما جرى توقعه قد حصل. فاليابانيون خسروا في ياماموتو قائداً لم يستطيعوا تعويضه. كانت خسارتهم له بمثابة انتصار كبير للحلفاء. هنا أيضاً نتذكر فضل الاستخبارات.

لكن تاريخ هذه الاستخبارات لم يكن دائم التألق. فكم من خطأ اقترفته كلف الكثير من الرجال والسلاح! وكم من اهمال وقعت به وكانت نتيجته خسارة معركة أو فقدان موقع! هل ينسى الأميركيون بحارة مدمرتهم انديانابوليس التسعمائة الذين هلكوا في مياه الباسيفيك بعد أن غرقت مدمرتهم دون أن تتنبه الاستخبارات لذلك وبالتالي، دون أن تهب الأجهزة المختصة لانقاذهم؟ هذه الخسارة، التي اعتبرت الاستخبارات مسؤولة عنها، لم تعرف الولايات المتحدة لها مثيلاً في تاريخ المعارك التي خاضتها.

لم تكن المعلومات التي كانت الاستخبارات الأميركية تلتقطها أو تنقلها،

تساعد دائمًا على الحرب، بل كان يحصل أن تتضمن سعياً وراء السلام. هذا ما حصل في نيسان - أبريل من عام ١٩٤٥، عندما نقلت هذه الاستخبارات معلومات عن رغبة اليابانيين في السلام. ودعموا رأيهم هذا بتأليف حكومة يابانية جديدة اعتبرت مؤشراً لهذه الرغبة. غير أن هذا الموقف لم يكن حائلاً دون كارثة هيروشيما وناكازاكي. فالآراء والتحليلات شيء والمواقف والممارسات شيء آخر.

ومهما يكن من أمر، لا يمكننا أن ننكر ما قامت به الاستخبارات في حرب الباسفيك. يكفي أن نردد ما أكده الكثيرون وهو أن الجهود التي قام بها رجال الاستخبارات قد اختصرت الحرب لمدة لا تقل عن السنة. وفي هذا التأكيد الكثير من الفائدة على الرغم مما للبعض عليه من تحفظات.

الفصل الحادي عشر

رقابة، تجسس وتنصت هاتفي

بقدر ما يكون الجاسوس متكتمًا، بقدر ما يكون نجاحه مضموناً. وإرسال الرسائل بالشيفرة يستقطب الكثير من الانتباه، تماماً كما يحصل لو مشى امرؤ مقنعاً وسط شارع مزدحم بالمارة. ولكن، على الرغم من هذا، فأن على الجاسوس أن يؤمن اتصالاته بالجهات التي يعمل لحسابها. لذلك يلجأ إلى طرق تؤمن اخفاء رسائله، ككتابتها بواسطة لغةاصطلاحية، أو دسها في حاجيات الاستعمال الشخصي، أو كتابتها بواسطة حبر غير منظور، أو سوى ذلك من الوسائل التي تلقن للجواسيس. وبغية كشف هؤلاء، تعمد الحكومات إلى مراقبة المشبوهين، من رعاياها ورعايا الدول الأجنبية على السواء، وذلك عن طريق التدقيق في البريد الداخل والخارج، أو التقاط المخابرات السلكية واللاسلكية. هذه الوسائل تشكل ما يسمى بالرقابة.

انبثقت الرقابة عما كان يدعى في القرن الثامن عشر بالغرف السوداء. وقد ظهرت في الأنظمة الديمقراطية أثناء الحرب. أما في الأنظمة الديكتاتورية، فهي بنت الطغيان. أخذت الرقابة حجمًا كبيراً إبان الحرب العالمية الأولى. وكم كانت تجربة البريطانيين في هذا الصدد مفيدة. حتى أنهم عادوا إليها بعد عشرين سنة. وقبل دخول الولايات المتحدة الحرب، سجلت أجهزة الرقابة عندهم أول انتصار بارز ما عندما كشفت جاسوساً هاماً يعمل من أميركا وآخر يعمل من كوبا، التي كانت آنذاك أشبه ما تكون بمحمية أميركية.

ففي شهر كانون الأول - ديسمبر من عام ١٩٤٠، لفتت إحدى الرسائل الموجهة من نيويورك إلى برلين إنتباه واحد من المراقبين الإنكليز الألف ومئتين

المتمركزين في برنسيس أوتيل في برمودا. كانت تلك الرسالة تتضمن معلومات عن التجارة البحرية. وقد استرعى انتباه ذلك المراقب ما قرأه فيها من عبارات توحي بأنها كتبت بواسطة أحد الألمان بتوقيع جو ك. بعد التدقيق، تبين أن هناك رسائل أخرى كتبت بالخط نفسه وأرسلت إلى اسبانيا أو البرتغال. لم يكن محتوى هذه الرسائل طبيعياً. مما حمل على تشكيل فريق لدراستها ومعرفة ما إذا كانت مكتوبة بلغة اصطلاحية، وفي حال الإيجاب، الوقوف على معانيها الحقيقية. كان أحد أعضاء هذا الفريق امرأة شابة تدعى ناديا غاردنر. وقد تكونت لدى ناديا هذه قناعة بأن هذه الرسائل تحوي نصوصاً مكتوبة بالحبر السري. مما حملها على إرسالها إلى المختبر، ولكن دون جدوى. أخيراً عمد الكيميائيون إلى تمريرها على أبخرة اليود، وهي طريقة اكتشفت في الحرب العالمية الأولى. وهذا ما أدى إلى ظهور كلمات على ظهرها. ـ إحدى هذه الرسائل، وهي مؤرخة في ١٥ نيسان ـ أبريل سنة ١٩٤١ ومرسلة إلى شخص يدعى مانويل ألونزو في مدريد، كانت تتضمن لائحة للسفن الراسية في مرفأ نيويورك. رسالة أخرى، موجهة إلى الآنسة إيزابيل ماشادو سانتوس في ليشبونه، كانت تتضمن ما يلي: «لدى البريطانيين ما يقرب من سبعين ألف رجل في ايسلندا.. سفينة فيل دولياج أغرقت حوالي ١٤ نيسان ـ أبريل...». كانت هذه الرسائل مكتوبة بمحلول البيراميدون، وهو مسكن للآلام سهل التناول من الصيدليات.

غير أنه لم يكن هناك ما يشير إلى المرسل. والمرجح أن التوقيع «جو ك» لا يعود لشخص بهذا الاسم. أخيراً، تضمنت إحدى هذه الرسائل إشارة إلى أن «فيل» أصيب في ١٨ آذار ـ مارس في حادث سيارة وتوفي في مستشفى سان فانسان. بعد التدقيق من قبل وكالة الإستخبارات الفدرالية، تبين أن الضحية كان معروفاً باسم خوليو لوبيز ليدو وأن شهوداً رأوا رجلاً كان يصحبه وقد انتشل منه منديله واختفى. لقد أظهرت التحقيقات أن الإسم الحقيقي لليدو هذا هو أولتريش فون دير أوستن وأن كاتب الرسائل يدعى كورت فريدريك لودويغ، المولود في ولاية أوهايو الأميركية. وقد عاد إلى أميركا، بعد أن تربى في المانيا، في آذار ـ مارس سنة ١٩٤٠ لينشىء فيها شبكة تجسس. لكن هذه الشبكة لم تصل إلى المستوى المطلوب.

لقد ضبطت مع لودويغ هذا، ساعة القبض عليه، عدة علب من البيراميدون.

ولعل أسلوبه الركيك في الكتابة هو الذي أثار انتباه المراقبين وأوصله إلى هذا المصير.

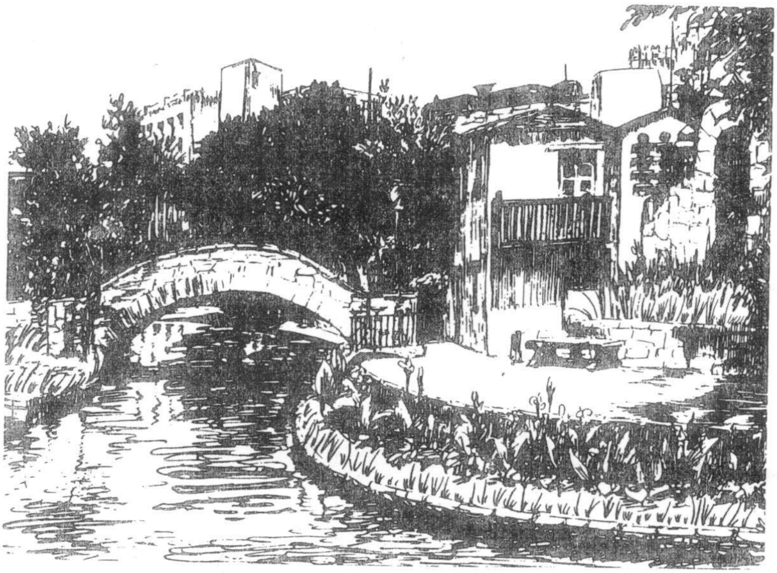
الجاسوس الثاني الذي كشفه مكتب المراقبة في برمودا دفع حياته ثمناً لما له من نشاط. ففي أحد أيام تشرين الثاني - نوفمبر من عام ١٩٤١، لاحظ أحد المراقبين لكنة ألمانية في رسالة مكتوبة بالاسبانية آتية من هافانا إلى ليشبونة ما كان من هذا المراقب إلا أن أخضع الرسالة للتحقق من الأحبار السرية. وقد أدى هذا إلى إظهار نص يحوي لائحة بالسفن التي تفرغ حمولتها في ميناء هافانا، كما يحوي تفاصيل عن بناء إحدى المحطات الجوية. أعطيت على الفور الأوامر للتفتيش عن مراسلات أخرى بالخط نفسه، فضبطت رسائل عدة كانت كلها تعالج موضوع حركة السفن في المياه الكوبية وتوسيع قاعدة غوانتانامو الأميركية. وبعد أن اكتشف صاحب هذه الرسائل وتبين أن اسمه الحقيقي هو هانز اوغوست لونينغ، ألقي القبض عليه في ٥ أيلول - سبتمبر من عام ١٩٤٢. وقد أعدم رمياً بالرصاص في ٩ تشرين الثاني - نوفمبر من العام نفسه، فكان أول جاسوس يعدم في كوبا.

بعد فترة من بيرل هاربور، أنشأت الولايات المتحدة دائرة للمراقبة ما لبثت أن نمت وأصبحت جهازاً يعمل فيه أكثر من أربعة عشر ألفاً من الموظفين يشغلون تسعين بناءً موزعة على كامل الأرض الأميركية. وقد توصلت هذه الدائرة لأن تفتح يومياً أكثر من مليون رسالة، وأن تستمع إلى آلاف المخابرات الهاتفية. كما كانت تتصفح عشرات المجلات، وتشاهد العديد من الأفلام. حتى أن الملايين من الناس في أميركا ألفوا تلقي رسائلهم وعليها آثار الفتح ظاهرة، كذلك عبارة «فتحت بواسطة الرقابة».

وبغية وضع حدٍ لأعمال الجاسوسية ووسائلها المختلفة، عمدت دائرة الرقابة الأميركية إلى وضع لائحة بالمحظورات كانت تضيق وتتسع حسب مقتضى الحال. فلعب الشطرنج بالمراسلة وتبادل الكلمات المتقاطعة وأمور عديدة أخرى كلها منعت بواسطة البريد. حتى قصاصات الجرائد والمجلات والورق الأبيض ورسوم الأطفال كانت تستبدل بمثيلاتها تحاشياً لكل مراسلة تجسسية مكتوبة بحبر سري.

في دوائر البرق، كانت القواعد تقضي بأن يمتنع الموظفون المختصون عن إرسال أية برقية لا تكون مكتوبة بلغة واضحة أو لا يكون مضمونها مفهوماً. وقد

قضت هذه القواعد بأن لا يسمح إلا بالبرقيات المرسلة باللغات الانكليزيـة أو الفرنسية أو الاسبانية أو البرتغالية دون سواها من اللغات. حتى أن الموظفين في دوائر البرق أعطوا صلاحية تنقيح أو تصويب نصوص البرقيات كلما رأوا ذلك مناسباً.



رسالة سرية أرسلت ضمن هذا الرسم مكتوبة بحبر سري

بلغت الاحتياطات التي اتخذتها دائرة الرقابة الأميركية حدّ الوسواس. لقد توصلت إلى منع أية رسالة أو برقية تتضمن إشارة إلى عدد أو نوع من الأزهار، وذلك بين الولايات المتحدة وانكلترا. كان يفرض على كل رسالة مكتوبة بالشيفرة أن تكون مقترنة بإشارة إلى المستند الذي اعتمدته هذه الشيفرة مع كامل التوضيحات التي من شأنها أن تلقي الأضواء الكاشفة على الرسالة. وإذا رغبت مؤسسة من المؤسسات في أن يكون لها نظام سري خاص بها، عليها أن تودع دائرة الرقابة مسبقاً خمس عشرة نسخة من هذا النظام وأن تحصل على إذنٍ يسمح لها باستخدامه.

واحتياطات الرقابة هذه تناولت حقولاً أخرى من حقول النشاطات المختلفة. كان على الصحف والمجلات وسائر وسائل الإعلام المكتوبة أن تكون حذرة في نشرها الإعلانات الخاصة. ولكن الاهتمام الرئيسي تركزّ على الإذاعات الخاصة التي كان بمقدورها أن تبث، وبلغة متفق عليها، رسائل إلى العاملين في أعماق البحار وفي هذا تسهيل لا مثيل له لمهمات العملاء التجسسية. ومثل بطل الملاكمة ماكس باير ماثل في الأذهان. لقد استطاع هذا الرياضي أن ينجح في بث رسالة مدسوسة في مقابلة إذاعية له تفيد بأن «الباخرة كوين اليزابيت ستبحر هذه الليلة باتجاه هاليفاكس وعلى متنها عدة مئات من الطائرات». كانت هذه الإذاعات الخاصة وسيلة سهلة ومضمونة لرسائل العملاء. كانوا يتفننون في دسِّ رسائلهم في نصوص الإعلانات الشخصية كالبحث عن كلب ضائع أو الترويج لسلعة معينة أو الدعاية لهدايا الميلاد.

كانت دائرة الرقابة تعمل بتنسيق مستمر مع مختلف الأجهزة الأمنية لا سيما مع مكتب المعلومات الاتحادي. وفي أيار - مايو من عام ١٩٤٣، أنشىء جهاز آخر ملحق هو عبارة عن مختبر فني مهمته كشف مختلف الوسائل التي يستخدمها العملاء في إيصال رسائلهم. وكم من الأسرار كشفت وألقي القبض على أصحابها بفضل الأعمال التي قامت بها الأجهزة العاملة في مضمار الرقابة. وقد اقتضت الضرورات إلى التوسع في هذه الأجهزة وإنشاء أقسام فيها تتولى نشاطات متخصصة فرضتها مستجدات اقتصادية أو سياسية. أنشىء قسم للمؤشرات التي تؤدي إلى تحديد مواطن المواد الأولية ليصار إلى العمل على امتلاكها وحرمان الآخرين منها. كما أنشىء قسم مهمته جمع المعلومات عن الأزمات الاقتصادية وفقدان بعض المواد والسلع من السوق، ليصار إلى تحليل الأسباب والعمل على تطويقها. حتى الرسائل المكتوبة بلغاتٍ غير مألوفة أو بلهجات محلية نادرة، كانت تجد في مكاتب أجهزة الرقابة من ينكب على ترجمتها وإخراج المعاني التي تتضمنها.

تتوزع الوسائل اللغوية للتجسس على أنواع عدة: اللغة الاصطلاحية، والرسائل المتضمنة اصطلاحات معينة، والأشكال الهندسية. في اللغة الاصطلاحية، تخفي الكلمات البريئة والنصوص السخيفة معاني غاية في الأهمية والسرية. كل كلمة بل وحتى كل نقطة أو فاصلة يمكن أن تؤدي مدلولاً لا يتبادر لذهن أي إنسان عادي أنه هو المقصود. هذه الوسيلة استخدمت في فجر تاريخ الاستخبارات.

ليس من السهل على المراقب أن يكشف خفايا رسالة مكتوبة بلغة

اصطلاحية، ويروى أن عدداً كبيراً من طلبات السيكار تبودل بين تاجرين هولانديين مزعومين أثناء الحرب العالميه الأولى. هذه الطلبات أدت، دون قصد، إلى ترويج أنواع السيكار المطلوبة. وقد تبين في ما بعد أن التاجرين ليسا سوى جاسوسين المانيين وأن طلباتهما للسيكار ليست إلا تمويهاً لمعلومات يريدان إيصالها إلى جهات معينة في دوائر الاستخبارات الألمانية. مثال ذلك: «خمسة آلاف كورون إلى نيوكاستل» كانت تعني «خمس مدمرات راسية في المرفأ». وفي ٣٠ تموز - يوليو من عام ١٩١٥ نفذ حكم الإعدام بالجاسوسين على برج لندن، بعد محاكمة جرت لهما في تلك المدينة.

خلال الحرب العالمية الثانية، كادت إحدى الرسائل المموهة تفلت من قبضة رجال دائرة الرقابة. غير أن الشكوك أثيرت عندما رجعت هذه الرسالة من بيونس آيرس وعليها الإشارة المألوفة «مجهول العنوان». أودعت الرسالة الشخص المرسل وهو سيدة تقيم في بورت لاند. لكن هذه المرأة، بعدما تبين لها أنها تجهل كل شيء عن الرسالة ومحتواها، أودعتها مكتب الاستخبارات الاتحادي الذي قرأ فيها ما يلي: «استلمت لتوي دمية جميلة هي عبارة عن راقصة سيامية. تبين أن فيها بعض الخدوش في الوسط لكنها أصلحت...» ثم جاءت رسالتان أخريان تعالجان الموضوع نفسه. وفيهما: «سيجري إصلاح دمية مكسورة تلبس ثوباً من الرافيا في الأسبوع الأول من شباط - فبراير». «ستقيم الدمى الانكليزية في المستشفى لمدة أشهر حتى استكمال إصلاحها. إن مستشفى الدمى يعمل ليل نهار».

انكب رجال مكتب الاستخبارات الاتحادي على كشف مداليل ما جاء في الرسالة من تمويه. وبعد جهدٍ واستقصاء، تبين أن ما جاء فيها يعني فعلاً ما يلي: «علمت أن حاملة الطائرات قد أصيبت في وسطها بقذيفة طوربيد، لكنها أصلحت الآن» «سيجري وضع الطراد الخفيف هونولولو في العمل خلال الأسبوع الأول من شباط - فبراير»، «ستبقى المدمرات البريطانية في المرفأ لمدة أشهر حتى استكمال إصلاحها. إن ورشة الإصلاح تعمل ليل نهار». غير أنه لم يتبين لرجال الاستخبارات مصدر المراسلة، فعادوا إلى السيدة التي أعيدت الرسالة الأولى إليها. وبعد استجوابها، ذكرت أن هناك بائعة للدمى تدعى مسز ديكنسون، ربما كانت هي التي انتحلت إسمها. بعد التحقيق مع هذه السيدة، اعترفت بأنها مرتبطة بصداقة مع شخصيات يابانية هامة وأنها تلقت من السلطات اليابانية مبالغ كبيرة

لقاء خدمات تجسسية. ألقي القبض عليها وحوكمت بالسجن لمدة عشر سنوات وبغرامة مقدارها عشرة آلاف دولار.

الطريقة الأخرى التي تستعمل لتمرير معلومات مموهة هي الرسائل المتضمنة اصطلاحات معينة، كأن يتفق المرسل والمرسل إليه على ألا يعتمد إلا ببعض أحرف النص أو ببعض كلماته: مثلاً، الحرف الأول من كل كلمة، أو الحرف الذي يلي كل فاصلة، أو الكلمة الخامسة من كل سطر، الخ... أما باقي النص فليس لغير التضليل. هنا أيضاً، تدل هذه الرسائل على نفسها بنفسها من خلال سخافة معانيها وعدم ائتلاف هذه المعاني، شأنها في ذلك شأن الرسائل المكتوبة بلغة اصطلاحية.

حوالى منتصف القرن السابع عشر ألقى رجال كرومويل القبض على السير جون تريفانيون، أحد اتباع شارل الأول، وزجوا به في قلعة كولشستر. وبينما هو قابع في زنزانته ينتظر الحكم بالموت، إذ برسالة تصله، بعد أن مرت على رقابة رجال السجن دون أن يجدوا في عباراتها ما يثير أي شك. قرأ السير جون الرسالة فوجد أن مواقع الفواصل غير طبيعية. بعد محاولات عديدة لاكتشاف حقيقة مضمون الرسالة، تبين له أن الحرف الثالث بعد كل فاصلة أو نقطة هو الأساس في الرسالة. قام بجمع هذه الأحرف فتكونت لديه الجملة التالية: «في طرف الكنيسة عمود أملس للهروب». وفي المساء، وبعد أن اقتيد وحيداً إلى الكنيسة للصلاة في ليلته الأخيرة، استطاع الهروب بواسطة هذا العمود ونجا.

إبان الحرب العالمية الأولى، أرسل عميلان المانيان رسالتين على أساس هذه الطريقة. في الأولى منها، يعتمد بالحرف الأول من كل كلمة، وفي الثانية بالحرف الثاني، تبين من الرسالتين معاً أن الموضوع يتعلق بالمدمرة الأميركية برشينغ وبتاريخ مغادرتها مرفأ نيويورك. لكن المؤسف أن الوقت المحدد في الرسالتين، وهو الأول من حزيران - يونيو، لم يراع. فالمدمرة غادرت الميناء في ٢٨ أيار - مايو.

وفي الحرب العالمية الثانية، انتشر استعمال هذه الطريقة في المراسلات الخاصة، لا سيما العائلية منها. وكانت كلها بريئة لا تحتوي على شيء. لكن كثرة استعمالها أدت إلى منعها من قبل البحرية الأميركية عام ١٩٤٣.

الطريقة الثالثة التي يواجهها رجال الرقابة تكمن في الأشكال الهندسية. في هذه الطريقة، توزع الكلمات التي تشكل نص الرسالة الحقيقي على أماكن محددة

من الشكل الهندسي، في حين تكون الكلمات الموضوعة في الأماكن الأخرى الباقية للتضليل.

إن معاناة رجال الاستخبارات في موضوع الرقابة على الرسائل بهدف اكتشاف السري منها كبيرة. فالأمر غاية في الصعوبة وغاية في الدقة. ومهما جهد هؤلاء الرجال، فإن الكثير من الرسائل الخطيرة تفلت من بين أيديهم.

في بداية الحرب العالمية الثانية، كانت الوسيلة الأكثر استعمالاً هي الحبر السري. وهي الوسيلة الأكثر قدماً في تاريخ سرية الرسائل ونقل المعلومات. ذكرها بلين بكتابه «التاريخ الطبيعي» في القرن الأول من عصرنا. كما أتى على ذكرها أوفيد في كتابه «فن الحب». وفي عصر النهضة كثر استخدام الحبر السري في المراسلات الديبلوماسية.

هناك نوعان من الأحبار السرية: السوائل العضوية والمحاليل الكيميائية. الأولى، كالحليب والخل والبول وعصير الفاكهة، سهلة الانكشاف بمجرد تسخينها. لكنها، على الرغم من ضماناتها الضعيفة، كثيرة الاستعمال. حتى أنها استعملت في الحرب العالمية الثانية. ويقال أن الكونت فون روتر، وهو الماني اكتسب الجنسية الأميركية وعمل في الجاسوسية لحساب بلده الأم، لجأ إلى استعمال البول بعد أن نفد الحبر السري لديه.

أما النوع الثاني فهو عبارة عن محاليل كيميائية لا لون لها عندما تكون جافة، وتظهر بألوان مختلفة إذا ما عولجت بمحلول مساعد آخر. مثال ذلك أن كبريتات النحاس يتفاعل مع الأبخرة الأمونية. ومن المحتمل أن يكون هذا المحلول هو الذي استعمل لكتابة بعض العناوين المفيدة على منديل جورج داش، رئيس فريق من ثمانية مخربين نازيين اعتقلتهم الولايات المتحدة عام ١٩٤٢ ونقلتهم ضمن غواصة إلى لونغ أيلند، بعد أن اكتشفت أنهم يخططون لنسف بعض المنشآت الأميركية. إن أهم عنصر في الحبر السري هو عصيانه على أكبر عدد من المحاليل الكاشفة.

لقد لجأ الألمان إلى وسائل عدة لتفويت الفرصة على أبخرة اليود، وهي كاشف ممتاز، في أن تلعب دورها بفعالية. في إحدى هذه الوسائل، كانوا يشقون ورقة الرسالة طولياً إلى نصفين. بعدها يقومون بكتابة الرسالة بالحبر السري من الجهة الداخلية لأحد النصفين، ثم يلصقون النصفين بحيث تكون الكتابة في الداخل

بمنأى عن مفعول المحاليل الكاشفة. لكن الصدفة أرادت أن ينفذ الحبر، لكثرته، إلى سطح الورقة وتنكشف الطريقة. بعد هذا الاكتشاف، لجأت السلطات الأميركية إلى اثنين من الجواسيس الألمان الموقوفين لديها لتتعرف منهما على الطريقة المستخدمة في شق الورقة نصفين متساويين في الكثافة. وهذه الطريقة استخدمها بعض مروجي العملات بأن قاموا بشق أوراق نقدية من فئة الدولار والعشر دولارات وإلصاق وجه من هذه على وجه من تلك. حتى إذا تمت العملية، قاموا بترويج الملصقات على الوجه المتضمن رسم الورقة من فئة العشر دولارات.

استخدم الألمان كذلك ما سماه إدغار هوفر، مدير مكتب الاستخبارات الاتحادي، «قمة التجسس عند العدو»، أعني به الميكرو نقطة، وهو عبارة عن صورة بحجم النقطة التي تنهي الجملة. هذه النقطة هي عبارة عن صورة تكبر فتصبح بعد تظهيرها بحجم الورقة. وهذا يعني أن كل ميكرو نقطة يمكن أن تشكل صفحة كاملة من رسالة سرية. هذه الطريقة استخدمت، بمعدل تصغير أقل، عام ١٨٧٠ لإيصال رسائل سرية إلى داخل باريس المحاصرة. ولكن، على الرغم من قدم عهد هذه الطريقة نسبياً، فإن مكتب الاستخبارات الاتحادي لم يكتشفها إلا عام ١٩٤١، بناءً على تحذير من عميل مزدوج، في رسالة كان ينقلها عميل ألماني، وقد تضمنت ميكرو نقطة واحدة وضعت على المغلف. بعد ذلك، توالت الميكرو نقاط المكتشفة وتوالى معها كشف أسرار العدو. وهذا ما دعا دول المحور في الحرب العالمية الثانية، وعلى رأسها ألمانيا، إلى التقليل من اللجوء إلى هذه الوسيلة والتوجه أكثر فأكثر إلى الراديو. لكن هنا أيضاً، لم تنج الأسرار من آذان الرقباء.

ولم يقتصر نشاط المراقبين الأميركيين على الأرض الأميركية، بل تعدّوه إلى القارات الخمس. كانت محطات استماعهم تلف القارات الخمس. حتى أن الهمسة التي يبثها أحد أجهزة مورس كانت تلتقط وتترجم وتحال على المراجع المختصة فوراً.

في شهر نيسان ـ أبريل من عام ١٩٤١، أبحر إلى ريو دي جانيرو المدعو جوزيف ستارزيزني باسم مستعار هو نيالس كريستيانسن، حاملاً معه بشكل سري جهاز إرسال من أربعة أنظمة مع تعليمات مكتوبة على ميكرو فيلم. بعد شهر من ذلك، بدأ الجهاز بالبث. وفي آذار ـ مارس من عام ١٩٤٢ وصلت الباخرة كوين ماري إلى الريو وعلى متنها عشرة آلاف من الجنود. إن إغراق باخرة كهذه يعتبر ضربة موجعة للحلفاء، ففيه خسارة مادية كبرى بالرجال والعتاد، كما فيه خسارة

معنوية من شأنها أن تؤثر على الروح العالية التي كان يتمتع بها الأسطول الإنكليزي آنذاك. لم تكن هذه الباخرة تحتاج لمواكبة بسبب سرعتها ومنذ أن أبحرت، والعملاء النازيون يبثون الرسالة تلو الأخرى لتوجيه غواصاتهم وراءها. وفي ٦ آذار - مارس، بثت احدى الرسائل أن كوين ماري ستصل هذا اليوم وأنه يجب إغراقها. بعد يومين، انطلقت رسالة أخرى تقول إن كوين ماري توجهت إلى عرض البحر الساعة الثامنة عشرة.

في ١٣ من الشهر نفسه، بثت رسالة ثالثة وفيها أن كوين ماري شوهدت قرب شاطىء الرسيف. جميع هذه الرسائل جرى التقاطها بواسطة أجهزة المراقبة الحليفة. وصلت الباخرة إلى هدفها الآمن بعد أن اجتازت المحيط الأطلسي. أما الجواسيس النازيون، فقد كانت تلك رسائلهم الأخيرة.

لقد ألقى البوليس البرازيلي القبض على ستارزيزني وأعوانه البالغ عددهم حوالى المئتين، وذلك بناء على معلومات تلقاها من مكتب الاستخبارات الاتحادي.

كانت هناك محطتان للتجسس تعملان لحساب الألمان على الأرض الأميركية. إحداهما تقع في سانتربورت، وقد بدأت بالبث للمرة الأولى في ١٥ أيار - مايو سنة ١٩٤٠. وكانت أول رسالة تلقتها تتضمن طلب معلومات عن الإنتاج الأميركي الشهري للطائرات مع وجهة تصديرها وطرق شحنها وشروط دفع ثمنها.

رئيس تلك المحطة كان يدعى وليم سيبولد، وهو مواطن أميركي من أصل ألماني، وعميل سري لمكتب الاستخبارات الاتحادي. خلال صيف ١٩٣٩، توجه في زيارة إلى مسقط رأسه في موطايم في ألمانيا. وهناك، صادر الغستابو جواز سفره وهدده بالانتقام من جده إن هو لم يقبل بالعمل لحساب الاستخبارات الألمانية في الولايات المتحدة. قبل سيبولد العرض بعد أن اتصل بالسلطات الأميركية في كولونيا. إثر ذلك، تابع دورة تجسس في مدرسة هاربورغ وعاد إلى الولايات المتحدة في ٨ شباط فبراير سنة ١٩٤٠. وهناك، اتصل بالعملاء النازيين حسب لائحة أعطيت له في ألمانيا، وركّز جهاز البث ليبدأ بإرسال المعلومات.

خصصت وكالة الاستخبارات الاتحادية عنصرين من عناصرها لالتقاط رسائل هذه المحطة. وكانت على اتصال مستمر بسيبولد. ولم تمض فترة إلا وكانت أجهزة الأمن تنقض على أوسع شبكة تجسس جرى اكتشافها في الولايات المتحدة قبل بيرل

هاربور. كان ذلك يوم ٢٨ حزيران - يونيو من عام ١٩٤١.

وهناك عميل مزدوج آخر كان يعرف بالرمز ن. د. ٩٨. عمل فترة طويلة لحساب الأميركيين قبل أن تنتهي مهمته في أيار سنة ١٩٤٥، في نهاية الحرب. وقد كان للمعلومات المغلوطة التي كان يرسلها للألمان آثار كبرى في تضليلهم وتشتيت قواهم وإجهاض مخططاتهم.

غير أن كل ما ذكر ليس سوى ألعاب صبيانية بالمقارنة مع أكبر مناورة تضليل سجلتها أحداث الحرب العالمية الثانية. تمت العملية من قبل أجهزة التجسس الألمانية عن طريق إقامتها قواعد لعملاء لها في كل من هولنده وفرنسا وإنكلترة بوجه خاص، وكانت من الإحكام بحيث استطاعت أن تؤدي إلى إجهاض وسحق مئة وتسعين عملية إنزال مظلي، كما أتاحت مصادرة خمسة عشرة طناً من المتفجرات وثلاثة آلاف بندقية أوتوماتيكية وخمسة آلاف مسدسٍ وألفي قنبلة يدوية وخمسة وسبعين جهاز بث وخمسمئة ألف قذيفة ونصف مليون فلورين أوراق نقدية. كل هذا بالإضافة إلى اعتقال أربعة وخمسين عميلاً أعدم منهم سبعة وأربعون دون محاكمة في معسكر موتهاوزن. لم يكن لأية عملية عسكرية أو غير عسكرية وقع تلك العملية العملاقة طوال سنوات الحرب بكاملها. لقد اعتبرت أكبر هزيمة استخبارية في تاريخ التجسس الحليف في الحرب العالمية الثانية.

ابتدع الفكر البشري ألف وسيلة ووسيلة للتجسس والاستخبارات عبر التاريخ. كانت هذه الوسائل تنشط وتتكاثر في زمن الأزمات، لاسيما في الحروب. ولا يمكن المفاضلة أحياناً بين وسيلة وأخرى. فما ينفع في مجال قد لا يكون ملائماً في مجال آخر. أكثر ما استعمل ابان الحرب العالمية الثانية لإعطاء التعليمات كان «الرسائل الشخصية» التي كانت تبثها هيئة الإذاعة البريطانية. وقد روى بيتر تومكينز، الجاسوس الإنكليزي، كيف أنه كان، مع الفريق العامل تحت امرته، يتسمر ذات ليلة أمام المذياع منتظراً سماع رسالته المتفق عليها، وذلك في روما حيث أرسل عام ١٩٤٤ في مهمة خاصة. بعد نشرة الأخبار باللغة الإيطالية، بدأت الرسائل الشخصية: «كاترين تنتظر بالقرب من البئر»، «ستشرق الشمس عند الفجر»، «جان بحاجة لأحذية»، ثم فجأة، يقول تومكينز، أذيعت رسالتنا: «غليوم ينتظر ماري». كان هذا يعني أن الإنزال المظلي سيحصل هذه الليلة. وذات مرة كان على شبكة ماركو بولو التجسسية أن ترسل رسالة من ثلاثين صفحة إلى لندن. ولما

كان هذا الإرسال يستغرق وقتاً طويلاً إذا ما جرى بالشيفرة بواسطة الراديو، فقد فضل المسؤول عن الشبكة إيداع الرسالة باليد، على أن يأتي الإشعار بالاستلام عبر الإذاعة البريطانية ومن خلال بث رسالة شخصية اتفق عليها.

اثنتان من تلك الرسائل التي كانت تبثها الإذاعة البريطانية ارتدتا طابعاً خاصاً على قدر كبير من الأهمية: «الجو حار في السويس» أعطت الأمر للمقاومة الفرنسية بنسف سكك الحديد، و «النرد على الطاولة» أطلقت الخطة الحمراء، أي قطع خطوط الهاتف والبرق. كانت عناصر المقاومة تتحلق دوماً حول المذياع لتستمع إلى رسائلها الشخصية. وفي ٥ حزيران من عام ١٩٤٤ الساعة الثامنة عشرة والنصف، أذيعت رسالتان فهم منهما أن ساعة التحرير قد اقتربت. ولا يزال الكثيرون يتذكرون تلك اللحظة بدفق من الحنين. إن أشهر رسالة أذيعت من بين الرسائل الشخصية كانت تلك التي أعلنت نزول الحلفاء على شواطىء النورماندي. وعلى الرغم من أن النازيين التقطوها وفهموها، فإنهم لم يتمكنوا من الإفادة منها. وبعد ثلاث ساعات، كان ثمانية عشر ألفاً من المظليين يهبطون في الحقول على شواطىء النورماندي. جميع القيادات الألمانية أخطرت بالأمر إلا واحدة هي قيادة الجيش السابع الذي كان عليه أن يجابه هو الموجة الأولى من المهاجمين. ولا يزال سبب عدم إخطارها مجهولاً.

في هذا الوقت، كانت الولايات المتحدة الأميركية تضاعف الجهود للوصول إلى استخدام فعال للذرة في الحرب، وذلك في إطار مشروع منهاتن، الذي أحيط بسرية لم يسبق لها مثيل في تاريخ الاستخبارات. لقد صمم من أجله نظام خاص للشيفرة لم يكن يعرف كنهه إلا نفر قليل من العاملين في المشروع. ولم يتضح حتى الآن أن الألمان تمكنوا من كشف هذا النظام أو معرفة بعض أسراره.

نصل الآن إلى الهاتف كوسيلة اتصال سهلة زهيدة التكاليف. إنّ الكثيرين يجهلون أنّ الهاتف كاتم جيد للسرية، وأن الهاتف بواسطة الراديو يبزه في مضمار التكتم. وأفضل وسيلة لتأمين أكبر قدر من السرية، هو استعمال لغة اصطلاحية. كما أنّ استخدام الشيفرة ممكن، وقد استخدمت فعلاً في مشروع منهاتن. أخيراً، يمكن اللجوء، في المخابرات الهاتفية، إلى لغة أجنبية.

هذه الطريقة الأخيرة مارستها الولايات المتحدة في الحربين العالميتين على نطاق

واسع. فقد كان لديها مجموعة من اللهجات المعقدة التي يندر أن يفهمها أحدٌ في العالم. تلك اللهجات استقيت من اللغات الهنديّة المختلفة حتى أنّ وجود عناصر من قبائل الشوكتاوس والنافاجوس ذوي اللحى السوداء والبشرة السمراء أصبح مألوفاً في دوائر الاستخبارات الأميركية، لاسيما بعد أن تكاثروا فيها بسبب الحاجة إليهم. ويذكر أن عددهم ناهز في دوائر الهاتف وحدها الأربعمئة. كانوا يقومون بتأمين نقل الأوامر بكلّ دقة وسرية. وقد اعتبر هذا من العناصر الهامة التي ساعدت على نقل القوات الأميركية من جزر سليمان في الباسيفيك إلى أوكيناوا.

تستخدم في هذا المضمار تقنيات عدة. منها التسجيل بصورة عكسية وتقطيع شريط التسجيل ووصل قطعه بشكل غير منتظم. بعد ذلك، يعاد تركيب أجزاء الشريط بشكل صحيح ويسجل الشريط ثانيةً بالاتجاه الصحيح على شريط آخر بواسطة أجهزة خاصة. طريقة أخرى توصل إلى التضليل عن طريق إضافة أصوات أخرى وحشرها بين كلمات وأحرف المخابرة. بعد ذلك، تقوم آلات متخصصة بفرز الزيادات بغية استخراج النص الأساسي خالياً من كل شائبة. كانت طريقة التسجيل المعكوس والتقطيع هي المفضلة لدى تشرشل في مخابراته الهاتفية الهامة. كما يذكر أن سفير الولايات المتحدة في باريس، وليم باليت، استخدم هذه الطريقة عندما أنبأ الرئيس تشرشل عن إعلان الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا.

أدركت أجهزة الاستخبارات الألمانية أهمية الهاتف كوسيلة فضلى في نقل المعلومات بسرعة ودقة متناهيتين. لذلك عكفت لسنوات على التصدي لها وكشف أسرارها. وبعد جهود حثيثة، توصلت في أيلول ـ سبتمبر من عام ١٩٤١ إلى حل اللغز. وقد أقامت لهذه الغاية محطة التقاط متطورة على الشاطىء الهولندي. ولما كان الحدث على قدر كبير من الأهمية، فقد أحيط علمًا به هتلر نفسه بالرسالة التالية: «لقد حققت الاستخبارات الألمانية خطوة بارزة بإنشائها محطة التقاط هاتفي للمخابرات المتبادلة بين الولايات المتحدة وانكلترة، وذلك على أحدث الطرق. وبفضل الجهود الحثيثة لعلمائنا، أصبح بإمكاننا ترجمة المخابرات هذه بصورة فورية بعد إزالة كل الإضافات التضليلية منها. ونظراً لأهمية هذا الإنجاز، فإن ما ستلتقطه هذه المحطة سوف يودع السيد هيملر نفسه دون سواه. ذلك أن الإنكليز سيغيرون حتمًا نظام شيفرتهم بنظام أكثر تعقيداً وبالتالي، سيعودون إلى إرباكنا، إذا ما وصل إلى علمهم أننا كشفنا نظامهم».

من المخابرات الهاتفية التي التقطها الألمان بواسطة محطتهم الجديدة، تلك التي جرت في ٢٩ تموز - يوليو سنة ١٩٤٣ بين تشرشل وروزفلت، بشأن الانقلاب الذي جرى في تلك الفترة في إيطاليا والذي أطاح بموسوليني. وهذه المخابرة هي التالية:

تشرشل: موضوع الهدنة ليس وارداً طالما أننا لم نتلق ما يفيد بأن خطوات ملموسة قد اتخذت من قبل الطليان.

روزفلت: هذا صحيح.

تشرشل: بإمكاننا الانتظار بهدوء يوماً أو يومين.

روزفلت: هذا صحيح.

بعد ذلك أشار تشرشل إلى أنه قد يتصل بملك إيطاليا، فأجابه روزفلت بأنه، هو أيضاً، قد يتصل بعمانويل.

وجد الألمان في هذه المخابرة دليلاً على خيانة وازدواجية الطليان. فقد اعتبروها برهاناً قاطعاً على أن مفاوضات تجري بينهم وبين الأميركيين والإنكليز.

في بداية عام ١٩٤٤، التقطت المحطة الألمانية حواراً آخر بين روزفلت وتشرشل دام حوالى خمس دقائق وكشف النقاب عن نشاط عسكري متنام في بريطانيا، مؤكداً ما تجمع لدى الألمان من مؤشرات عن الاجتياح الذي تم في ما بعد.

الفصل الثاني عشر

استخبارات الهواة

عام ١٩٦٢، أحدث التاجر النيويوركي هانز كروس ضجة كبرى عندما حدد بمئة وستين ألف دولار ثمن كتاب لا يمكن لأحد أن يقرأه. هذا الكتاب، الذي يعتبر لغزاً من الألغاز والمفتقر إلى عنوان وإلى اسم مؤلفه، يحوي مئتين وأربع صفحات من أصل مئتين واثنتين وثلاثين. أما الباقي، وعدده ثمان وعشرون صفحة فمفقود. في طياته رسوم متعددة ملونة من بينها رسوم لنساء عاريات وأخرى لمواضيع فلكية وثالثة لنباتات عجيبة. للوهلة الأولى، يبدو أن كشف ألغاز هذا الكتاب أمر سهل. لكن الباحث فيه لا يلبث أن يكتشف بأن نصوصه لا تأتلف مع أية لغة أو لهجة معروفة. وقد باءت محاولات جهابذة الاستخبارات بالفشل ولم يستطع أحد منهم كشف أسراره.

منذ ظهوره والغموض يلفه. أول محاولة لترجمة ما احتواه جرت في عام ١٦٦٦، عندما أودع الأب اليسوعي آتاناس كيرشر من قبل جوهانس مارسي، رئيس جامعة براغ. لكن المحاولة، على الرغم من ضلوع الأب كيرشر بعلم الرموز، باءت بالفشل. يقول مارسي أن هذا المؤلف وضع من قبل روجيه باكون، الراهب الفرنسيسكاني الشهير، في القرن الثامن عشر، وأن الأمبراطور الجرماني رودولف الثاني اشتراه بستمائة دوكا. ويضيف مارسي أن من المحتمل أن يكون البائع جون دي، اللاهوتي والرياضي والفلكي الإنكليزي. كما يقول أن من المحتمل أن يكون دي قد حصل عليه من دوق نورثمبرلند، الذي قام بنهب العديد من الأديرة التي أغلقها هنري الثامن. مجرد فرضية، هذا الذي يقوله مارسي. لكن الثابت هو أن الأب كيرشر أودع المخطوط المجمع الكنسي الذي ينتمي هو إليه،

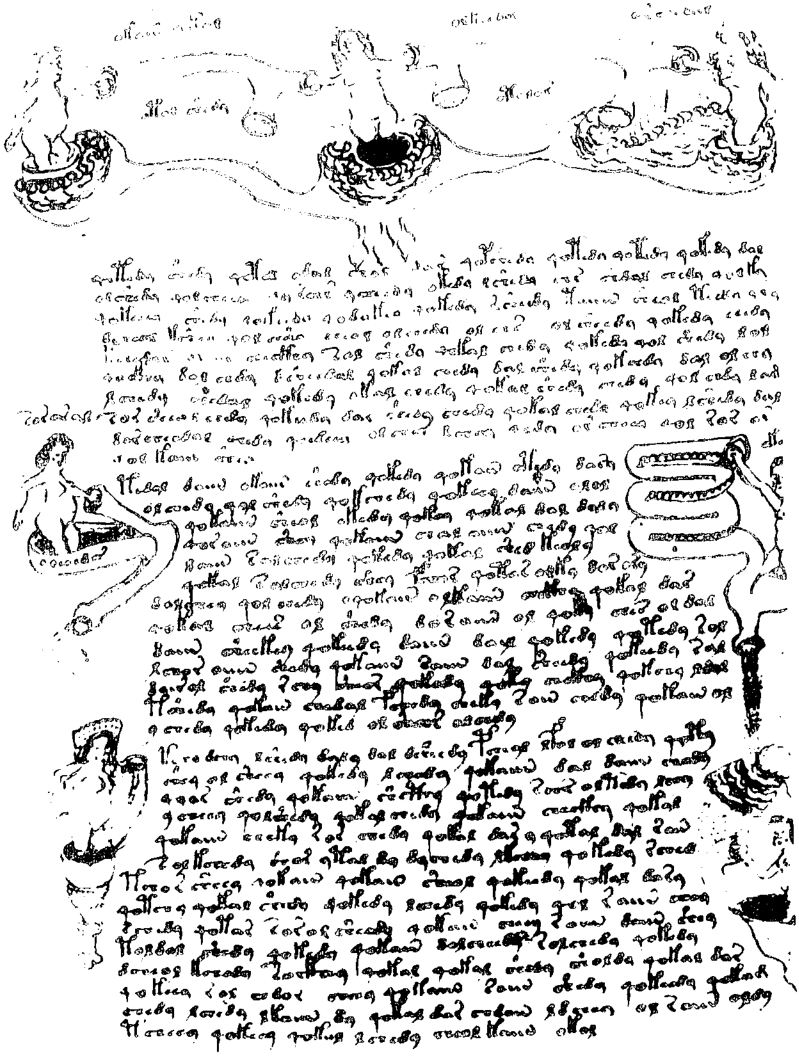
وأن هذا المخطوط بيع سنة ١٩١٢ من مدرسة يسوعية من قبل صاحب مكتبة متخصصة بالمؤلفات النادرة ويدعى فوينيش. أراد هذا الأخير أن يكتشف أسراره فوزع صوراً منه على جميع الاختصاصيين من علماء نبات إلى علماء فلك. ولكن محاولات الجميع ذهبت أدراج الرياح.

في سنة ١٩١٩، وقع بين يدي وليم نيوبولد، أحد أساتذة الفلسفة، وكان يهتم بكل ما هو غريب من الأمور، بعض من الصور التي سبق لفوينيش أن وزعها. انكب نيوبولد هذا على التمحيص والتحليل، إلى أن توصل عام ١٩٢١ إلى بعض الاستنتاجات في كشف مكنونات الكتاب. هذه الاستنتاجات، مع كونها جزئية، جعلت من روجيه باكون، بنظر نيوبولد، أعظم باحث في التاريخ. لقد استطاع بنظر نيوبولد أن يكتشف كيفية إخصاب البويضة من قبل الحيوان المنوي. كما استطاع اكتشاف الكوكب أندروماد الغارق في الأبخرة وقام بنفسه بصنع مجهر ومرصد.

أثارت ترجمات نيوبولد هذه ضجة كبرى بين العلماء والباحثين. آمن بها البعض ونقضها البعض الآخر. من بين الناقضين الصحفي بيود الذي دحض في مجلة علمية أميركية الطريقة التي توصل من خلالها نيوبولد إلى استنتاج ما استنتجه بشأن مكتشفات باكون.

عام ١٩٢٦ مات نيوبولد، لكن أعماله ومؤلفاته لم تمت. فقد أعيد نشرها في سنة ١٩٢٨. وعام ١٩٣١، عكف جون مانلي، أحد مساعدي ياردلي، على تمحيص ما آلت إليه أعمال نيوبولد، فتوصل إلى دحض الكثير منها مؤكداً أنه لا يمكن لأحد في القرن الثالث عشر أن يكون قد اكتشف ما ألصق بباكون من منجزات.

هذا الانهيار المريع لنظرية نيوبولد لم يمنع باحثين آخرين عن العودة إلى الموضوع. في عام ١٩٤٥، خلص الطبيب الاختصاصي بالسرطان ليونيل سترونغ إلا أن المؤلف هو من وضع عالم من القرن السادس عشر يدعى أنطوني أشام. هذه النتيجة لاقت الكثيرين من المعارضين، مما أفقدها كل رونق، سيما وأنها كانت تفتقر، من الأساس، إلى البراهين العلمية الداحضة. بعد ذلك، جرت محاولات أخرى من قبل البعض لكن أصحابها أقروا بفشلها، مما جعلها غير جديرة بالنشر.



صفحة من مخطوط فوينيش

سنة ١٩٤٤، شكل فريدمن في واشنطن فريقاً من اللغويين والرياضيين والنباتيين والفلكيين ممن جمعتهم الحرب في اميركا، مهمته إعادة درس الموضوع. لكنهم، مع الأسف، ما ان انتهوا من وضع الرموز المناسبة للحاسبة الالكترونية، حتى انتهت الحرب، وتفرقوا كل في بلده أو في ناحيته. وقد أبرزت أعمالهم الابتدائية ما يحويه الكتاب من صعوبات هي أشبه ما تكون بألغاز يستحيل حلها.

مات فوينيش سنة ١٩٣٠. واحتفظت زوجته ايتيل بالمخطوط حتى سنة ١٩٦٠، عندما باعته الى هانزكروس الذي حدد ثمنه، كما سبق ذكره، بمئة وستين ألف دولار. لقد قال كروس، عندما سئل، إن اليوم الذي سيأتي ويجلب مليون دولاراً، قد يكون هذا صحيحاً. ومن الآن وحتى يأتي ذلك اليوم، يعتبر هذا الكتاب، الذي يرقد آمناً في عتمة الصندوق الحديدي في مكتبة كروس، قنبلة موقوتة لا يعرف أحد متى يحين وقت انفجارها.

ما أثاره مخطوط فوينيش كان على صعيد علمي متجرد. اما العوامل التي حركتها مخطوطات بيل السرية، فلم تكن بالسمو نفسه.

تبدأ القصة سنة ١٨١٧، حين انطلق شخص يدعى توماس جفرسون بيل مع ثلاثين رجلاً في رحلة لصيد نوع من الثيران الأميركية، على بعد حوالى مئتين وخمسين ميلاً إلى الشمال من سانتا في. وذات ليلة، بينما كان الرجال متحلقين على ضفة جدول، اذ بهم يرون الصخور القريبة منهم تتوهج كلما انعكست عليها أشعة نار المخيم. انه الذهب! ظل هؤلاء الرجال يعملون سراً في جميع ما في مقدورهم من هذا المنجم البكر حوالي ثمانية عشر شهراً. وفي شهر تشرين الثاني نوفمبر من عام ١٨١٩، عاد بيل وعشرة من رفاقه الى فيرجينيا ليخبئوا في أرض فيها وعلى عمق ستة أقدام نصف طن من الذهب وحوالى طنين من الفضة. ثم بعد سنة، أضاف بيل طناً من الذهب ونصف طن من الفضة مع حجارة ثمينة بما يساوي ثلاثة عشر الف دولار. أودع كل هذا وتوجه نحو الغرب ولم يعد إلى فيرجينيا. لكنه، قبل رحيله، أودع رجلاً يدعى روبيرت موريس صندوقاً مقفلاً، وطلب منه عدم فتحه إلا اذا مضى على غيابه عشر سنوات.

انتظر موريس أكثر من عشرين سنة قبل أن يقوم بفتح الصندوق، حيث وجد عدداً من الأوراق التي كتب عليها بعض الرموز. من بين هذه الأوراق رسالتان

تتحدثان عن اكتشاف الذهب وتعطيان تعليمات بتقسيم الكنز الى واحد وثلاثين حصة، واحدة لموريس نفسه، وحصته لورثة كل من الرجال الثلاثين، رفاق بيل. ذكرت الرسالتان أيضاً أنه سيجري أيداع موريس مفاتيح الشيفرة التي كتبت بها الرسائل الأخرى والتي تعين مكان وجود الكنز وأسماء اصحاب الحق. لكن هذا لم يتم. ظل بيل محتفظاً بالسر إلى أن كشفه لجيمس وارد من مقاطعة كامبل في فيرجينيا. استطاع جيمس هذا ترجمة الرسالة التي تحدد قيمة الكنز وتتحدث عن الظروف التي أدت إلى دفنه كما سبق وذكر. وقد ختمت الرسالة بالجملة التالية: «تحدد الرسالة الثانية على وجه الدقة مكان الكنز، بحيث لا تعود هناك أية صعوبة في إيجاده».

بذلت جهود حثيثة لفك رموز الرسالة الثانية وبالتالي، ايجاد الكنز. لكنها كلها باءت بالفشل. ولا تزال كميات هائلة من الذهب والفضة والحجارة الكريمة تنعم بالراحة والدفء في مكان ما من فيرجينيا.

في نطاق استخبارات الهواة، كثرت المحاولات لمعرفة المؤلف الحقيقي لأعمال شيكسبير. قيل الكثير عن ذلك وكتب الكثير، البعض يعتقد أن المؤلف الحقيقي هو فرنسيس باكون. وقد أجريت دراسات عدة بهذا الخصوص نذكر منها دراسات إغناتيوس دونللي عام ١٨٧٨، وجوزيف بابل عام ١٨٩٩، والسيدة غالوب عام ١٨٩٩ أيضاً، ووليم فريدمن وزوجته.

من الهواة الذين عملوا في الاستخبارات الكولونيل الفرنسي ميزكوسكي، والكومندان الفرنسي شنيدر، والكونت ميرابو، والجنرال برتران، مرافق نابوليون إلى منفاه في جزيرة سانت ايلين. ولعل أشهر مؤلف في نطاق استخبارات الهواة هو «الصحيفة السرية» لصموئيل بابيس. هو المستند، الذي كتب بين عامي ١٦٦٠ و ١٦٩٠، يقع في ثلاثة آلاف صفحة مكتوبة باللغات اللاتينية والفرنسية والاسبانية واليونانية. ومن مميزاته أنه يسرد بكل دقة وأمانة مجريات الأمور في عصره. لقد فكت رموز الكتاب بعد حوالى مئة سنة من كتابته، ولم ينشر إلا في عام ١٨٢٥.

ظلت استخبارات الهواة عبارة عن اشارات سطحية في المضمار الأدبي، إلى أن تعمقت وتبلورت بفضل رابليه. هذا الأديب الفرنسي من عصر النهضة، كرس الكتابة السرية في أدبه. وليس أدل على ذلك مما حصل لبطله بانتاغرويل الذي تلقى

يوماً ورقة صغيرة مربوطة بخاتم من ذهب، حاول بشتى الوسائل الكيميائية وغير الكيميائية، معرفة ما إذا كانت الورقة تحوي رسالة سرية فلم يفلح. أخيراً، استدعى أمهر رجال عصره في هذا الشأن فتبين أن الرسالة تقتصر على الجملة التالية المكتوبة بالعبرية: «قل، أيها العاشق المزيف، لماذا غدرت بي؟» وهكذا يمكن القول أن رابليه فتح باب الأدب على مصراعيه وأدخل منه الكتابات السرية.

عام ١٨٢٩ نشر كتاب سيكولوجية الزواج لمؤلفه الكاتب الفرنسي الشهير بلزاك. في هذا الكتاب الطريف عن الحياة الزوجية أربع صفحات أشبه شيء بالشيفرة. وقد أشار الكاتب بشأنها إلى أنّه قصد أن يضمنها أفكاراً يعتبرها مهمة. حاول الكومندان بازيري أن ينفذ إلى ماهية محتوى هذه الصفحات فلم يفلح. ولعل الأمر لا يعدو كونه تسلية، خصوصاً، إذا لاحظنا أنها تتبدل من طبعة إلى أخرى من طبعات الكتاب المتعددة.

بعد سنوات من ذلك، جرى نشر أهم عمل في نطاق التصورات التي ترتكز على فك رموز رسالة سرية: «الخنفساء الذهبية» لمؤلفه إدغار بو، الذي كان شغوفاً باللامعقول. في ١٨ كانون الأول ـ ديسمبر سنة ١٨٣٩ نشر في إحدى المجلات الأميركية مقالاً عن فن الترميز أكد فيه أن ما من رسالة مكتوبة بالشيفرة إلا ويمكن فكها وترجمتها. فبإمكان أي من الناس، حسب بو، أن يكوّن شيفرة خاصة به هي عبارة عن رموز تحل محل الأبجدية، وبإمكان بو أن يقرأها بعد كشف ألغازها. إثر هذا التأكيد المبالغ به حتماً، انهالت الطلبات على صاحب الادعاء. صحيح أنه نجح في بعض ما ادعاه، لكن نجاحه هذا لم يكن بالكامل ولا بالبارز. صحيح أن بو لم يقدم لهذا العلم الشيء الكثير، إلا أن الحق يقضي بالاعتراف له بفضل تشجيع الكثيرين على ولوج هذا الباب. وقد أقر فريدمن له بذلك في ما بعد.

جول ڤرن، هو الآخر مارس فن الكتابة السرية في بعض من مؤلفاته: «رحلة إلى مركز الأرض» و«جانغادا». ولا ننسى في هذا السياق بول فيفال في مؤلفه الشهير «رفاق الصمت» لكن الأشهر في هذا النطاق هم كاتبو القصة البوليسية الأنجلوسكسونية. وأولهم شرلوك هولمز، الذي بزَّ الآخرين ممن سبقوه في مؤلفه «مغامرة الراقصين من الرجال»، وفيه تؤلف رسوم الأشخاص أبجدية متكاملة من خلال أيديهم وأرجلهم.



إحدى الرسائل السرية في كتاب شرلوك هولمز «مغامرة الرجال الراقصين»

في السينما، حاول البعض اللجوء إلى بعض الرموز، خاصة في أفلام الحركة والتجسس، كما في فيلم جيمس بوند «قبلات لذيذة من روسيا».

إن التقدم الهائل في تكنولوجيا الشيفرة جعلت من عالم الرموز نطاقاً معقداً يحتاج إلى كثير من المهارات والتجهيزات. وهذا ما جعل استخبارات الهواة تتجه لأن تصبح مجرد ألعاب صبيانية محدودة الفائدة، ضيقة المجال.

الفصل الثالث عشر

الاستخبارات الخاصة

منذ قديم الزمان والتجار يستخدمون المراسلات السرية لإخفاء أسرار مهنتهم. الكنيسة القديمة أيضاً لجأت إلى السرية تجنباً لكل مندس أو خائن، وإخفاء الأحجام الحقيقية لمتلكاتها من أموال منقولة وغير منقولة. وهناك أيضاً المتشردون، الذين كانوا يرسمون لبعضهم البعض اشارات على الحيطان بالطبشور، وذلك لنقل معلومات عن سكان الأحياء التي تكون مرتع نشاطاتهم. فهذه الاشارة ⊕ تعني أن صاحب البيت مضياف، وهذه  تعني أن ليس في البيت سوى نساء، وهذه ᴧᴧᴧᴧ تعني وجود كلب شرس. أما هذه □ فتعني أمراً يجب الحذر منه وتجنبه وهو أن أصحاب البيت يعرضون على المتشرد عملاً. وقد أدى التطور الاجتماعي إلى انقراض مثل هذا النوع من الشيفرة.

منذ وقت ليس ببعيد، كان التجار يدونون على سلعهم سعر الشراء بشيفرة خاصة يختارونها، بينما يدونون سعر المبيع بالأرقام العادية. إلا أن هذه الشيفرة كثيراً ما كانت تكتشف من قبل مؤسسات تجارية خاصة بغية كشف سعر الشراء وبالتالي جعل المنافسة أكثر ايلاماً وفعالية. كما حدث لمحلات ماسترز الكبرى في نيويورك من قبل محلات ماسي. وهذا ما جعل هذه الطريقة تنقرض، هي الأخرى. وقد ساعد في ذلك تطور التقنيات الحديثة كالاتصالات البرقية. واعتباراً من عام ١٨٤٤، انتشرت طريقة المراسلات بواسطة البرق الكهربائي في أوروبا لتنتقل عام ١٨٦٦ بواسطة الكابل العابر للمحيط إلى القارة الأميركية، ومن بعدها، لتلف العالم بأسره.

هناك حالات بلغ فيها الحذر التجاري درجة جعلت أصحاب بعض البيوتات

المالية أو الصناعية الكبرى يلجأون إلى تكوين نظام شيفرة خاص بمراسلاتهم التجارية. كما فعل ايفار كروغر، ملك الكبريت السويدي، الذي تمادى في حذره بأن وظف لديه أيف غيلدن ليعلم بعض موظفيه أصول هذا الفن.

كذلك نمت الجاسوسية الخاصة في عالم التجارة والصناعة. ولم تكن هذه الجاسوسية أقل شأناً من ناحية الوسائل الحديثة المستعملة فيها من الجاسوسية بين الدول. فآلات التصوير الصغيرة وآلات التسجيل الدقيقة كان لها، هنا أيضاً، دور بارز وفعال. وهذا ما فعلته مؤسسة صناعية ضخمة في هونغ كونغ عندما اتفقت مع موظف في دائرة البرق على اطلاعها على برقيات مؤسسة منافسة أخرى. وكانت النتيجة أن استطاعت هذه المؤسسة من إبعاد منافستها عن كل الالتزامات، وذلك عن طريق تقديم أسعار أقل بقليل من أسعارها التي كشفت من خلال البرقيات.

وبغية تجنب حوادث وخيمة من هذا النوع، عمدت مؤسسات كثيرة إلى وضع أنظمة للشيفرة خاصة بها. وهذا أصبح مألوفاً بصورة خاصة في شركات البترول، سواء كانت شركات تنقيب أو شركات استخراج أو شركات تصنيع أو تسويق. ذلك أن الأمر بالنسبة لهذه المجموعات الاقتصادية الضخمة يستدعي السرية باعتبار أن سراً واحداً من الأسرار يدر، إذا ما حفظ، مئات الملايين من الدولارات أرباحاً.

عقب الحرب العالمية الأولى، بدأت التجارة العالمية تزدهر وبدأ، مع هذا الازدهار، الشعور بالحاجة إلى السرية في المراسلات التجارية. لكن الأمر بلغ مدى أوسع بكثير بعيد الحرب العالمية الثانية، حيث لم يعد نظام الشيفرة التجارية العامة يفي بالغرض، وحيث أصبح لكل مؤسسة نظامها الخاص بها. حتى أن ازدهاراً كبيراً موازياً تناول صناعة آلات الترميز وفك الرموز باعتبار أن كثيراً من المؤسسات لجأ إلى اقتنائها امعاناً في السرية. وهذا ما أدى إلى ادخال الكثير من التحسينات على تلك الآلات. وكذلك الى اختراع أنماط أخرى منها تستطيع ترجمة الرسائل السرية، حال تلقيها، على أشرطة. أو مباشرة على الأوراق بواسطة طابعات الكترونية. ولا شك في أن التلازم بين الحاجة إلى تطوير أنظمة الشيفرة العسكرية والديبلوماسية وتطوير انظمة الشيفرة التجارية، قد جعل الأمور تسير بسرعة أكبر، كما جعل صناعة الأجهزة الخاصة بذلك تسير شوطاً بعيداً مستفيدةً مما حققته تقنيات أخرى في مجالات كثيرة.

تاريخ العلوم حافل بالمطابقات. فقد اكتشف كل من جون أدامس ولو ڤيرييه

وجود الكوكب نبتون في وقت واحد تقريباً. وبينما كان داروين يبلور نظرية النشوء، إذا بزميله والاس يكتب له رسالة تتضمن الأفكار نفسها. بعد خمس سنوات من اختراع مورس للبرق، توصل وتستون إلى الاختراع نفسه ودون أي اتصال من أي نوع بين الاثنين. هذه الأمثال وغيرها تجعل من المألوف حصول ما يشبهها في علم الرموز. وهذا ما حصل فعلاً لأربع رجال من أربعة بلدان مختلفة عندما صححوا، في فترات متقاربة بعد الحرب العالمية الأولى، الآلة الترميزية ذات الأسطوانة. هؤلاء الرجال هم: الأول ادوارد هابيرن المولود عام ١٨٦٩، والذي أنهى تصميم الآلة عام ١٩١٧، وهو أميركي. والثاني هوغو كوخ، الذي صمم آلة مماثلة عام ١٩١٩، وهو هولندي. وعام ١٩٢٧، جرى التنازل عن حقوق الاختراع الى الالماني أرثر شاربيوس، الذي سبق له أن وضع تصحيحاً لجهاز، يعمل هو الأخر، على أساس أسطوانة ترميزية. أما الرابع، وهو السويدي آرفيد دام، فقد قام بتصميم آلة للترميز ذات أسطوانة مزدوجة عام ١٩١٩، بعد ثلاثة أيام فقط من انتهاء كوخ من تصميم آلته. وقد لمع اسمه، ليس فقط باعتباره مخترعاً لهذه الآلة، بل أيضاً بإنشائه شركة أصبحت في ما بعد أكثر المؤسسات ازدهاراً في هذا المضمار. تطورت آلة دام كثيراً في الفترة ما بين الحربين العالميتين بفضل أحد عناصر الشركة النشيطين، بوريس هاجلين، حتى بلغت قياساتها في سنة ١٩٣٤، ١٨ × ١٣,٥ × ٧،وزنتها١,٢٥٠ كلغ. وهذا ما جعل الفرنسيين يتبنونها ويطلبون منها خمسة آلاف وحدة، مساهمين بذلك في إنعاش المؤسسة مالياً وبالتالي في إعطائها زخماً علمياً وتقنياً ملحوظاً.

عام ١٩٣٦، والعالم في سباق مع التسلح ومع الزمن، تنبه هاجلين إلى الفرصة الملائمة لترويج آلته. اتصل بالسلطات الأميركية التي تبنت اختراعه بعد أن طلبت إدخال بعض التعديلات عليه. وفي ٩ نيسان ـ ابريل سنة ١٩٤٠، كان هاجلين في السويد عندما علم من الإذاعة بغزو النروج. فما كان منه إلا أن جمع تصاميمه وآلتين مفككتين من اختراعه واجتاز بها المانيا إلى أن وصل إلى جنوى ومنها أبحر إلى نيويورك على متن الباخرة كونتي دي سافويا. وكانت تلك آخر رحلة له إلى هناك.

أطلق الأميركيون على آلة دام اسم كونفرتر م ـ ٢٠٩. وقد قاموا بتوزيع وحدات منها على كل القطع، بحيث بلغ عدد ما وزع مئة وأربعين ألف آلة. وبهذا، أصبح هاجلين أكبر مليونير جمع ثروته من علم الشيفرة.

عام ١٩٤٤، عاد إلى السويد وفي اعتقاده أن تجارة آلات الترميز لا زالت رائجة هناك. لكنه سرعان ما وجد نفسه مخطئاً. لذلك، وإثر قانون، أصدرته الحكومة السويدية، يقضي بتملكها للاختراعات الضرورية للدفاع الوطني، نقل هاجلين مقر مؤسسته إلى سويسرا، وذلك بين عامي ١٩٤٨ و١٩٥٩. ومن هناك بدأ بتأمين طلبات الحكومات والأشخاص من حقيقيين ومعنويين في كلا القطاعين العام والخاص، وفي معظم أنحاء العالم.

مع دخول الحاسبات والأدمغة الالكترونية السوق، انطبعت الاستخبارات الخاصة، لا سيما التجارية منها، بطابع جديد اقتضته المستجدات بكل ما أدخلته إلى السرية وإلى الترميز من طرق وتقنيات جديدة.

وقد برزت في مضمار الأدمغة الألكترونية أبحاث مؤسسة .I. B. M لا سيما تلك التي قام بها والتر توكمان وكارل ماير بالتعاون مع وكالة الفضاء الأميركية. والغريب أن هذه الأبحاث اعتمدت أبسط وسائل الترميز وهي الاستبدال الأبجدي البسيط. لكنها مع ذلك أدت بفضل تطويراتها الى نتائج مرضية، وذلك على الرغم مما أثير حولها من تشكيك في سريتها. وممن شككوا بها المهندسان الالكترونيان في جامعة ستانفورد مارتن هيلمن ووايتفيلد ديفي.

لم يكتف هذان المهندسان بالانتقاد، بل تعدياه الى الابداع. فهما أول من أنشأ نظام المفتاح المزدوج، الأول للترميز والثاني لفك الرموز. كذلك أقاما رابطا رياضيا بين المفتاحين على خط واحد، بمعنى أن بالإمكان حساب مفتاح الترميز بالاستناد الى مفتاح فك الرموز. غير أن العكس مستحيل عمليا، فهو يتطلب مئات من السنين لاستخراجه، حتى مع أكبر الحاسبات طاقة.

خلال السنوات الأخيرة، أطلقت طرق عدة لتطبيق ما جاء به هيلمان وديفي. أكثر تلك الطرق انتشاراً اليوم أطلقت عام ١٩٧٧ من قبل ثلاثة مهندسين من مؤسسة مسشوستس للتكنولوجيا وهم ريفست وشامير وأدلمان. ومن الصعب التكهن بمستقبل ما جاء به ديفي وهيلمان، ومن بعدهما كثيرون، على صعيد المنجزات التجارية. لكن الثابت هو أن هؤلاء الرجال فتحوا بابا واسعا لحقل لا حدود له. والمستقبل وحده سيقرّر درجة خصوبة هذا الحقل.

والآن؟

يشهد العصر الذي نعيشه انقلابات مستمرة في مختلف الحقول. هذا الواقع ينطبق على علم الاستخبارات بمختلف طرقه وتجهيزاته. ويرتبط التطور السريع لهذا العلم بعنصرين أساسيين اثنين. الأول هو هجمة الرياضيات والمعلوماتية، التي من دونها لا يمكن تصور قيام هذا العلم. أما العنصر الثاني، فيكمن في التطور الهائل لوسائل الاتصالات، تلك التي من شأنها أن تضاعف من نشاطات الاستخبارات، لقرون مضت، كان عمل الاستخبارات يقتصر على التقاط الرسائل وحماية المراسلات. في حين أن أثرها امتد اليوم إلى قطاعات تتزايد باطراد وتمتد من الهاتف الى الأقمار الصناعية مرورا بتخزين المعلومات.

في نطاق الخصومة الأبدية بين الدفاع والهجوم، أي بين الشيفرة وفكها، يصعب تحديد أي من الفريقين أكبر حظا من الآخر. واذا جاز الحديث عن الاستغناء عن الشق العائد لفك الرموز، فهذا لا يمكن أن يتم إلا من خلال مفهوم جديد للعلاقات بين الأمم، وقد تنقضي أجيال وعصور قبل التوصل الى هذا المفهوم المنتظر.

فهرس حرب الاستخبارات

صدر من هذه السلسلة عن

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

- الذكاء والقيم المعنوية في الحرب — تأليف: الجنرال جان بيريه / ترجمة: اكرم الديري والمقدم الهيثم الأيوبي
- الفكر والحرب — تأليف: جان غيتون / ترجمة: المقدم الهيثم الأيوبي وأكرم الديري
- آراء في الحرب — تأليف: أكرم الديري
- إدارة الحرب — تأليف: جون فولر / ترجمة: أكرم الديري
- حرب المستضعفين — تأليف: روبرت تابر / ترجمة: محمود سيد رصاص
- رجال ضد الدبابات — تأليف: جون ويكس / ترجمة: المقدم الركن مصطفى درويش
- الأسلحة والتكتيكات — تأليف: وينترنغهام وبلاشفور سنل / ترجمة: المقدم حسن بسام
- الحرب الفيتنامية الثالثة — تأليف: وان تين زونغ / ترجمة: العميد غازي الجابي

تحت الطبع

- الحروب الصليبية — تأليف: ر. س. سميل
ترجمة: سامي هاشم
- البحر في الاستراتيجية الحديثة — تأليف: ل. و. مارتن
ترجمة: العقيد البحري المتقاعد عبد الكريم الحاج عناد

المؤسسة العربية

للدراسات و النشر

بناية برج الكارلتون – ساقية الجنزير

ت 1/ 807900 برقيا (مركيالي) بيروت

ص ب 5460/ 11 بيروت

تلكس 40067-LB/ DIRKAY

الطبعة الثانية 1987

كان التلغراف أعظم اختراع تم إنجازه خلال النصف الأول من القرن التاسع، وقد وجد العسكريون في التلغراف بادئ الامر اكتشافاً رائعاً لتسهيل أعمالهم انبثقت منه نظريات جديدة وهكذا بدأ عالم ما يعرف ب (الشيفرة العسكرية) ومما زاد في قيمة هذه الشيفرة انها تتناسب في استعمالها مع الأجهزة التلغرافية، يضاف الى ذلك ان يكون نظامها، مهما كانت اشكالها، مبنياً على قواعد أساسية هي: استحالة فكها مادياً، احتمال وقوعها في يد الأعداء، إمكانية حفظها دون كتابتها، ملاءمتها للمراسلات التلغرافية، سهولة نقلها، واخيراً سهولة ممارستها.

وهذا الكتاب يتحدث عن علم الرموز أو (الشيفرة) كما يطلق عليها عن نشأتها وأسماء الذين برزوا فيها وانواعها واهم القضايا المرتبطة بها، مستشهداً بوقائع حدثت منذ فجر التاريخ وأخرى لم يجف مدادها بعد.

ترى اصحيح ان هناك سباقا في علم الرموز يصل إلى حد إعلانه حرباً تدعى حرب الاستخبارات؟ الجواب كامن طي هذا الكتاب فارجع إليه.